

يوزع مجاناً ولا يُباع

قُرَّةُ عَيْنِ الْمَوْحِكِينَ وَرُضِيَّتُ قُلُوبِ الْخَائِشِعِينَ



دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع
المصوّرة - مصر

تأليف
صبحي بن محمد رمضان

تأليف

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المصوّرة - مصر

قُرَّةُ عِيُونِ الْمُوحِدِينَ
وَرَوْضَةُ قُلُوبِ الْخَاشِعِينَ

كُلُّ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول على إذن خطي من المؤلف .

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

رقم الإيداع
١٦٠٣٢ / ٢٠٢٣

قُرَّةُ عَيْونِ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَوْضَةُ قُلُوبِ الْخَائِفِينَ



تأليف
صبحي بن محمد رمضان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي غمر العباد بلطائفه وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه فارق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء بترغيب الخلق في السؤال والدعاء فقال هل من داع فاستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له وباين^(١) السلاطين بفتح الباب ورفع الحجاب فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات في الجماعات والخلوات ولم يقتصر على الرخصة بل تطف بالترغيب والدعوة وغيره من ضعفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم شأنه وأقوى سلطانه وأتم لطفه وأعم إحسانه والصلاة على محمد نبيه المصطفى ووليه المجتبي وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليمًا^(٢).

فلا ريب أن الصلاة قرّة عيون المحبين، ولذة أرواح الموحدين، وستان العابدين ولذة نفوس الخاشعين، ومحك أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمة الله المهداة إلى عباده المؤمنين.

(١) باين بالشيء: أظهره وأعلنه. معجم اللغة العربية المعاصرة.

(٢) إحياء علوم الدين، (١/١٤٥).

هداهم إليها، وعرّفهم بها، وأهداها إليهم على يد رسوله الصادق الأمين، رحمة بهم، وإكراما لهم، لينالوا بها شرف كرامته، والفوز بقربه لا لحاجة منه إليهم، بل منّة منه، وتفضّلا عليهم، وتعبّد بها قلوبهم و جوارحهم جميعا، و جعل حظ القلب العارف منها أكمل الحظين وأعظهما؛ وهو إقباله على ربّه سبحانه، وفرحه وتلذذه بقربه، وتنعمه بحبه، وابتهاجه بالقيام بين يديه، و انصرافه حال القيام له بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده، و تكميله حقوق عبوديته ظاهرا و باطنا حتى تقع على الوجه الذي يرضاه ربه سبحانه (١).

فالصلاة قرّة عيون المحبين وسرور أرواحهم، ولذة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة، فلهم فيها شأن وللنفارين شأن (٢).

وبالجملة فمن كان قرّة عينه في الصلاة فلا شيء أحب إليه ولا أنعم عنده منها، ويودّ أن لو قطع عمره بها غير مشتغل بغيرها، وإنما يسلى نفسه إذا فارقتها بأنه سيعود إليها عن قرب فهو دائماً يثوب إليها ولا يقضى منها وطراً. فلا يزن العبد إيمانه ومحبه لله بمثل ميزان الصلاة، فإنها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل (٣).

فَالصَّلَاةُ قُرَّةُ عِيُونِ الْمُحِبِّينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَا فِيهَا مِنْ مُنَاجَاةٍ مِنْ لَا تَقْرُ
الْعِيُونَ وَلَا تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ وَلَا تَسْكُنُ النَّفُوسُ إِلَّا إِلَيْهِ وَالتَّعْنَمُ بِذِكْرِهِ وَالتَّذَلُّلُ

(١) أسرار الصلاة لابن القيم، (١).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم، (٣٠٧).

(٣) طريق الهجرتين، (٣٠٨).

والخضوع له والقرب منه وَلَا سِيَمًا فِي حَالِ السُّجُودِ وَتِلْكَ الْحَالِ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ فِيهَا وَمَنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ يَا بِلَالُ أَرْحَنَّا بِالصَّلَاةِ فَأَعْلَمُ بِذَلِكَ أَنَّ رَاحَتَهُ ﷺ فِي الصَّلَاةِ كَمَا أَخْبَرَ أَنْ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِيهَا. (١)

إن الصلاة عمود الدين، وركن من أهم أركان الإسلام، وهي العلامة على صدق الإيمان؛ فهي الحدّ الفاصل بين الكفر والإيمان، وتاركها هدف لأقصى العقوبات التي جاء بها الشرع المطهر في الدنيا والآخرة، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥]

ولا يمكن أن تحقق الصلاة أهدافها إلا إذا توافر لها الخشوع وحضور القلب، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نعوذ عليها أنفسنا وأولادنا منذ أن يبلغ الناشئ سبع سنين، ولا تسقط عن المكلف بحال من الأحوال، ما دام متمتعاً بالعقل إلى أن يموت.

قال جل ثناؤه: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

والصلاة صلة بين العبد وربّه، وليس تكفي فيها الحركات والألفاظ إن خلت من الروح ومشاركة القلب لهذه الحركات والألفاظ، وروح الصلاة هو الخشوع، ولذلك أثبت ربنا تبارك وتعالى صفة الفلاح للمؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، فقال عزّ من قائل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

(١) رسالة ابن القيم إلى احد إخوانه، (٣٣).

والصلاة: روضة عبادات فيها من كل زوج بهيج تكبير ويفتح به الصلاة وقيام يتلو فيه المصلي كلام الله، وركوع يعظم فيه الرب، وقيام من الركوع يملؤه بالثناء على الله، وسجود يسبح الله تعالى فيه بعلوه وبيتل إليه بالدعاء، وعود للدعاء والشهد، وختام بالتسليم.

والصلاة: عون في المهمات ونهي عن الفحشاء والمنكرات، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] (١).

والصلاة: نور المؤمنين (٢) في قلوبهم ومحشرهم (٣).

قال ابن رجب: فهي للمؤمنين في الدنيا نورٌ في قلوبهم وبصائرهم، تُشرق بها قلوبهم، وتستنير بصائرهم ولهذا كانت قرّة عين المتقين، كما كان النبي ﷺ يقول: «جعلت قرّة عيني في الصلاة» خرّجه أحمد والنسائي (٤).

(١) من الأحكام الفقهية في الطهارة والصلاة والجنائز للعثيمين، (٢٦).

(٢) (الصلاة نور): معناه أنها تمنع من المعاصي وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدى إلى الصواب كما أن النور يستضاء به.

(٣) لما رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَيَاْبِعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا».

(٤) إسناده حسن، رجاله ثقات. وأخرجه أحمد، (١٤٠٣٧)، و ابن سعد، (٣٩٨/١)، وابن أبي عاصم في "الزهد"، (٢٣٤)، والنسائي، (٦١/٧)، -وصححه ابن حجر في الفتح (٣٤٥/١١). قال ابن القيم: وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ يَشْغَلُهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ عَنْ مُرَاعَاةِ أَحْوَالِ

وفي رواية: «الجائع يشبع، والظمان يروى، وأنا لا أشبع من حُبِّ الصلاة»^(١). وفي "المسند" وغيره عن ابن عباس، قال: قال جبريلُ للنبيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَبَّبَ إِلَيْكَ الصَّلَاةَ، فَخُذْ مِنْهَا مَا شِئْتَ^(٢).

وخرَّج أبو داود من حديث رجلٍ من خزاعة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « يَا بَلَاءُ، أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأَرْحِنَا بِهَا »^(٣).

قال ابن القيم: فَقَرَّةٌ عَيْنِ الْمُحِبِّ وَلَذَّةٌ وَنَعِيمٌ رُوحِهِ: فِي طَاعَةِ مَحْبُوبِهِ. بِخِلَافِ الْمُطِيعِ كَرَهَا، الْمُتَحَمِّلِ لِلْخِدْمَةِ ثِقَلًا^(٤).

وهي نورٌ للمؤمنين في قبورهم، ولاسيما صلاة الليل، كما قال أبو ذر:

المؤمنين وغيرهم مع كمال إقباله وقربه من الله تعالى، وحضور قلبه بين يديه واجتماعه عليه. «وكان يدخل في الصلاة وهو يريد إطلالتها فيسمع بكاء الصبي فيخففها مخافة أن يشق على أمه»، وأرسل مرةً فارساً طليعةً له، فقام يصلي وجعل يلتفت إلى الشعب الذي يحيي منه الفارس، ولم يشغل ما هو فيه عن مراعاة حال فارسه. وكذلك كان يصلي الفرض وهو حامل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع ابنة بنته زينب على عاتقه، إذا قام حملها، وإذا ركع وسجد وضعها. وكان يصلي فيحيي الحسن أو الحسين فيركب ظهره فيطيل السجدة كراهية أن يلقيه عن ظهره. وكان يصلي فتحيي عائشة من حاجتها والباب معلق، فيمشي فيفتح لها الباب، ثم يرجع إلى الصلاة. زاد المعاد، (١/٢٥٦).

(١) ذكره الديلمي في، مسند الفردوس، (٢٦٢٢).

(٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير، وفيه علي بن يزيد وفيه كلام، وبقيته رجاله رجال الصحيح. أفاده الهيثمي في المجمع، (٢/٢٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود، (٤٩٨٥)، وأحمد، (٢٣٠٨٨)، والطبراني في "الكبير" (٦٢١٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٤) مدارج السالكين، (٢/١٠٢).

«صَلُّوا رَكَعَتَيْنِ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ لِظُلْمَةِ القُبُورِ» (١)

وهي في الآخرة نورٌ للمؤمنين في ظلمات القيامة، وعلى الصراط، فإنَّ الأنوارَ تُقسم لهم على حسب أعمالهم (٢). وفي "المسند" و"صحيح ابن حبان" عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ: «مَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ» (٣).

والصلاة: تمحى بها الخطايا وتكفر بها السيئات قال النبي، ﷺ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ حَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الحَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا» (٤)

وقال ﷺ: «الصَّلَاةُ الحَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغَشَّ الكِبَائِرُ» (٥).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللهُ غَدًا مُسْلِمًا، فَلْيَحَافِظْ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادِي بِهِنَّ، فَإِنَّ اللهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنْنَ الهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا المْتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ

(١) أخبار مكة للفاكهي، (٣/١٣٤).

(٢) جامع العلوم لابن رجب، (٢/٦٤٦).

(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٦٥٧٦)، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَبَانَ (١٤٦٧)، وَرِجَالُ أَحْمَدَ ثِقَاتٌ.

(٤) أخرجه البخاري، (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٥) أخرجه مسلم، (٢٣٣).

الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النَّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ» (١).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله: «إِنَّ أَمَّهُمْ أُمُورِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، مَنْ حَفِظَهَا وَحَافِظًا عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِسِوَاهَا أَضْيَعُ» (٢).

فالمحبِّ راحته، وقرّة عينه في الصلاة، والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك؛ بل الصلاة كبيرة شاقة عليه، إذا قام فيها كأنه على الجمر، حتى يتخلّص منها، وأحب الصلاة إليه أعجلها، وأسرعها؛ فإنه ليس له قرّة عين فيها، ولا لقلبه راحة بها، والعبء إذا قرّت عينه بشيء، واستراح قلبه به، فأشق ما عليه مفارقتها، والمتكلف الفارغ القلب من الله، والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا، أشق ما عليه الصلاة، وأكره ما إليه طولها، مع تفرّغه وصحته وعدم اشتغاله (٣).

فنظرا لعظم أمر الصلاة، وبما أنّ الحياة المادية التي غزتنا وسيطرت على عقولنا وتصرفاتنا، و الصوارف من الملاهي ووسائل الترفيه التي ملأت على كثير من الناس حياتهم.. كل ذلك يدعونا إلى أن نبين أهمية عظم قدر الصلاة من باب التناصح في الله، ومن باب ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، والأمر

(١) أخرجه مسلم، (٦٥٤).

(٢) رواه مالك في الموطأ، (٦)، وعبد الرزاق في مصنفه، (٢٠٣٨).

(٣) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، (ص-٣٣).

كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ (١).

فهذه رسالة سميتها "قُرَّةُ عَيْونِ المُوَحِّدِينَ، وَرَوْضَةُ قُلُوبِ الخَاشِعِينَ" ذكرت فيها ستة عشر مبحثًا، وهذه المباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: ... مشاهد الصلاة التي تقرُّ بها العين.

المبحث الثاني: ... صلاة النبي - ﷺ.

المبحث الثالث: ... صلاة الصحابة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

المبحث الرابع: ... صلاة التابعين وأتباعهم.

المبحث الخامس: التحذير من ترك الخشوع في الصلاة.

المبحث السادس: ... منزلة الخشوع في الصلاة.

المبحث السابع: ... حكم الخشوع في الصلاة.

المبحث الثامن: ... حكم الوسوسة في الصلاة.

المبحث التاسع: ... الخشوع في الصلاة من إقامتها.

المبحث العاشر: ... الصلاة بخشوع قرَّةٌ للعين وراحةٌ للقلب.

المبحث الحادي عشر: ... مراتب الناس في الصلاة.

المبحث الثاني عشر: ... الخشوع في قراءة القرآن في الصلاة وغيرها.

المبحث الثالث عشر: ... أهمية حضور القلب في الصلاة.

(١) أخرجه البخاري، (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

- المبحث الرابع عشر: ... فوائد و مزايا الخشوع في الصلاة
- المبحث الخامس عشر: ... الخشوع يثمر التلذذ بطعم الإيمان.
- المبحث السادس عشر: أسباب الخشوع في الصلاة، وهي:
- ١- معرفة الله تعالى.
 - ٢- علاج قسوة القلب.
 - ٣- الابتعاد عن الوسوسة.
 - ٤- ذكر الموت في الصلاة.
 - ٥- تدبّر القرآن، وتدبّر معاني أقوال الصلاة.
 - ٦- الاجتهاد في الدعاء قبل الصلاة وفي مواضعه في الصلاة.
 - ٧- فهمٌ وتدبّر معاني أفعال الصلاة..
 - ٨- فهم وتدبّر معاني أقوال الصلاة.
 - ٩- إحسان الطهور، وإكماله.
 - ١٠- المحافظة على السنن الرواتب قبل الفريضة وبعدها.
 - ١١- سنن تساعد على الخشوع
- أ- متابعة المؤذن من الأمور التي تجلب الخشوع في الصلاة.
- ب- العمل بآداب المشي إلى الصلاة من أعظم ما يجلب الخشوع.
- ج- عدم الالتفات لغير حاجة.
- د- عدم رفع البصر إلى السماء.
- هـ- عدم افتراش الذراعين في السجود.

- و- عدم التَّخَصُّرِ.
- ز- عدم النظر إلى ما يُلهي ويشغل.
- ح- عدم تشبيك الأصابع، وفرقتها في الصلاة.
- ط- عدم الصلاة بحضرة الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان.
- ي- عدم الصلاة في المسجد لمن أكل البصل والثوم.
- ك- النظر إلى موضع السجود، وإلى السبابة.
- ل- عدم السدل في الصلاة وعدم تغطية الفم.
- م- الصلاة إلى سترة، والدنوُّ منها.
- والله أسأل أن يجعل هذا العمل القليل: خالصاً لوجهه الكريم، مباركاً، نافعاً لي في حياتي، وبعد مماتي، وأن ينفع به كل من انتهى إليه، ويتقبل ممن كتبه وطبعه وقام على نشره، وأن يجعله حجةً لنا، لا حجةً علينا؛ فإنه تعالى أكرم مسؤول، وأحسن مأمول، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

أبو عبد الرحمن

صبحي بن محمد رمضان

حرر في: ضحى الثلاثاء- ٥ / جمادى الأولى / ١٤٤٤. -الموافق

٢٩ / نوفمبر / ٢٠٢٢

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المبحث الأول مشاهد الصلاة التي تقربها العين.

حول قرّة العين:

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: «... وَقَرَّتْ عَيْنُهُ تَقَرُّ: سُرَّتْ، قَالَ: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [سورة طه: ٤٠]، وَقِيلَ لِمَنْ يُسَرُّ بِهِ: قُرَّةٌ عَيْنٍ، قَالَ: ﴿قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَكَذَلِكَ﴾ [سورة القصص: ٩] وَقَوْلُهُ: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [سورة الفرقان: ٧٤] قِيلَ: أَصْلُهُ مِنَ الْقُرِّ: أَيِ الْبَرْدِ، فَقُرَّتْ عَيْنُهُ، قِيلَ: مَعْنَاهُ بَرَدَتْ فَصَحَّتْ، وَقِيلَ: لِأَنَّ لِلسُّرُورِ دَمْعَةً بَارِدَةً قَارَةً، وَلِلْحُزَنِ دَمْعَةً حَارَةً؛ وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِمَنْ يُدْعَى عَلَيْهِ: أَسَخَنَ اللهُ عَيْنَهُ، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْقَرَارِ، وَالْمَعْنَى: أَعْطَاهُ اللهُ مَا تَسْكُنُ بِهِ عَيْنُهُ، فَلَا يَطْمَحُ إِلَى غَيْرِهِ» (١).

قَالَ المَرْوَزِيُّ: وَلَوْ لَمْ يَسْتَدِلَّ الْمُؤْمِنُ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ إِلَّا بِمَا أَلْزَمَ قَلْبَ حَبِيبِهِ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ حُبِّ الصَّلَاةِ، وَجَعَلَ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِيهَا دُونَ سَائِرِ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا، وَإِنْ كَانَ ﷺ مُحِبًّا لِجَمِيعِ الطَّاعَاتِ، وَلَكِنَّهُ خَصَّ الصَّلَاةَ فَأَخْبَرَ أَنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ جُعِلَ فِي الصَّلَاةِ لِرَبِّهِ، لَكَفَاهُ بِذَلِكَ دَلِيلًا (٢).

(١) مفردات ألفاظ القرآن، (ص ٦٦٣).

(٢) تعظيم قدر الصلاة، (١/ ٣٣١).

وقال المناوي: قوله: وجعلت قرّة عيني في الصلاة (لا تنقطع) (١) بل تستمر ما بقيت الدنيا وقيل أراد قرّة عينه أي بدوام ذكره وكمال محبته والأنس به. قال بعضهم: من قرّت عينه بالله قرّت به كل عين (٢).

قال القونوي: الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة والله تعالى هو النور وحقيقة العبد ظلمانية فالذات المظلمة إذا واجهت الذات النيرة وقابلتها بمحاذاة صحيحة فإنها تكتسب من أنوار الذات النيرة، فإذا تمت المقابلة وصحت المحاذاة، كمل اكتساب النور فإن تفتنت لذلك عرفت تفاوت حظوظ المصلين من ربهم في صلاتهم، وعرفت سر قوله عليه الصلاة والسلام "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ" (٣). وذلك لأنه كان حالة كونه فيها مجموع الهم على مطالعة جلال الله وصفاته فيحصل له من آثار ذلك ما تقر به عينه (٤).

(١) يشير إلى ما رواه النسائي قال أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ حَبِيبٍ بْنِ عَرَبِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً، فَأَوْجَزَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَقَدْ خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ: أَمَّا عَلَيَّ ذَلِكَ، فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَامَ تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ هُوَ أَبِيٌّ غَيْرٌ أَنَّهُ كَنَى عَنْ نَفْسِهِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ: «اللَّهُمَّ بَعْلِمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْسِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتِكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقُصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ... الحديث أخرجه النسائي (٥٤/٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: ١٣٠١.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (١٤٦/٢).

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٣٣٤/٢).

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٣٤٨/٣).

والعابد قد يأنس بعبادته فيستلذ بها بحيث لو منع منها لكان أعظم العقوبات عليه حتى قال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث أنه يحول بيني وبين قيام الليل وقال آخر: اللهم ارزقني قوة الصلاة في القبر (١).

ومن كان هذا شأنه، فإنه يستجلب الخشوع، فالخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِمَنْ فَرَّغَ قَلْبُهُ لَهَا، وَاشْتَغَلَ بِهَا عَمَّا عَدَاهَا، وَآثَرَهَا عَلَى غَيْرِهَا، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ رَاحَةً لَهُ وَقُرَّةٌ عَيْنٍ (٢).

فَقُرَّةٌ عَيْنٍ الْمُحِبِّ وَلَذَّةٌ وَنَعِيمٌ رُوحِهِ: فِي طَاعَةِ مَحْبُوبِهِ. بِخِلَافِ الْمُطِيعِ كَرَهَا، الْمُتَحَمِّلِ لِلْخِدْمَةِ ثِقَالًا (٣).

قال ابن القيم: والسالك في أول الأمر يجد تعب التكليف ومشقة العمل. لعدم أنس قلبه بمعبوده. فإذا حصل للقلب روح الأُنس زالت عنه تلك التكليف والمشاق. فصارت قرّة عين له. وقوة ولذة.

فتصير الصلاة قرّة عينه، بعد أن كانت عبئاً عليه. ويستريح بها، بعد أن كان يطلب الراحة منها. فله ميراث من قوله: ﷺ: «أرحننا بالصلاة يا بلال». «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» بحسب إرادته، ومحبتته، وأنسه بالله سبحانه وتعالى، ووحشته مما سواه (٤).

فالصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي

(١) إحياء علوم الدين للغزالي، (٣/٢١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (٥/٤٦١).

(٣) مدارج السالكين لابن القيم، (٢/١٠٢).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم، (٢/٣٥٤).

اللَّهُ تَعَالَى بِقَلْبِهِ وَقَالِبِهِ، فَهَذَا إِذَا انصَرَفَ مِنْهَا وَجَدَ خِفَّةً فِي نَفْسِهِ، وَأَحْسَسَ بِأَثْقَالِ
وُضِعَتْ عَنْهُ، فَوَجَدَ نَشَاطًا وَرَاحَةً وَرَوْحًا حَتَّى أَنَّهُ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا لِأَنَّهَا
قُرَّةُ عَيْنِهِ وَنَعِيمُ رُوحِهِ وَجَنَّةُ قَلْبِهِ وَمُسْتَرَاخُهُ فِي الدُّنْيَا فَلَا يَزَالُ كَانَهُ فِي سِجْنِ
وَضِيقِ حَتَّى يَدْخُلَ فِيهَا فَيَسْتَرِيحُ بِهَا لَا مِنْهَا (١).

قَالَ ابْنُ حَجْرٍ " فِي الْحَدِيثِ عَظَمَ قَدْرَ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ نَشَأَ عَنْهَا مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى
لِلْعَبْدِ الَّذِي تَقَرَّبَ بِهَا. وَذَلِكَ لِأَنَّ مَحَلَّ النِّجَاةِ الْقُرْبَةَ، وَلَا وَاسِطَةَ فِيهَا بَيْنَ الْعَبْدِ
وَرَبِّهِ، وَلَا شَيْءٍ أَقْرَّ لِعَيْنِ الْعَبْدِ مِنْهَا، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسِ الْمَرْفُوعِ: "
وَجَعَلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، وَمَنْ كَانَتْ
لَهُ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِي شَيْءٍ فَإِنَّهُ يُوَدُّ أَنْ لَا يُفَارِقَهُ وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُ لِأَنَّ فِيهِ نَعِيمَهُ وَبِهِ تَطْيِبَ
حَيَاتِهِ.

وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ لِلْعَابِدِ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى النِّصْبِ فَإِنَّ السَّالِكَ عَرْضَةَ
الْآفَاتِ وَالْفُتُورِ " . انْتَهَى (٢).

وللعبد في عبادته ثلاث مقامات.

الأول: أن يفعلها على الوجه الذي تسقط معه وظيفة التكليف باستيفاء
الشرائط والأركان.

الثاني: أن يفعلها كذلك وقد استغرق في بحار المكاشفة حتى كأنه يرى الله

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان، (١/٢٣٣).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١١/٣٤٥)، أثناء شرحه رَحِمَهُ اللهُ لِحَدِيثِ " مَنْ عَادَى لِي
وَلِيًّا " .

تعالى، وهذا مقامه ﷺ كما قال: "وجعلت قرّة عيني في الصلاة" لحصول الاستلذاذ بالطاعة والراحة بالعبادة وانسداد مسالك الالتفات إلى الغير باستيلاء أنوار الكشف عليه، وهو ثمرة امتلاء زوايا القلب من المحبوب واشتغال السرّ به، ونتيجته نسيان الأحوال من المعلوم واضمحلال الرسوم.

الثالث: أن يفعلها وقد غلب عليه أن الله تعالى يشاهده وهذا هو مقام المراقبة (١).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: قوله: "وجعلت قرّة عيني في الصلاة" أكثر الأقوال فيها وهو الأظهر أنها الصلاة الشرعية المعهودة لما فيها من المناجات وكشف المعارف وشرح الصدور (٢).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: المراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية، والمراد بالهداية هداية التوفيق، فتجده منشراح الصدر في شرائع الإسلام وشعائره، يفعلها بفرح وسرور وانطلاق.

فإذا عرفت من نفسك هذا، فاعلم أن الله أراد بك خيراً وأراد لك هداية، أما من ضاق به ذرعاً والعياذ بالله فإن هذا علامة على أن الله لم يرد له هداية، وإلا لانشرح صدره.

ولهذا تجدون الصلاة التي هي أثقل ما يكون على المنافقين، قرّة عيون

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطاني، (١/١٤٠).

(٢) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، (٢/٤٥).

المخلصين (١).

مشاهد قرّة العين:

قال ابن القيم: وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الصَّلَاةَ الَّتِي تَقْرُبُهَا الْعَيْنُ وَيَسْتَرِيحُ بِهَا الْقَلْبُ هِيَ الَّتِي تَجْمَعُ سِتَّةَ مَشَاهِدَ:

المشهد الأول:

الإِحْلَاصُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْحَامِلُ عَلَيْهَا وَالِدَاعِي إِلَيْهَا رَغْبَةً الْعَبْدُ فِي اللَّهِ وَمَحَبَّةً لَهُ وَطَلَبَ مَرْضَاتِهِ وَالْقُرْبَ مِنْهُ وَالتَّوَدُّدَ إِلَيْهِ وَامْتِثَالَ أَمْرِهِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ الْبَاعِثُ لَهُ عَلَيْهَا حَظًا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ بَلْ يَأْتِي بِهَا ابْتِغَاءً وَجَهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى مُحِبَّةً لَهُ وَخَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ وَرَجَاءً لِمَغْفِرَتِهِ وَثَوَابِهِ.

المشهد الثاني

مشهد الصدق والنصح، وَهُوَ أَنْ يَفْرَغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ فِيهَا وَيَسْتَفْرِغَ جَهْدَهُ فِي إِقْبَالِهِ فِيهَا عَلَى اللَّهِ وَجَمَعَ قَلْبَهُ عَلَيْهَا وَإِقْبَاعَهَا عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ وَأَكْمَلِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فَإِنَّ الصَّلَاةَ لَهَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ فَظَاهِرُهَا الْأَفْعَالُ الْمُشَاهِدَةُ وَالْأَقْوَالُ الْمَسْمُوعَةُ وَبَاطِنُهَا الْخُشُوعُ وَالْمِرَاقِبَةُ وَتَفْرِيعُ الْقَلْبِ لِلَّهِ وَالْإِقْبَالَ بِكَلِيَّتِهِ عَلَى اللَّهِ فِيهَا بِحَيْثُ لَا يَلْتَمِثُ قَلْبُهُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ فَهَذَا بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ لَهَا وَالْأَفْعَالُ بِمَنْزِلَةِ الْبَدَنِ فَإِذَا خَلَّتْ مِنَ الرُّوحِ كَانَتْ كَبَدَنِ لَا رُوحَ فِيهِ أَفَلَا يَسْتَحِي الْعَبْدُ أَنْ يُوَاجِهَ سَيِّدَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَلِهَذَا تَلَفَ كَمَا يَلْفُ الثَّوْبُ الْخَلْقَ وَيَضْرِبُ بِهَا وَجْهَ صَاحِبِهَا وَتَقُولُ ضَيْعُكَ اللَّهُ كَمَا ضَيْعْتَنِي

(١) شرح العقيدة الواسطية، (١/٢١٩).

وَالصَّلَاةَ الَّتِي كَمَلْ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا تَصْعَدُ وَلَهَا نُورٌ وَبِرْهَانٌ كَنُورِ الشَّمْسِ حَتَّى تَعْرُضَ عَلَى اللَّهِ فَيَرْضَاهَا وَيَقْبَلُهَا وَتَقُولُ حِفْظُكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي.

المشهد الثالث

مَشْهَدُ الْمُتَابِعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ، وَهُوَ أَنْ يَحْرُصَ كُلُّ الْحَرِصِ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ فِي صَلَاتِهِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَيُصَلِّي كَمَا كَانَ يُصَلِّي وَيَعْرُضُ عَمَّا أَحَدَثَ النَّاسُ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالْأَوْضَاعِ الَّتِي لَمْ يَنْقُلْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْءٌ مِنْهَا وَلَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَا يَقِفُ عِنْدَ أَقْوَالِ الْمُرْخِصِينَ الَّذِينَ يَقْفُونَ مَعَ أَقْلٍ مَا يَعْتَقِدُونَ وَجُوبِهِ وَيَكُونُ غَيْرَهُمْ قَدْ نَازَعَهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَوْجِبَ مَا أَسْقَطُوهُ وَلَعَلَّ الْأَحَادِيثَ الثَّابِتَةَ وَالسُّنَنَةَ النَّبَوِيَّةَ مِنْ جَانِبِهِ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى ذَلِكَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ مُقَلِّدُونَ لِمَذْهَبِ فُلَانٍ وَهَذَا لَا يَخْلُصُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا يَكُونُ عِذْرًا لِمَنْ تَخَلَّفَ عَمَّا عَلَّمَهُ مِنَ السُّنَنِ عِنْدَهُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا أَمَرَ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَاتِّبَاعِهِ وَحَدَهُ وَلَمْ يَأْمُرْ بِاتِّبَاعِ غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يَطَاعُ غَيْرَهُ إِذَا أَمَرَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ وَكُلُّ أَحَدٍ سِوَى الرَّسُولِ ﷺ فَمَا خُذَ مِنْ قَوْلِهِ وَمَتْرُوكٌ

وَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَا لَا نُوْمِنُ حَتَّى نَحْكُمَ الرَّسُولَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَنَا وَنَقَادَ لِحُكْمِهِ وَنَسْلَمَ تَسْلِيمًا فَلَا يَنْفَعُنَا تَحْكِيمُ غَيْرِهِ وَالِانْقِيَادَ لَهُ وَلَا يَنْجِينَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَلَا يَقْبَلُ مِنَّا هَذَا الْجَوَابَ إِذَا سَمِعْنَا نِدَاءَهُ سُبْحَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [القصص: ٦٥] فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَسْأَلَنَا عَنْ ذَلِكَ وَيَطَالِبُنَا بِالْجَوَابِ قَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَسَّعَلَنْ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَسَّعَلَنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْكُمْ بِي تَفْتَنُونَ وَعَنِي تَسْأَلُونَ » (١)

(١) رواه أحمد، (٢٥٠٨٩)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر، (رقم: ١٩): وقال الشيخ الألباني في

يَعْنِي الْمَسْأَلَةَ فِي الْقَبْرِ فَمَنْ انْتَهَتْ إِلَيْهِ سَنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَرَكَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فَسِيرِدْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَعْلَمُ.

المشهد الرابع:

مشهد الإحسان، وهو مشهد المراقبة وهو أن يعبد الله كأنه يراه وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سمواته مستويا على عرشه يتكلم بأمره ونهيه ويدير أمر الخليقة فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه وتعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه فيشهد ذلك كله بقلبه ويشهد أسمائه وصفاته ويشهد قيوما حيا سميعا بصيرا عزيزا حكيما آمرا ناهيا يحب ويبغض ويرضى ويغضب ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو فوق عرشه لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها فإنه يوجب الحياء والإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له ويقطع الوسواس وحديث النفس ويجمع القلب والهم على الله

فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد.

المشهد الخامس:

مشهد المِنَّةَ وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ الْمِنَّةَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ كَوْنَهُ أَقَامَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَأَهْلَهُ لَهُ وَوَفَّقَهُ لِقِيَامِ قَلْبِهِ وَبَدَنِهِ فِي خِدْمَتِهِ فَلَوْلَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَحْدُونَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُونَ (وَاللَّهُ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا... وَلَا تَصَدَقْنَا وَلَا صَلِينَا)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمُسْلِمَ مُسْلِمًا وَالْمُصَلِّيَ مُصَلِيًا كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ ﷺ ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] وَقَالَ ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم: ٤٠]

فالمِنَّةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ فِي أَنْ جَعَلَ عَبْدَهُ قَائِمًا بِطَاعَتِهِ وَكَانَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا يَكُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] وَقَالَ ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَرَزِينَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]

وَهَذَا الْمَشْهَدُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَشَاهِدِ وَأَنْفَعِهَا لِلْعَبْدِ وَكَلِمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْظَمَ تَوْحِيدًا كَانَ حَظُّهُ مِنْ هَذَا الْمَشْهَدِ أَتَمَّ.

وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ أَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الْعَجَبِ بِالْعَمَلِ وَرُؤْيَتِهِ فَإِنَّهُ إِذَا شَهِدَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمَانُ بِهِ الْمُؤَفَّقُ لَهُ الْهَادِي إِلَيْهِ شَغَلَهُ شُهُودُ ذَلِكَ عَنْ رُؤْيَتِهِ وَالْإِعْجَابِ بِهِ وَأَنْ يَصُولَ بِهِ عَلَى النَّاسِ فَيَرْفَعُ مِنْ قَلْبِهِ فَلَا يَعْجَبُ بِهِ وَمَنْ لِسَانَهُ فَلَا يَمُنُ بِهِ وَلَا يَتَكَثَّرُ بِهِ وَهَذَا شَأْنُ الْعَمَلِ الْمَرْفُوعِ وَمَنْ فَوَائِدُهُ أَنَّهُ يَضِيفُ

الْحَمْدُ إِلَىٰ وَليهِ وَمُسْتَحَقُّهُ فَلَا يَشْهَدُ لِنَفْسِهِ حَمْدًا بَلْ يَشْهَدُهُ كُلُّهُ لِهَيْبَةِ اللَّهِ كَمَا يَشْهَدُ
النَّعْمَةُ كُلُّهَا مِنْهُ وَالْفَضْلُ كُلُّهُ لَهُ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْهِ وَهَذَا مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ فَلَا
يَسْتَقَرُّ قَدَمُهُ فِي مَقَامِ التَّوْحِيدِ إِلَّا بِعِلْمِ ذَلِكَ وَشُهوْدِهِ فَإِذَا عَلِمَهُ وَرَسَخَ فِيهِ صَارَ لَهُ
مَشْهَدًا وَإِذَا صَارَ لِقَلْبِهِ مَشْهَدًا أَثْمَرَ لَهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْأُنْسِ بِاللَّهِ وَالشُّوقِ إِلَىٰ لِقَائِهِ
وَالنَّعْمِ بِذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ مَا لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْلَىٰ نَعِيمِ الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ

وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاتِهِ إِذَا كَانَ قَلْبُهُ عَنْ هَذَا مُصَدُّدًا وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ
عَنْهُ مُسَدُّدًا بَلْ هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣]

المشهد السادس:

مَشْهَدُ التَّقْصِيرِ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَوْ اجْتَهَدَ فِي الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ غَايَةَ الْاجْتِهَادِ وَبِذَلِكَ
وَسَعَهُ فَهُوَ مَقْصُرٌ وَحَقُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ مِنَ
الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخِدْمَةِ فَوْقَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ وَأَنَّ عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ سُبْحَانَهُ يَقْتَضِي
مِنَ الْعِبَادَةِ مَا يَلِيْقُ بِهَا

وَإِذَا كَانَ خَدَمَ الْمُلُوكِ وَعَبِيدَهُمْ يَعَامِلُونَهُمْ فِي خِدْمَتِهِمْ بِالْإِجْلَالِ لَهُمْ
وَالتَّعْظِيمِ وَالاحْتِرَامِ وَالتَّوْقِيرِ وَالْحَيَاءِ وَالْمَهَابَةِ وَالخَشْيَةَ وَالنَّصِيحَةَ بِحَيْثُ يَفْرغُونَ
قُلُوبَهُمْ وَجَوَارِحَهُمْ لَهُمْ فَمَا لِكِ الْمُلُوكِ وَرَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَوْلَىٰ أَنْ
يُعَامَلَ بِذَلِكَ بَلْ بِأَضْعَافِ ذَلِكَ

وَإِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ يَوْفِ رَبَّهُ فِي عِبَادَتِهِ حَقَّهُ وَلَا قَرِيبًا مِنْ حَقِّهِ
عَلِمَ تَقْصِيرَهُ وَلَمْ يَسَعُهُ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاعْتِذَارِ مِنْ تَقْصِيرِهِ وَتَفْرِيطِهِ
وَعَدَمِ الْقِيَامِ بِمَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ حَقِّهِ وَأَنَّهُ إِلَىٰ أَنْ يَعْفَرَ لَهُ الْعِبَادَةُ وَيَعْفُو عَنْهُ فِيهَا

أُحْرَجَ مِنْهُ إِلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ عَلَيْهَا ثَوَابًا وَهُوَ لَوْ وَفَاهَا حَقَّهَا كَمَا يَنْبَغِي لَكَانَتْ مُسْتَحَقَّةً عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى الْعُبُودِيَّةِ فَإِنْ عَمِلَ الْعَبْدُ وَخَدَمْتَهُ لَسَيِّدِهِ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ بِحُكْمِ كَوْنِهِ عَبْدَهُ وَمَمْلُوكَهُ فَلَوْ طَلَبَ مِنْهُ الْأُجْرَةَ عَلَى عَمَلِهِ وَخَدَمْتَهُ لَعَدَهُ النَّاسُ أَحْمَقَ وَأَخْرَقَ هَذَا وَلَيْسَ هُوَ عَبْدَهُ وَلَا مَمْلُوكَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَمَمْلُوكُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ

فَعَمَلُهُ وَخَدَمْتُهُ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ بِحُكْمِ كَوْنِهِ عَبْدَهُ فَإِذَا أَثَابَهُ عَلَيْهِ كَانَ ذَلِكَ مُجَرَّدَ فَضْلٍ وَمَنَّةٍ وَإِحْسَانٍ إِلَيْهِ لَا يَسْتَحَقُّهُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ

وَمَنْ هَهُنَا يَفْهَمُ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» (١)

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُخْرَجُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ دَوَاوِينَ دِيَّانٍ فِيهِ حَسَنَاتُهُ وَدِيَّانٍ فِيهِ سَيِّئَاتُهُ وَدِيَّانٍ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا فَيَقُولُ الرَّبُّ تَعَالَى لِنِعْمِهِ خِذِي حَقَّكَ مِنْ حَسَنَاتِ عَبْدِي فَيَقُومُ أَصْغَرُهَا فَتَسْتَنْفِذُ حَسَنَاتِهِ ثُمَّ تَقُولُ وَعِزَّتِكَ مَا اسْتَوْفَيْتِ حَقِّي بَعْدَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحِمَ عَبْدَهُ وَهَبَهُ نِعْمَةً عَلَيْهِ وَغَفَرَ لَهُ سَيِّئَاتِهِ وَضَاعَفَ لَهُ حَسَنَاتِهِ» (٢)

وَهَذَا ثَابِتٌ عَنِ أَنَسٍ وَهُوَ أَدْلُ شَيْءٍ عَلَى كَمَالِ عِلْمِ الصَّحَابَةِ بِرَبِّهِمْ وَحَقْوَقِهِ عَلَيْهِمْ كَمَا أَنَّهُمْ أَعْلَمُ الْأُمَّةَ بِنَبِيِّهِمْ وَسُنَّتِهِ وَدِينِهِ فَإِنْ فِي هَذَا الْأَثَرِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا أُولُو الْبَصَائِرِ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَحَقِّهِ

(١) أخرجه البخاري، (٦٤٦٣)، ومسلم، (٢٨١٦).

(٢) أخرجه البزار، (١٦٠/٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، (١٠/٦٧٤): "رواه البزار وفيه صالح المري وهو ضعيف".

وَمِنْ هُنَا يَفْهَمُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَحَدِيثَةٍ وَغَيْرِهِمَا «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ» (١).

وملاك هذا الشأن أربعة أمور:

نِيَّةٌ صَاحِحَةٌ، وَقُوَّةٌ عَالِيَةٌ يِقَارِنُهُمَا رَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ.

فَهَذِهِ الأَرْبَعَةُ هِيَ قَوَاعِدُ هَذَا الشَّانِ وَمَهْمَا دَخَلَ عَلَى العَبْدِ مِنَ النَّقْصِ فِي إِيمَانِهِ وَأَحْوَالِهِ وَظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ فَهُوَ مِنْ نُقْصَانِ هَذِهِ الأَرْبَعَةِ أَوْ نُقْصَانِ بَعْضِهَا فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّيْبُ هَذِهِ الأَرْبَعَةَ الأَشْيَاءَ وَلِيَجْعَلْهَا سِيرَهُ وَسُلُوكَهُ وَيَبْنِي عَلَيْهَا عِلْمَهُ وَأَعْمَالَهُ وَأَقْوَالَهُ وَأَحْوَالَهُ فَمَا نَتَجُ مِنْ نَتَجِ إِلاَّ مِنْهَا وَلَا تَخْلَفُ مِنْ تَخْلَفِ إِلاَّ مِنْ فَقْدِهَا.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَاللَّهُ المُسْتَعَانَ وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ وَإِلَيْهِ الرَّغْبَةُ وَهُوَ المُسْئُولُ بِأَنْ يُوَفِّقَنَا وَسَائِرِ إِخْوَانِنَا مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ لِتَحْقِيقِهَا عِلْمًا وَعَمَلًا إِنَّهُ وَلِي ذَلِكَ وَالْمَانُ بِهِ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الوَكِيلُ (٢).

قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْمُرْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾

﴿[السجدة ١٧]﴾

(١) المسند، (٢١٥٨٩)، وسنن أبي داود، (٤٧٠١)، وسنن ابن ماجه، (٧٧)، وصححه ابن حبان (٧٢٧).

(٢) رسالة ابن القيم إلى احد إخوانه (٤٦-٣٤).

قال السعدي: وأما جزاؤهم، فقال: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: "أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"، رواه الشيخان.

فكما صلوا في الليل، ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٥٥).

المبحث الثاني

صلاة النبي ﷺ .

قَالَتْ عَائِشَةُ: « مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةِ رَكْعَةٍ، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حَسَنَتَيْنِ وَطَوْلَهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حَسَنَتَيْنِ وَطَوْلَهِنَّ، ثُمَّ يُوتِرُ بِثَلَاثٍ » (١).

قَالَتْ: « وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ السُّورَةَ فَيُرْتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا، (٢) قَالَتْ: وَلَقَدْ كَانَ يَقُومُ حَتَّى أُرْتِي لَهُ مِنْ شِدَّةِ قِيَامِهِ » (٣).

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ » (٤).

(١) أخرجه البخاري، (١١٤٧)، ومسلم، (٧٣٨).

(٢) أخرجه مسلم، (٧٣٣).

(٣) البداية والنهاية، (٦ / ٦٥).

(٤) أخرجه مسلم، (٧٧٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ: « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ إِنَّ نُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١٧٨﴾ »

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حَتَّى تَفْطَرَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » (١).

عَنْ أَنَسٍ: « وَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَثَرَ الْوَجَعِ عَلَيْكَ بَيْنَ قَالٍ: " إِنِّي عَلَى مَا تَرُونَ قَدْ قَرَأْتُ الْبَارِحَةَ السَّبْعَ الطَّوَالَ » (٢).

خشوعه - ﷺ:

قال ابن القيم: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ طَاطَأَ رَأْسَهُ، ذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَانَ فِي التَّشَهُدِ لَا يُجَاوِزُ بَصْرَهُ إِشَارَتَهُ. وَكَانَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى قُرَّةَ عَيْنِهِ وَنَعِيمَهُ وَسُرُورَهُ وَرُوحَهُ فِي الصَّلَاةِ.

وَكَانَ يَقُولُ: « يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ » وَمَعَ هَذَا لَمْ يَكُنْ يَشْغَلُهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ عَنْ مُرَاعَاةِ أَحْوَالِ الْمَأْمُومِينَ وَغَيْرِهِمْ مَعَ كَمَالِ إِقْبَالِهِ وَقُرْبِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَحُضُورِ قَلْبِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَاجْتِمَاعِهِ عَلَيْهِ (٣).

«وَكَانَ يَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَهُوَ يُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَيَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَيُخَفِّفُهَا مَخَافَةَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»، وَأَرْسَلَ مَرَّةً فَارِسًا طَلِيعَةً لَهُ، فَقَامَ يُصَلِّي وَجَعَلَ يَلْتَفِتُ

(١) أخرجه البخاري، (١١٣٠)، ومسلم، (٢٨١٩).

(٢) قال في مجمع الزوائد، (٢/٢٧٤): رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، (١/٢٥٦).

إِلَى الشَّعْبِ الَّذِي يَجِيءُ مِنْهُ الفَارِسُ (١)، وَلَمْ يَشْغَلْهُ مَا هُوَ فِيهِ عَنِ مَرَاعَةِ حَالِ فَارِسِهِ.

وَكَذَلِكَ كَانَ يُصَلِّي الفَرَضَ وَهُوَ حَامِلٌ أَمَامَةَ بِنْتِ أَبِي العَاصِ بْنِ الرِّبِيعِ ابْنَةَ بِنْتِ زَيْنَبِ عَلَى عَاتِقِهِ، إِذَا قَامَ حَمَلَهَا، وَإِذَا رَكَعَ وَسَجَدَ وَضَعَهَا (٢).

وَكَانَ يُصَلِّي فِيَجِيءُ الحَسَنَ أَوِ الحَسِينَ فَيَرَكِبُ ظَهْرَهُ فَيَطِيلُ السَّجْدَةَ كَرَاهِيَةً أَنْ يُلْقِيَهُ عَنِ ظَهْرِهِ (٣).

وَكَانَ يُصَلِّي فَتَجِيءُ عَائِشَةُ مِنْ حَاجَتِهَا وَالبَابُ مُغْلَقٌ، فَيَمْسِيهِ فَيَفْتَحُ لَهَا البَابَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الصَّلَاةِ (٤).

وَكَانَ يَرُدُّ السَّلَامَ بِالإِشَارَةِ عَلَى مَنْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ.

وَقَالَ جَابِرٌ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَةٍ ثُمَّ أَدْرَكَتُهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَسَلَّمْتُ

(١) رواه أبو داود، (٩١٦)، والبيهقي في السنن الكبرى، (٢/٢٤٨)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري، (٥١٦)، ومسلم، (٥٤٣).

(٣) روى النسائي عن عبد الله بن شداد، عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنا أو حسيناً، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراني صلواته سجدة أطالها، قال أبي: فرفعت رأسي وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ، وهو ساجد فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلواتك سجدة أطالها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك، قال: «كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته» صححه الحاكم (٣/١٨١).

(٤) أبو داود، (٩٢٢)، والترمذي، (٦٠١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي،

(١/٣٧)،، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود، برقم (٨٥٥).

عَلَيْهِ فَأَشَارَ إِلَيَّ». ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ" (١).

وَقَالَ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُشِيرُ فِي الصَّلَاةِ» (٢).

وَقَالَ صَهيب: «مَرَرْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ إِشَارَةً». قَالَ الرَّائِي: لَا أَعْلَمُهُ قَالَ: إِلَّا إِشَارَةً بِأُصْبِعِهِ (٣).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى قُبَاءٍ يُصَلِّي فِيهِ، قَالَ: فَجَاءَتْهُ الْأَنْصَارُ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَقُلْتُ لِبِلَالٍ: كَيْفَ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ حِينَ كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي؟ قَالَ: يَقُولُ هَكَذَا، وَبَسَطَ جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ كَفَّهُ، وَجَعَلَ بَطْنَهُ أَسْفَلَ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ إِلَى فَوْقٍ» (٤).

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَمَّا قَدِمْتُ مِنَ الْحَبَشَةِ آتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ» (٥).

وَكَانَ ﷺ يُصَلِّي وَعَائِشَةُ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَهَا بِيَدِهِ فَتَقَبَّضَتْ رِجْلَيْهَا، وَإِذَا قَامَ بَسَطَتْهُمَا (٦).

(١) أخرجه مسلم، (٥٤٠).

(٢) أبو داود، (٩٤٣)، والسنن الكبرى للبيهقي، (٢/٢٦٢). وقال الشيخ الألباني في صحيح أبي داود، (٤/١٠١): "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

(٣) أبو داود، (٩٢٥)، والترمذي، (٣٦٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصحح الشيخ الألباني في صحيح لفظ الترمذي في صحيح ابن خزيمة، (٢/٤٩).

(٤) أبو داود، (٩٢٧)، والترمذي، (٣٦٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي، (٣/٥)، صحيح أبي داود، برقم (٤١٢).

(٥) السنن الكبرى للبيهقي، (٢/٢٦٠).

(٦) أخرجه البخاري، (٣٨٢)، ومسلم، (٥٤٣).

وَكَانَ يُصَلِّي، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ لِيَقْطَعَ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ، فَأَخَذَهُ فَخَنَقَهُ حَتَّى سَأَلَ لُعَابُهُ عَلَى يَدِهِ (١).

وَكَانَ يُصَلِّي عَلَى الْمَنْبَرِ وَيَرْكَعُ عَلَيْهِ، فَإِذَا جَاءَتِ السَّجْدَةُ نَزَلَ الْقَهْقَرَى، فَسَجَدَ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ صَعِدَ عَلَيْهِ (٢).

وَكَانَ يُصَلِّي إِلَى جِدَارٍ، فَجَاءَتْ بِهِمَّةٌ تَمُرُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، فَمَا زَالَ يُدَارِئُهَا (٣) حَتَّى لَصِقَتْ بَطْنُهُ بِالْجِدَارِ، وَمَرَّتْ مِنْ وَرَائِهِ (٤).

(«وَكَانَ يُصَلِّي، فَجَاءَتْهُ جَارِيَتَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَدْ اقْتَتَلَتَا، فَأَخَذَهُمَا بِيَدَيْهِ، فَفَزِعَ إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ». وَلَفِظُ أَحْمَدَ فِيهِ: «فَأَخَذَتَا بِرُكْبَتَيْ النَّبِيِّ ﷺ، فَفَزِعَ بَيْنَهُمَا، أَوْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَنْصَرِفْ» (٥).

«وَكَانَ يُصَلِّي فَمَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ غُلامٌ، فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا فَرَجَعَ، وَمَرَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ جَارِيَةٌ، فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا فَمَضَتْ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: هُنَّ أَغْلَبُ» (ذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَهُوَ فِي " السُّنَنِ "

«وَكَانَ يَنْفُخُ فِي صَلَاتِهِ»، ذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَهُوَ فِي " السُّنَنِ (٦).

(١) أخرجه البخاري، (١٢١٠)، ومسلم، (٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري، (٩١٧)، ومسلم، (٥٤٤).

(٣) يُدَارِئُهَا: يُفَاعِلُهَا مِنَ الْمُدَارَاةِ وَهِيَ الْمُدَافَعَةُ.

(٤) أبو داود، (٧٠٨)، وإسناده حسن.

(٥) رواه أحمد، (٣١٦٧). قال محققه: إسناده حسن.

(٦) رواه النسائي، (١٣٧/٣) وأحمد، (١٨١٤٢)، وحسنه الأرناؤوط في تحقيق زاد المعاد،

وَكَانَ يَبْكِي فِي صَلَاتِهِ وَكَانَ يَتَنَحَّحُ فِي صَلَاتِهِ. قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ لِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَاعَةٌ آتِيَهُ فِيهَا، فَإِذَا آتَيْتُهُ اسْتَأْذَنْتُ، فَإِنْ
 وَجَدْتُهُ يُصَلِّي فَتَنَحَّحَ دَخَلْتُ، وَإِنْ وَجَدْتُهُ فَارِغًا أَذِنَ لِي»، ذَكَرَهُ النَّسَائِيُّ
 وَأَحْمَدُ، وَلَفَظُ أَحْمَدُ: «كَانَ لِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَدْخَلَانِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،
 وَكُنْتُ إِذَا دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي تَنَحَّحَ» (١). رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَعَمِلَ بِهِ فَكَانَ
 يَتَنَحَّحُ فِي صَلَاتِهِ، وَلَا يَرَى النَّحْنَحَةَ مُبْطَلَةً لِلصَّلَاةِ.

«وَكَانَ يُصَلِّي حَافِيًا تَارَةً، وَمُتَّعِلًا أُخْرَى»، كَذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو
 عَنْهُ: وَأَمَرَ بِالصَّلَاةِ بِالنَّعْلِ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ (٢).

وَكَانَ يُصَلِّي فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ تَارَةً، وَفِي الثَّوْبَيْنِ تَارَةً، وَهُوَ أَكْثَرُ (٣).

أحوال بكى فيها النبي ﷺ

١ - روى ابن حبان في صحيحه بسنده قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء
 رأيته من رسول الله ﷺ، قال: فسكتت ثم قالت: لَمَا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ:
 «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا
 سَرَّكَ، قَالَتْ: فَفَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرَهُ،
 قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى
 بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَدِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ

(١) رواه النسائي، (١٢/٣)، وأحمد (٣٦١٥)، وصححه ابن السكن كما في التلخيص الحبير
 (٦٧٦/١).

(٢) أبو داود، (٦٥٣)، وقال الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود، (١٩٣/١): حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم، (٥١٥).

تُبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾» الآية كُلُّهَا [آل عمران: ١٩٠] (١).

٢- وروى أبو داود بسنده عن مُطَرِّفٍ، عن أَبِيهِ، قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَرِيزٌ كَأَرِيزِ الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ ﷺ» (٢).

٣- وروى البخاري بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ، - قَالَ يَحْيَى: بَعْضُ الْحَدِيثِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ - قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ» قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ﴿٤١﴾ [النساء: ٤١] قَالَ: «أَمْسِكْ» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ (٣).

٤- وروى ابن حبان في صحيحه بسنده عن عَلِيٍّ، قَالَ: «مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمُقَدَّادِ، وَلَقَدْ رَأَيْتَنَا وَمَا فِينَا قَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ» (٤).

٥- وروى ابن حزيمة في صحيحه عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ثُمَّ نَفَخَ فِي آخِرِ

(١) صحيح ابن حبان، (٦٢٠) انظر: الصحيحة للشيخ الألباني (٦٨)

(٢) أبو داود، (٩٠٤)، والنسائي، (١٣/٣)، قال الحافظ ابن حجر: إسناده قوي وصححه ابن حبان (٦٦٥)، والحاكم، (٣٩٦/١) - فتح الباري، (٢/٢٠٦).

(٣) أخرجه البخاري، (٤٥٨٣)، ومسلم، (٨٠٠).

(٤) صحيح ابن حبان، (٢٢٥٧).

سُجُودِهِ، وَقَالَ: " رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَلَّا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١) .

٦- وعند مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَلَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وَقَوْلَ عِيسَى: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ لِحَبْرِيئِيلَ: «اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، وَاسْأَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَاتَاهُ حَبْرِيئِيلُ، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِحَبْرِيئِيلَ: «اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ» (٢) .



(١) صحيح ابن خزيمة، (١٣٩٢)، وصححه الألباني في مختصر شمائل الترمذي، برقم (٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم، (٨٨٩٤).

المبحث الثالث

صلاة الصحابة - ﷺ

* وصف علي بن أبي طالب ﷺ لصلاة الصحابة ﷺ.

عَنْ أَبِي أَرَاكَةَ، قَالَ: " صَلَّى عَلَيَّ الْعِدَاةُ ثُمَّ لَبِثَ فِي مَجْلِسِهِ حَتَّى ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ فَيَدْرُمُحُ، كَأَنَّ عَلَيْهِ كَابَةً، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ أَثْرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشْبِهُهُمْ، وَاللَّهِ إِنْ كَانُوا لَيُصْبِحُونَ شُعْثًا غُبْرًا صُفْرًا، بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ مِثْلَ رُكْبِ الْمِعْزَى، قَدْ بَاتُوا يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ أَقْدَامِهِمْ وَجِبَاهِهِمْ، إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ مَادُوا كَمَا تَمِيدُ الشَّجَرَةُ فِي يَوْمِ رِيحٍ، فَانْهَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبَلَّ وَاللَّهِ ثِيَابَهُمْ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّ الْقَوْمَ بَاتُوا غَافِلِينَ (١).

* وفي الجامع لعلوم الإمام أحمد:

جاء عن أبي الدرداء أنه قال في حديث -هذا بعضه-: وتعفير وجهي لربي عَزَّ وَجَلَّ في التراب فإنه مبلغ العبادة من الله عَزَّ وَجَلَّ فلا يتق أحدكم التراب، ولا يكرهن السجود عليه؛ فلا بد من المبالغة، فإنه إنما يطلب بذلك فكاك رقبتة وخلصها من النار التي لا تقوم لها الجبال الصم الصلاب الشوامخ البواذخ التي جعلت للأرض أوتادًا، ولا تقوم له السموات السبع الطباق الشداد التي

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (١/٧٦).

جعلت سقفاً محفوظاً، ولا تقوم لها الأرض التي جعلت للخلق داراً، ولا تقوم لها البحار السبعة التي لا يدرك قعرها ولا يعرف قدرها إلا الذي خلقها، فكيف بأبداننا الضعيفة، وعظامنا الدقيقة وجلودنا الرقيقة؟! نستجير بالله من النار، نستجير بالله من النار، نستجير بالله من النار. فإن استطاع أحدكم -رحمكم الله- إذا قام في صلاته كأنه ينظر إلى الله عز وجل؛ فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه (١).

* تفسير مجاهد لقوله تعالى: ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ ﴾ ﴿٣٣٨﴾

قال محمد بن نصر المروزي في كتابه الممتع "تعظيم قدر الصلاة":

حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَنَا جَرِيرٌ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، " ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ ﴾ ﴿٣٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨] قَالَ: فَمِنَ الْقُنُوتِ الرُّكُودُ وَالْخُشُوعُ، وَعَظُّ الْبَصْرِ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ مِنْ رَهْبَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَانَ إِذَا قَامَ أَحَدُهُمْ يُصَلِّي يَهَابُ الرَّحْمَنَ أَنْ يَشُدَّ بَصْرَهُ إِلَى شَيْءٍ، أَوْ يَلْتَفِتَ، أَوْ يُقَلِّبَ الْحَصَى، أَوْ يَعْبَثَ بِشَيْءٍ، أَوْ يُحَدِّثَ نَفْسَهُ مِنْ شَأْنِ الدُّنْيَا إِلَّا نَاسِيًا، مَا دَامَ فِي صَلَاتِهِ (٢).

* وروى "أبو نعيم" بإسناده عن ذي النون أنه قال:

" لَوْ رَأَيْتَ أَحَدَهُمْ وَقَدَ قَامَ إِلَى صَلَاتِهِ وَقِرَائَتِهِ فَلَمَّا وَقَفَ فِي مِحْرَابِهِ وَاسْتَفْتَحَ كَلَامَ سَيِّدِهِ خَطَرَ عَلَى قَلْبِهِ أَنَّ ذَلِكَ الْمَقَامَ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَاخْلَعَ قَلْبُهُ وَذَهَلَ عَقْلُهُ (٣).

(١) الجامع لعلوم الإمام أحمد، (٥/٥٠٨).

(٢) تعظيم قدر الصلاة، (١٣٨).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (٩/٣٣٩).

*: صلاة أبي بكر رضي الله عنه

١- روي الشيخان عن عائشة، قالت: لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَاءَ بِلالٌ يُؤذِنُهُ بِالصَّلَاةِ. فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعِ النَّاسَ فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ... الحديث (١).

أسيف: شديد الحزن، والمراد: أنه رقيق القلب، إذا قرأ غلبه البكاء، فلا يقدر على القراءة (٢).

٢- وعند البخاري من طريق ابن شهاب، قال: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، قَالَتْ: " لَمْ أَعْقِلْ أَبَوِي إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، طَرَفِي النَّهَارِ: بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ بَدَأَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَأَبْتَنِي مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ، فَيَقِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَاءً، لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (٣).

*: صلاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

١- روى ابن أبي شيبة عن إسماعيل بن محمد بن سعد قال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ شَدَادٍ قَالَ: " سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ وَإِنِّي لَفِي الصَّفِّ خَلْفَهُ فِي صَلَاةٍ وَهُوَ يَقْرَأُ

(١) أخرجه البخاري، (٦٦٤)، ومسلم، (٤١٨).

(٢) فتح الباري، (١٥٢/٢).

(٣) أخرجه البخاري، (٤٧٦).

سُورَةَ يُوسُفَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (١).
[يوسف: ٨٦]

قال ابن حجر: النشيج بفتح النون وكسر المعجمة وآخره جيم قال بن فارس نشج الباكي ينشج نشيجا إذا غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب وقال الهروي: النشيج صوت معه ترجيع كما يردد الصبي بكاءه في صدره وفي المحكم هو أشد البكاء (٢).

٢- روى ابن أبي شيبة بسنده عن الحسن، قال: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ «يَمُرُّ بِالْآيَةِ فِي وَرْدِهِ فَتَخْفُهُ الْعَبْرَةُ فَيَبْكِي حَتَّى يَسْقُطَ ، ثُمَّ يَلْزَمُ بَيْتَهُ حَتَّى يُعَادَ ، يَحْسِبُونَهُ مَرِيضًا» (٣).

٣- وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدِ الْعَبْدِيِّ قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ يَعْسُ الْمَدِينَةَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَمَرَّ بِدَارِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَوَافَقَهُ قَائِمًا يُصَلِّي، فَوَقَفَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ فَقَرَأَ: ﴿وَالطُّورِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ قَالَ: قَسَمٌ - وَرَبُّ الْكَعْبَةِ - حَقٌّ. فَنَزَلَ عَنْ حِمَارِهِ وَاسْتَدَّ إِلَى حَائِطٍ، فَمَكَثَ مَلِيًّا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَمَكَثَ شَهْرًا يَعُودُهُ النَّاسُ لَا يَدْرُونَ مَا مَرَّضُهُ، ﷺ (٤).

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي "فَضَائِلِ الْقُرْآنِ": حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ، عَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ عُمَرَ قَرَأَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٦٥)، وعبد الرزاق في المصنف، (٢٧١٦).

(٢) فتح الباري، (٢/٢٠٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٤٥٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٣٠).

فَرَبَا لَهَا رَبْوَةً عِيدَ مِنْهَا عَشْرِينَ يَوْمًا (١).

توضيح: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: أَمَّا مَا يُرَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ: إِنِّي لَا أَجْهَرُ جَيْشِي، وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ. فَذَلِكَ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ مَأْمُورًا بِالْجِهَادِ، وَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ أَمِيرُ الْجِهَادِ. فَصَارَ بِذَلِكَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ بِمَنْزِلَةِ الْمُصَلِّي الَّذِي يُصَلِّي صَلَاةَ الْخَوْفِ حَالَ مُعَايَنَةِ الْعَدُوِّ، إِمَّا حَالَ الْقِتَالِ، وَإِمَّا غَيْرَ حَالَ الْقِتَالِ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّلَاةِ، وَمَأْمُورٌ بِالْجِهَادِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَ الْوَاجِبِينَ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ طَمَئِينَةَ الْقَلْبِ حَالَ الْجِهَادِ لَا تَكُونُ كَطَمَئِينَتِهِ حَالَ الْأَمْنِ، فَإِذَا قَدَّرَ أَنَّهُ نَقَصَ مِنَ الصَّلَاةِ شَيْءٌ لِأَجْلِ الْجِهَادِ لَمْ يَقْدَحْ هَذَا فِي كَمَالِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ وَطَاعَتِهِ، وَلِهَذَا تُخَفَّفُ صَلَاةُ الْخَوْفِ عَنْ صَلَاةِ الْأَمْنِ. وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صَلَاةَ الْخَوْفِ قَالَ: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣] فَالْإِقَامَةُ الْمَأْمُورُ بِهَا حَالَ الطَّمَئِينَةِ لَا يُؤْمَرُ بِهَا حَالَ الْخَوْفِ.

وَمَعَ هَذَا: فَالِنَّاسُ مُتَّفَاوِتُونَ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا قَوِيَ إِيْمَانُ الْعَبْدِ كَانَ حَاضِرَ الْقَلْبِ فِي الصَّلَاةِ، مَعَ تَدْبِيرِهِ لِلْأُمُورِ بِهَا، وَعُمَرُ قَدْ ضَرَبَ اللهُ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، وَهُوَ الْمُحَدِّثُ الْمُلْهَمُ، فَلَا يُنْكَرُ لِمِثْلِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ تَدْبِيرِهِ جَيْشَهُ فِي

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٦٤).

الصَّلَاةِ مِنَ الْحُضُورِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ، لَكِنْ لَا رَيْبَ أَنَّ حُضُورَهُ مَعَ عَدَمِ ذَلِكَ يَكُونُ أَقْوَى، وَلَا رَيْبَ أَنَّ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَالَ أَمْنِهِ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنْ صَلَاتِهِ حَالَ الْخَوْفِ فِي الْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ عَفَا حَالَ الْخَوْفِ عَنْ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ الظَّاهِرَةِ، فَكَيْفَ بِالْبَاطِنَةِ (١).

* صلاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه إِذَا حَضَرَ وَقْتُ الصَّلَاةِ يَتَزَلُّزَلُ وَيَتَلَوَّنُ وَجْهَهُ فَقِيلَ لَهُ مَالِكُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ جَاءَ وَقْتُ أَمَانَةِ عَرْضِهَا اللَّهُ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبِينُ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَسْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلْتَهَا (٢).

* صلاة سعد بن معاذ رضي الله عنه:

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رحمته الله: قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه: فِي ثَلَاثِ خِصَالٍ، لَوْ كُنْتُ فِي سَائِرِ أَحْوَالِي أَكُونُ فِيهِنَّ: كُنْتُ أَنَا أَنَا؛ إِذَا كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ لَا أَحَدْتُ نَفْسِي بِغَيْرِ مَا أَنَا فِيهِ، وَإِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَا يَقَعُ فِي قَلْبِي رَيْبٌ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَإِذَا كُنْتُ فِي جِنَازَةٍ لَمْ أَحَدْتُ نَفْسِي بِغَيْرِ مَا تَقُولُ، وَيُقَالُ لَهَا (٣).

* صلاة ابن الزبير رضي الله عنه:

قَالَ أَبُو نَعِيمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ الطَّلْحِيُّ، ثنا أَبُو حُصَيْنٍ الْوَادِعِيُّ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ

(١) مجموع الفتاوى، (٢/٢٢٤).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي، (١/١٥١).

(٣) مجموع الفتاوى، (٢٢/٦٠٥).

يُونُسَ، ثَنَا زَائِدَةٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: " كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ عُوذٌ، وَكَانَ يَقُولُ: ذَلِكَ مِنَ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ (١). "

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمًا لِابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: صِفْ لَنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ جِلْدًا قَطُّ رُكِبَ عَلَى لَحْمٍ وَلَا لَحْمًا عَلَى عَصَبٍ وَلَا عَصَبًا عَلَى عَظْمٍ مِثْلَهُ، وَلَا رَأَيْتُ نَفْسًا رُكِبَتْ بَيْنَ جَنْبَيْنِ مِثْلَ نَفْسِهِ، وَلَقَدْ مَرَّتْ آجِرَةٌ مِنْ رَمِي الْمَنْجَنِيْقِ بَيْنَ لَحِيَّتِهِ وَصَدْرِهِ فَوَاللَّهِ مَا خَشِعَ وَلَا قَطَعَ لَهَا قِرَاءَتَهُ، وَلَا رَكَعَ دُونَ مَا كَانَ يَرُكَعُ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ خَرَجَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا.

ولقد كان يركع فيكاد الرحم أن يقع على ظهره ويسجد فكأنه ثوب مطروح (٢).

قال ابن كثير: وَرَوِيَ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ كَانَ يَوْمًا يَصَلِي فَسَقَطَتْ حِيَةٌ مِنَ السَّقَطِ فَطَوَّقَتْ عَلَى بَطْنِ ابْنِهِ هَاشِمٍ فَصَرَخَ النَّسْوَةُ وَأَنْزَعَجَ أَهْلُ الْمَنْزِلِ وَاجْتَمَعُوا عَلَى قَتْلِ تِلْكَ الْحَيَّةِ فَقَتَلُوهَا، وَسَلِمَ الْوَالِدُ، فَعَلُوا هَذَا كُلَّهُ وَابْنُ الزُّبَيْرِ فِي الصَّلَاةِ لَمْ يَلْتَفِتْ وَلَا دري بما جرى حَتَّى سَلَّمَ (٣).



(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (١/٣٣٥).

(٢) البداية والنهاية، (٨/٣٦٨).

(٣) البداية والنهاية، (٨/٣٦٩).

المبحث الرابع صلاة التابعين وأتباعهم.

* صلاة عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

روى ابنُ سَعْدٍ: عَنْ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، قَالَ: كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ إِذَا مَشَى لَا تُجَاوِزُ يَدُهُ فَخِذَيْهِ، وَلَا يَخْطُرُ بِهَا، وَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، أَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ.

فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: تَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ أَقُومُ وَمَنْ أُنَاجِي (١)؟!؟

وَعَنْهُ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَوَضَّأَ، اصْفَرَ (٢).

وكان سعيد التنوخي إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته (٣).

عَنْ أَبِي الْحُسَيْنِ الْمُجَاشِعِيِّ، قَالَ: قِيلَ لِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ: أَتَحَدِّثُ نَفْسَكَ فِي الصَّلَاةِ؟

قَالَ: أَحَدْتُهَا بِالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، وَمُنْصَرَفِي (٤). أَيُّ إِلَى أَيِّ الدارين.

(١) ابن سعد، (٢١٦/٥)، وانظر الحلية (١٣٣/٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٩٢/٤).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي، (١٥٠/١).

(٤) سير أعلام النبلاء، (١٧/٤).

كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلَانِيُّ قَدْ عَلَّقَ فِي مَسْجِدِهِ سَوْطًا يُعَدِّبُ بِهِ نَفْسَهُ كُلَّمَا فَتَرَتْ وَيَقُولُ: أَتَظُنُّ الصَّحَابَةَ أَنْ يَسْتَأْثِرُوا بِمُحَمَّدٍ دُونَنا؟ وَاللهِ لَا زَاحِمَنَّهُمْ عَلَيْهِ زِحَامًا حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ خَلَفُوا رِجَالًا (١).

* صَلَاةُ مَنْصُورِ بْنِ زَادَانَ رَحِمَهُ اللهُ.

قال ابن أبي الدنيا: حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ الحَضْرَمِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ وَاِسِطَ يُكْنَى أَبَا سَعِيدٍ، وَكَانَ جَارًا لِمَنْصُورِ بْنِ زَادَانَ قَالَ: رَأَيْتُ مَنْصُورًا تَوَضَّأَ فَلَمَّا فَرَغَ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى ارْتَفَعَ صَوْتُهُ فَقُلْتُ: رَحِمَكَ اللهُ مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْظَمُ مِنْ شَأْنِي؟ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ» (٢).

* صَلَاةُ عَطَاءِ السَّلِيمِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

قال أبو نعيم: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ مَالِكٍ، ثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَحْمَدَ، أَخْبَرْتُ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ مُورِعِ بْنِ تَوْبَةَ العَنْبَرِيِّ، قَالَ: كَانَ عَطَاءُ السَّلِيمِيِّ إِذَا فَرَغَ مِنْ وَضُوئِهِ انْتَفَضَ وَارْتَعَدَ وَبَكَى بَكَاءً شَدِيدًا، فَيَقَالُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقْدَمَ عَلَى أَمْرِ عَظِيمٍ أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (٣).

* صَلَاةُ ابْنِ نَصْرِ المَرْوَزِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

قال أبو بكر الصَّبْغِيِّ: أَدْرَكْتُ إِمَامَيْنِ لَمْ أُرْزَقِ السَّمَاعَ مِنْهُمَا: أَبُو حَاتِمٍ

(١) التبصرة لابن الجوزي، (١/٥٠٠).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا، (١٤٩).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (٢/١٩٢).

الرَّازِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ الْمَرْوَزِيُّ، فَأَمَّا ابْنُ نَصْرِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ صَلَاةٍ مِنْهُ، لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ زُبُورًا قَعَدَ عَلَى جَبْهَتِهِ، فَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَتَحَرَّكَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ الْأَخْرَمِ: مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ صَلَاةٍ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ نَصْرِ، كَانَ الذُّبَابُ يَقَعُ عَلَى أُذُنِهِ، فَيَسِيلُ الدَّمُ، وَلَا يَذُبُّهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَقَدْ كُنَّا نَتَعَجَّبُ مِنْ حُسْنِ صَلَاتِهِ وَخُشُوعِهِ وَهَيْئَتِهِ لِلصَّلَاةِ، كَانَ يَضَعُ ذَقْنَهُ عَلَى صَدْرِهِ، فَيَنْتَصِبُ كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ مَنْصُوبَةٌ (١).

وقال مرعي: وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تعالى إذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميل يمينه ويسرة (٢).

وقال القاضي عياض في ترجمة أبي إسحاق ابراهيم بن أحمد السبائي:

كان إذا دخل في الصلاة، لم يكن قلبه إلا فيها. فربما يدخل من يدخل من أصحابه، فلا يعلم بدخولهم، لشغله بالصلاة. وكان إذا أراد أن يتوضأ، يتلو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية. ثم يقول: نعم يا رب، ويكررها، ذلك. ثم يغسل أعضائه تحت خوف عظيم، ووله، حتى يفرغ من وضوئه (٣).

وقال القاضي عياض أيضا في ترجمة أبي إسحاق الجبنياني رَحِمَهُ اللهُ:

قال ابنه أبو الطاهر: إنه ما رآه مفطراً قط. قال، وقال لي أبي: إن إنساناً أقام

(١) سير أعلام النبلاء، (٣٧/١٤).

(٢) الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية لمرعي الكرمي: (ص: ٨٣).

(٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، (٥٨/٦).

في آية سنة، لم يتجاوزها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَفُّوهُمْ ۖ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٢٤). فقلت له: أنت هو؟ فسكت. فعلمت أنه هو. وكان إذا دخل في الصلاة، لو سقط البيت الذي هو فيه، ما التفت. إقبالاً على صلاته. واشتغلاً بمناجاة ربه. ولقد جمع أولاده يوماً، لزيارة أمهم، وجاءوا بلحم، فطبخته لهم في ركن البيت، وتعشوا، والشيخ في الركن الآخر يصلي، فبعد مدة قال لأمهم: ما لكم لم تعملوا عشاءً - لشدة إقباله على صلاته (١).

قَالَ عَيْلَانُ بْنُ جَرِيرٍ: كَانَ مُسْلِمٌ بِنُ يَسَارٍ إِذَا صَلَّى، كَانَتْهُ ثَوْبٌ مُلْقَى.
وَقَالَ ابْنُ شَوْذَبٍ: كَانَ مُسْلِمٌ بِنُ يَسَارٍ يَقُولُ لِأَهْلِهِ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ:
تَحَدَّثُوا، فَلَسْتُ أَسْمَعُ حَدِيثِكُمْ (٢).

عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، قَالَ: كَانَ كُرْزُ بْنُ وَبَرَةَ مِنْ أَعْبِدِ النَّاسِ، وَكَانَ قَدْ امْتَنَعَ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى لَمْ يُوجَدَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُوجَدُ عَلَى الْعُصْفُورِ، وَكَانَ يَطْوِي أَيَّامًا كَثِيرَةً، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَكَانَ مِنَ الْمُحِبِّينَ الْمُحِبِّينَ لِلَّهِ، قَدْ وَلِهَ مِنْ ذَلِكَ، فَرَبَّمَا كَلَّمَ فِي حِجْبٍ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِاللَّهِ، وَاشْتِيَاقِهِ إِلَيْهِ (٣).



(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، (٦/ ٢٣١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٦).

المبحث الخامس

التحذير من ترك الخشوع في الصلاة.

الخشوع هو سرُّ الصلاة الأعظم، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿ [المؤمنون: ١-٢].

فصلاةٌ بلا خشوع بدنٌ بلا روح، وبقدرِ كمال الخشوع يكون كمال الأجر، ومن غلب عليه الفكر في أمور الدنيا في صلاته فإنها تصح وتقع مجزأة بحيث لا يطالبُ بالإعادة، ولكنه قد لا يخلو من الإثم إذا استرسل مع هذه الخواطر ولم يدافعها فضلاً عما يفوته من الأجر الكبير

لذا فالواجبُ علينا جميعاً أن نجتهد في تحصيل الخشوع في الصلاة والأخذ بأسبابه والاجتهاد في مدافعة الخواطر وعدم الاسترسال معها لتقع صلاتنا على الوجه الأكمل

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقابله فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه وأحس بأثقال قد وضعت عنه فوجد نشاطاً وراحة وروحا حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها لأنها قرّة عينيه ونعيم روحه وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريح بها لا منها فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا كما قال إمامهم وقدوتهم ونبیهم ﷺ يا بلال

أرحنا بالصلاة ولم يقل أرحنا منها وقال ﷺ « جعلت قرّة عيني في الصلاة ».

فصلاة هذا الحاضر بقلبه الذي قرّة عينه في الصلاة هي التي تصعد ولها نور وبرهان حتى يستقبل بها الرحمن عز و جل فتقول حفظك الله تعالى كما حفظتني وأما صلاة المفرط المضيع لحقوقها وحدودها وخشوعها فإنها تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها وتقول ضيعك الله كما ضيعتني (١).

فالذي ينبغي معرفته هو:

أولاً: العلم بما ثبت في التحذير من ترك الخشوع:

١- فقد روى الإمام أحمد من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةُ الَّذِي يَسْرِقُ صَلَاتَهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَسْرِقُ صَلَاتَهُ، قَالَ: «لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا»

وأورده الحاكم وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، ووافقه الذهبي رحم الله الجميع (٢).

٢- وأخرج أيضا الإمام أحمد من حديث طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ الْحَنْفِيِّ قَالَ: قَالَ

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، (٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٦٤٢)، والحاكم (٣٥٢/١).

وأخرجه أحمد أيضا (١١٥٣٢) من حديث أبي سعيد بلفظ حديث أبي قتادة، وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٢٠/٢)، وقال: رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى، وفيه علي بن زيد، وهو مختلف في الاحتجاج به، وبقيه رجاله رجال الصحيح - وله شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن حبان (١٨٨٨)، والحاكم (٣٥٣/١)، وصححه.

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى صَلَاةِ عَبْدٍ لَا يُقِيمُ فِيهَا صَلْبَهُ بَيْنَ رُكُوعَيْهَا وَسُجُودَيْهَا » (١).

٣- وروى الإمام ابن خزيمة في صحيحه من حديث أبي صالح الأشعري، عن أبي عبد الله الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً لا يقيم رُكُوعَهُ يَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ مَاتَ هَذَا عَلَى حَالِهِ هَذِهِ مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِثْلُ الَّذِي لَا يُقِيمُ رُكُوعَهُ وَيَنْقُرُ فِي سُجُودِهِ، مِثْلُ الْجَائِعِ يَأْكُلُ التَّمْرَةَ وَالتَّمْرَتَانِ لَا يُغْنِيَانِ عَنْهُ شَيْئًا».

قَالَ أَبُو صَالِحٍ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ مَنْ حَدَّثَكَ بِهَذَا؟ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: أَمْرَاءُ الْأَجْنَادِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَشَرْحِبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (٢).

٤- وأخرجه الأصبهاني في "الترغيب" من طريق أبي الشيخ عن عبد الله

بن أحمد بن حنبل: حدثنا أبو الشعثاء حدثنا عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي سِتِينَ سَنَةً مَا تُقْبَلُ لَهُ

(١) أورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٢٠/٢)، وقال: رواه أحمد (١٦٢٨٣)، والطبراني في "الكبير"، ورجاله ثقات! وأورده الشيخ ناصر الدين الألباني في "صحيحته" (٢٥٣٦). وقال هذا إسناد جيد، رجاله ثقات.

وأخرجه الطبراني (٥٨٤) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو -أبي مسعود البدري رضي الله عنه- والبيهقي في سننه (١٢٦/٢) ولفظه « لَا يُجْزِي صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يُقِيمُ فِيهَا صَلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ » وقال البيهقي: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

(٢) ابن خزيمة في صحيحه (٦٦٥)، والطبراني في الكبير (٣٨٤٠)، وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٢١/٢)، وقال: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَأَبُو يَعْلَى وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

صَلَاةٌ، لَعَلَّهُ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَلَا يُتِمُّ السُّجُودَ، وَيُتِمُّ السُّجُودَ وَلَا يُتِمُّ الرُّكُوعَ» (١).

٥- العلم بأن الله ينصرف عن من التفت في صلاته لغير حاجة.

لما رواه أبو داود عن ابن شهاب، قال: سَمِعْتُ أَبَا الْأَحْوَصِ، يُحَدِّثُنَا فِي مَجْلِسِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُقْبِلًا عَلَى الْعَبْدِ، وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا التَفَتَ أَنْصَرَفَ عَنْهُ» (٢).

وروي الترمذي عن زَيْدِ بْنِ سَلَامٍ، أَنَّ أَبَا سَلَامٍ، حَدَّثَهُ أَنَّ الْحَارِثَ الْأَشْعَرِيَّ، حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ..... وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصَبُ وَجْهَهُ لِرُجَّةِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ...» الحديث (٣).

٦- العلم بالأمر الوارد بالسكون في الصلاة.

(١) أخرجه الأصبهاني في " الترغيب " (١٩٢٢) قال الألباني في الصحيحة (٦ / ٨١): هذا إسناد حسن، رجاله كلهم ثقات، على ضعف يسير في محمد بن عمرو، والمعتمد فيه أنه حسن الحديث.

(٢) رواه أبو داود (٩٠٩) - قال الزيلعي في نصب الراية (٢ / ٨٩): ورواه الحاكم في "المستدرک"، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، قال المنذري في "حواشيه": وأبو الأحوص هذا، لا يعرف اسمه، وهو مولى بني ليث، وقيل: مولى بني غفار، لم يرو عنه غير الزهري، قال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال الكرايسي: ليس بالمتين عندهم، قال النووي في "الخلاصة": هو فيه جهالة، لكن الحديث لم يضعفه أبو داود، فهو حسن عنده، انتهى.

(٣) رواه الترمذي (٢٨٦٣) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (٣ / ١٤٤).

فقد روى مسلم رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ حَيْلٍ شُمْسٍ؟ اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ» (١).

٧- العلم بالوعيد في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] قَالَ: لَا يُبَالِي عَنْهَا أَصَلَى أَمْ لَمْ يُصَلِّ (٢).

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي الْمَصَاحِفِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «سُنَنِهِ» وَالْخَطِيبُ فِي تَالِي التَّلْخِصِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَرَأَ: الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ لَاهُونَ (٣).

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ الْمُنْدَرِ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ أَبَا الْعَالِيَةَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥] مَا هُوَ فَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةَ: هُوَ الَّذِي لَا يَدْرِي عَنْ كَمْ أَنْصَرَفَ عَنْ شَفْعٍ أَوْ عَنْ وَتْرٍ (٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وَلَيْسَ السَّهْوُ عَنْهَا تَرْكُهَا، وَإِلَّا لَمْ يَكُونُوا مُصَلِّينَ، وَإِنَّمَا هُوَ السَّهْوُ عَنْ وَاجِبِهَا إِذَا عَنِ الْوَقْتِ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ، وَإِنَّمَا عَنِ الْحُضُورِ وَالْخُشُوعِ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ يَعْمُ النَّوَعَيْنِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَثَبَتَ لَهُمْ صَلَاةً،

(١) رواه مسلم (٤٣٠). و(شمس) جمع شمس مثل رسول ورسول وهي التي لا تستقر بل تضرب وتتحرك بأذناها وأرجلها.

(٢) الدر المنثور للسيوطي (٦٤٣/٨).

(٣) تعظيم قدر الصلاة (٤٤).

(٤) الدر المنثور للسيوطي (٦٤٣/٨).

وَوَصَفَتْهُمْ بِالسَّهْوِ عَنْهَا فَهُوَ السَّهْوُ عَنْ وَقْتِهَا الْوَاجِبِ، أَوْ عَنْ إِخْلَاصِهَا وَحُضُورِهَا الْوَاجِبِ، وَلِذَلِكَ وَصَفَتْهُمْ بِالرِّيَاءِ، وَلَوْ كَانَ السَّهْوُ سَهْوً تَرَكَ لَمَا كَانَ هُنَاكَ رِيَاءً (١).

ثانيا: العلم بما ثبت من الترغيب في الخشوع:

١- وروى الشيخان من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» (٢).

٢- وروى مسلم في صحيحه رحمته الله عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ فَجَاءَتْ نَوْبِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وَضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» (٣).

٣- وروى مسلم أيضا في صحيحه، قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَحَجَّاجُ بْنُ الشَّاعِرِ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي الْوَلِيدِ، قَالَ: عَبْدٌ، حَدَّثَنِي أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُمَانَ فَدَعَا بِطَهُورٍ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحَضَّرَهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وَضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً

(١) مدارج السالكين، (١/٥٢٧).

(٢) أخرجه البخاري، (١٦٠)، ومسلم (٢٢٦).

(٣) أخرجه مسلم، (٢٣٤).

لَمَّا قَبَلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ» (١).

ثالثا: العلم بأن الأجر المكتوب بحسب الخشوع:

١- قال الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عَمَّارًا، صَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ: يَا أَبَا الْيَقْظَانَ، لَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ خَفَّفْتَهُمَا، قَالَ: هَلْ نَقَصْتُ مِنْ حُدُودِهَا شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ خَفَّفْتَهُمَا قَالَ: إِنِّي بَادَرْتُ بِهِمَا السَّهْوَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي، وَلَعَلَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا عَشْرُهَا، وَتُسْعُهَا، أَوْ ثُمْنُهَا، أَوْ سُبْعُهَا " حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ » (٢).

رابعا: العلم بأن الأوزار والآثام تنحط عن العبد إذا صلى بتمام و خشوع:

فقد أخرج الطبراني عن جبير بن نفير؛ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَأَى فَتًى وَهُوَ يَصَلِّي قَدْ أَطَالَ صَلَاتَهُ وَأَطْنَبَ فِيهَا، فَقَالَ: مَنْ يَعْرِفُ هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ لَأَمَرْتُهُ أَنْ يَطِيلَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، أُتِيَ بِذُنُوبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَى رَأْسِهِ وَعَاتِقَيْهِ، كُلَّمَا رَكَعَ وَسَجَدَ تَسَاقَطَتْ عَنْهُ» (٣).

(١) أخرجه مسلم، (٢٢٨).

(٢) رواه أحمد (١٨٨٧٩)، والنسائي في الكبرى (٦١٤)، وصححه ابن حبان (١٨٨٩).

(٣) رواه الطبراني (١٤١٠٨)، وصححه ابن حبان (١٧٣٤)، وأورده الألباني في الصحيحة

(٣/٣٨٧) وقال: أخرجه محمد بن نصر في " الصلاة " (٢٩٤) وفي " قيام الليل " (ص ٥٢)

وأبو نعيم في " الحلية " (٦ / ٩٩ - ١٠٠) وقال: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات.

المبحث السادس منزلة الخشوع في الصلاة.

الْخُشُوعُ لُغَةً مِنْ يَخْشَعُ: يَخْشَعُ السُّكُونُ وَالتَّذَلُّلُ.

وَخَشَعَ فِي صَلَاتِهِ وَدُعَائِهِ، أَقْبَلَ بِقَلْبِهِ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ مَاخُودٌ مِنْ خَشَعَتِ الْأَرْضُ إِذَا سَكَنَتْ وَاطْمَأَنَّتْ.

وَخَشَعَ بَصَرُهُ انْكَسَرَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ ﴾ [المعارج: ٤٤].

قَالَ الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: الْخُشُوعُ الضَّرَاعَةُ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ الْخُشُوعُ فِيمَا يُوجَدُ عَلَى الْجَوَارِحِ، وَالضَّرَاعَةُ أَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ فِيمَا يُوجَدُ فِي الْقَلْبِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ فِيمَا رُوِيَ: إِذَا صَرََعَ الْقَلْبُ خَشَعَتِ الْجَوَارِحُ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الْخُشُوعُ هَيْئَةٌ فِي النَّفْسِ يَظْهَرُ مِنْهَا فِي الْجَوَارِحِ سُكُونٌ وَتَوَاضُعٌ.

والتَّخَشُّعُ تَكَلُّفُ الْخُشُوعِ، وَالتَّخَشُّعُ لِلَّهِ، الْإِخْبَاتُ وَالتَّذَلُّلُ لَهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْخُشُوعُ فِي الْقَلْبِ هُوَ الْخَوْفُ وَغَضُّ الْبَصَرِ فِي الصَّلَاةِ (١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ " رواه مسلم (٣٠٢٧). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٩/١١٦).

الله استَبَطَّ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، فَعَاتَبَهُمْ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴾ ﴿ [المؤمنون: ١] تفسير القرطبي، (٢٤٩ / ١٧).

وَالْخُشُوعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْإِنْخِفَاضُ، وَالذُّلُّ، وَالسُّكُونُ، قَالَ تَعَالَى ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [طه: ١٠٨] أَي سَكَنتُ، وَذَلَّتْ، وَخَضَعَتْ، وَمِنْهُ وَصَفُ الْأَرْضِ بِالْخُشُوعِ، وَهُوَ يُسْهِمُهَا، وَإِنْخِفَاضُهَا، وَعَدَمُ ارْتِفَاعِهَا بِالرِّيِّ وَالنَّبَاتِ، قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْتَرَتْ وَرَبَّتْ ﴾ [فصلت: ٣٩].

وَالْخُشُوعُ: قِيَامُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ بِالْخُضُوعِ وَالذُّلِّ، وَالْجَمْعِيَّةُ عَلَيْهِ وَقِيلَ: الْخُشُوعُ الْإِنْقِيَادُ لِلْحَقِّ، وَهَذَا مِنْ مُوجِبَاتِ الْخُشُوعِ. فَمِنْ عَلَامَاتِهِ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا خُولِفَ وَرُدَّ عَلَيْهِ بِالْحَقِّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ وَالْإِنْقِيَادِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: حُسْنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنْوَانُ أَدَبِ الْبَاطِنِ، وَرَأَى بَعْضُهُمْ رَجُلًا خَاشِعَ الْمُنْكَبِينَ وَالْبَدَنِ، فَقَالَ: يَا فُلَانُ، الْخُشُوعُ هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ، لَا هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى مَنْكَبِيهِ.

وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وَهُوَ حَذِيفَةُ، يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَخُشُوعَ النَّفَاقِ، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا خُشُوعَ النَّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَى الْجَسَدَ خَاشِعًا وَالْقَلْبَ لَيْسَ بِخَاشِعٍ، وَرَأَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه رَجُلًا طَاطَأَ رَقَبَتَهُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: يَا صَاحِبَ الرَّقَبَةِ، ازْفَعْ رَقَبَتَكَ، لَيْسَ الْخُشُوعُ فِي الرَّقَابِ، إِنَّمَا الْخُشُوعُ فِي الْقُلُوبِ، وَرَأَتْ عَائِشَةُ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شَبَابًا يَمْشُونَ وَيَتَمَارُونَ فِي مَشِيَّتِهِمْ، فَقَالَتْ لِأَصْحَابِهَا: مَنْ هُوَ لَاءِ؟
 فَقَالُوا: نُسَّاكُ، فَقَالَتْ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَإِذَا قَالَ أَسْمَعَ،
 وَإِذَا ضَرَبَ أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَع، وَكَانَ هُوَ النَّاسِكَ حَقًّا، وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ
 عِيَّاضٍ: كَانَ يُكْرَهُ أَنْ يُرَى الرَّجُلُ مِنَ الْخُشُوعِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي قَلْبِهِ، وَقَالَ حُذَيْفَةُ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْخُشُوعُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ،
 وَرُبَّ مُصَلٍّ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَيُوشِكُ أَنْ تَدْخَلَ مَسْجِدَ الْجَمَاعَةِ فَلَا تَرَى فِيهِمْ
 خَاشِعًا، وَقَالَ سَهْلٌ: مَنْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَمْ يَقْرَبْ مِنْهُ الشَّيْطَانُ (١).



(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (١/٥١٦ - وما بعدها)

المبحث السابع

حكم الخشوع في الصلاة.

اختلف الفقهاء في حكم الخشوع في الصلاة هل هو فرض من فرائض الصلاة، أو من فضائلها ومكملاتها؟

فذهب جمهور الفقهاء إلى أنه سنة من سنن الصلاة بدليل صحة صلاة من يفكر بأمر دنيوي إذ لم يقولوا بطلانها إذا كان ضابطاً أفعالها (١).

وعليه فيسن للمصلي أن يخشع في كل صلاته بقلبه وبجوارحه وذلك بمراعاة ما يلي:

أ - أن لا يحضر فيه غير ما هو فيه من الصلاة.

ب - أن يخشع بجوارحه بأن لا يعبت بشيء من جسده كليته أو من غير جسده، كتسوية ردايه أو عمامته، بحيث يتصف ظاهره وباطنه بالخشوع، ويستحضر أنه واقف بين يدي ملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى يناجيه. وأن صلاته معروضة عليه.

ج - أن يتدبر القراءة لأنه بذلك يكمل مقصود الخشوع.

د - أن يفرغ قلبه عن الشواغل الأخرى؛ لأن هذا أعون على الخشوع، ولا

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، (١٩/١١٧).

يَسْتَرِيسِل مَعَ حَدِيثِ النَّفْسِ.

قال ابنُ عابدين: وَاَعْلَمَ أَنَّ حُضُورَ الْقَلْبِ فَرَاغُهُ مِنْ غَيْرِ مَا هُوَ مُلَابِسٌ لَهُ.
وَالْأَصْلُ فِي طَلَبِ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾

فَسَّرَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخُشُوعَ فِي الْآيَةِ: بِلِينِ الْقَلْبِ وَكَفِّ الْجَوَارِحِ.

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَعْثُبُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ
فَقَالَ: لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ (١).

وَمَا رَوَى أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ
الرَّحْمَةَ تُوَاجِهُهُ فَلَا يَمْسَحُ الْحَصَى » (٢).

* فَإِذَا تَرَكَ الْمُصَلِّي الْخُشُوعَ فِي صَلَاتِهِ، فَإِنَّ صَلَاتَهُ تَكُونُ صَاحِبَةً عِنْدَ
الْجُمْهُورِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: لَمْ يَأْمُرْ الْعَابِثَ بِلِحْيَتِهِ بِإِعَادَةِ الصَّلَاةِ مَعَ أَنَّ الْحَدِيثَ
يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ خُشُوعِهِ فِي صَلَاتِهِ ؛ وَلِأَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَبْطُلُ بِعَمَلِ الْقَلْبِ وَلَوْ
طَالَ، إِلَّا أَنَّهُ ارْتَكَبَ مَكْرُوهًا وَلَا يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «لَيْسَ لِلْعَبْدِ مِنْ

(١) حديث: " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ". أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول
كما في الجامع الصغير للسيوطي (بشرحه الفيض ٥ / ٣١٩ - ط المكتبة التجارية)، ونقل
المنائوي عن العراقي أن في أسناده راويا متفقا على ضعفه..

(٢) حاشية ابن عابدين ١ / ٢٧٩، الفواكه الدواني ١ / ٢٠٨، تفسير القرطبي ١٢ / ١٠٣ مغني
المحتاج ١ / ١٨١، تحفة المحتاج ٢ / ١٠١، المغني لابن قدامة ٢ / ١٠، كشاف القناع ١
/ ٣٩٢، الفروع ١ / ٤٨٦ وحديث " إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه.... ".
أخرجه أبو داود (١ / ٥٨١ - تحقيق عزت عبيد دعاس). وفي أسناده راو مجهول.

صَلَاتِهِ إِلَّا مَا عَقَلَ^(١).

وَدَهَبَ بَعْضُ فُقَهَاءِ كُلِّ مِنَ الْحَنْفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ إِلَى أَنَّ الْخُشُوعَ لَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِ الصَّلَاةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِيهِ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ فَرَضٌ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ وَلَكِنْ لَا تَبْطُلُ الصَّلَاةُ بِتَرْكِهِ لِأَنَّهُ مَعْفُوفٌ عَنْهُ.

وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ فَرَضٌ تَبْطُلُ الصَّلَاةُ بِتَرْكِهِ كَسَائِرِ الْفُرُوضِ.

وَقَالَ بَعْضُ آخَرٍ مِنْهُمْ: إِنَّ الْخُشُوعَ شَرْطٌ لِصِحَّةِ الصَّلَاةِ لَكِنَّهُ فِي جُزْءٍ مِنْهَا فَيَشْتَرِطُ فِي هَذَا الْقَوْلِ حُضُورَ الْخُشُوعِ فِي جُزْءٍ مِنَ الصَّلَاةِ وَإِنْ انْتَهَى فِي الْبَاقِي، وَبَعْضُ أَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ حَدَّدَ الْجُزْءَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ الْخُشُوعُ مِنَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عِنْدَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ^(٢).

وَذَكَرَ الْقُرْطُبِيُّ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْخُشُوعُ مَذْمُومًا، وَهُوَ الْمُتَكَلِّفُ أَمَامَ النَّاسِ بِمُطَاطَاةِ الرَّأْسِ وَالتَّبَاكِييِ كَمَا يَفْعَلُهُ الْجُهَّالُ، لِيُرُوا بَعِينَ الْبِرِّ وَالْإِجْلَالَ، وَذَلِكَ خُدْعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلٌ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ^(٣).

(١) حديث: " ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل ". أورده الغزالي في الإحياء (١ / ١٦٦ - ط الحلبي)، وقال العراقي كما في حاشيته المطبوعة مع الإحياء: " لم أجده مرفوعاً "، ولا ابن المبارك في الزهد موقوفاً علي عمار: " لا يكتب للرجل من صلاته ما سهي ".

(٢) حاشية ابن عابدين ١ / ٢٧٩، الفواكه الدواني ١ / ٢٠٨، تفسير القرطبي ١٢ / ١٠٣، مغني المحتاج ١ / ١٨١، تحفة المحتاج ٢ / ١٠٢، المغني لابن قدامة ٢ / ١٠، كشاف القناع ١ / ٣٩٢، الفروع ١ / ٤٨٦.

(٣) تفسير القرطبي (١ / ٣٧٥).

قال ابن القيم:

فَصَلُّ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا تَقُولُونَ فِي صَلَاةٍ مِنْ عَدَمِ الخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِ هَلْ يُعْتَدُّ بِهَا أَمْ لَا؟

قِيلَ: أَمَّا الإِعْتِدَادُ بِهَا فِي الثَّوَابِ فَلَا يُعْتَدُّ لَهُ فِيهَا إِلَّا بِمَا عَقِلَ فِيهِ مِنْهَا، وَخَشَعَ فِيهِ لِرَبِّهِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا.

وَفِي المُسْنَدِ مَرْفُوعًا «إِنَّ العَبْدَ لِيُصَلِّي الصَّلَاةَ، وَلَمْ يُكْتَبْ لَهُ إِلَّا نِصْفُهَا، أَوْ ثُلُثُهَا، أَوْ رُبْعُهَا حَتَّى بَلَغَ عَشْرَهَا».

وَقَدْ عَلِقَ اللهُ فَالَاحَ المُصَلِّينَ بِالخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَخْشَعْ فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الفَلَاحِ، وَلَوْ اعْتَدَّ لَهُ بِهَا ثَوَابًا لَكَانَ مِنَ المُفْلِحِينَ.

وَأَمَّا الإِعْتِدَادُ بِهَا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، وَسُقُوطِ القَضَاءِ فَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهَا الخُشُوعُ وَتَعَقَّلَهَا اعْتَدَّ بِهَا إِجْمَاعًا، وَكَانَتِ السُّنَنُ، وَالْأَذْكَارُ عَقِيبَهَا جَوَابِرٌ وَمُكَمَّلَاتٌ لِنَقْصِهَا.

وَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ عَدَمُ الخُشُوعِ فِيهَا، وَعَدَمُ تَعَقُّلِهَا، فَقَدْ اخْتَلَفَ الفُقَهَاءُ فِي وُجُوبِ إِعَادَتِهَا إِلَى أَنْ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

والقول الثاني: لا تجب إعادتها؛ لما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحكام سجود السهو، وأن منه ما هو ترغيم للشيطان، والخشوع إنما هو لرفعة الدرجات؛ ولحصول ثواب الله العاجل والآجل، ومرافقة المقربين، وهذا يفوت بفوات

الحضور والخضوع، وإن الرجلين يكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، فإن أراد أن يعيد صلاته لهذه الثمرات، فذلك إليه إن شاء أن يحصّلها، وإن شاء أن يفوتها على نفسه، أما كوننا نلزمه بإعادتها، ونعاقبه على تركها، ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة، فلا.

ويرى ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أَنْ حَجَّجَ الْفَرِيقَ الْأَوَّلَ قَوِيَّةً وَظَاهِرَةً، وَلَكِنَّهُ قَالَ: "... الْقَوْلُ الثَّانِي أَرْجَحُ الْقَوْلَيْنِ " (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. وَهَذَا يَقْتَضِي ذَمَّ غَيْرِ الْخَاشِعِينَ (٢).

وقال أيضا رَحِمَهُ اللهُ: وَيَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْخُشُوعِ فِيهَا أَيضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑪ ﴿[المؤمنون: ١ - [١١].

أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَرِثُونَ فِرْدَوْسَ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يَرِثُهَا غَيْرُهُمْ، وَقَدْ دَلَّ هَذَا عَلَىٰ وُجُوبِ هَذِهِ الْخِصَالِ؛ إِذْ لَوْ كَانَ فِيهَا مَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ لَكَانَتْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ تُورَثُ بِدُونِهَا؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ تُنَالُ بِفِعْلِ

(١) مدارج السالكين، (١ / ٥٢٥ - ٥٣٠).

(٢) القواعد النورانية الفقهية، (٤٢).

الْوَاجِبَاتِ دُونَ الْمُسْتَحَبَّاتِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يُذَكَّرْ فِي هَذِهِ الْخِصَالِ إِلَّا مَا هُوَ وَاجِبٌ، وَإِذَا كَانَ الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ وَاجِبًا فَالْخُشُوعُ يَتَّصِفُ بِالسَّكِينَةِ وَالتَّوَاضُّعِ جَمِيعًا. وَلِهَذَا «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي حَالِ رُكُوعِهِ: "اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ خَشَعْتُ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِي وَعَقْلِي وَعَصْبِي"» رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٧٧١)، فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْخُشُوعِ فِي حَالِ الرُّكُوعِ؛ لِأَنَّ الرَّائِعَ سَاكِنٌ مُتَوَاضِعٌ (١).

وقال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

واختلف العلماء - رحمهم الله - هل الخشوع واجب أو سنة؟ والصحيح: أنه سنة، لكنه سنة مؤكدة؛ إذ إنه هو روح الصلاة حقيقة، فالصلاة بلا حضور قلب ما هي إلا قشور بلا لب، وينقص من ثواب الصلاة بقدر ما نقص من الخشوع، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في "القواعد النورانية": أن الخشوع في الصلاة واجب، واستدل لذلك بأدلة كثيرة، لكن يعكر عليها أن النبي ﷺ قال: "إن الشيطان يأتي إلى ابن آدم في الصلاة فيقول: اذك كذا اذكر كذا حتى لا يدري ماذا صلى". فهذا يمنع أن نقول: إن الرجل إذا استوعبت الوسواس صلاته بطلت.

فالذي يظهر: أن الخشوع سنة مؤكدة جدا، وأن من غلب الوسواس على أكثر صلاته فهو على خطر عظيم (٢).

(١) القواعد النورانية الفقهية، (٧٥).

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، (١/ ٥٧١)، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، تحقيق وتعليق: صبحي بن محمد رمضان، أم إسراء بنت عرفة بيومي - الناشر:

وقال رَحِمَهُ اللهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: الْقَوْلُ بِأَنَّهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَأَنَّهُ إِذَا غَلَبَ الْوَسْوَاسُ عَلَى أَكْثَرِ الصَّلَاةِ بَطَلَتِ الصَّلَاةُ؛ لِأَنَّ الشَّكَّ أَنَّهُ قَوْلٌ وَجِيهٌ، لِأَنَّ الْخُشُوعَ لُبُّ الصَّلَاةِ وَرُوحُهَا، إِلَّا أَنَّهُ يَعْكُرُّ عَلَى وَجَاهَتِهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ أُدْبِرَ وَلَهُ ضُرَاطٌ - مِنْ شِدَّةِ وَقَعِ الْأَذَانَ عَلَيْهِ - ثُمَّ إِذَا فَرَعَ الْأَذَانَ حَضَرَ، وَإِذَا حَضَرَ دَخَلَ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي صَلَاتِهِ، يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ، حَتَّى لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى. أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ، فَهَذَا الْحَدِيثُ نَصٌّ بِأَنَّ الْوَسْوَاسَ وَإِنْ كَثُرَ لَا يَبْطُلُ الصَّلَاةَ،

وَكَذَلِكَ عَمُومٌ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا؛ مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، (٥٢٦٩) فَإِنَّهُ يَشْمَلُ مَنْ كَثُرَ وَسْوَاسُهُ فِي صَلَاتِهِ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ؛ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحَاوِلَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ حُضُورَ قَلْبِهِ فِي الصَّلَاةِ (١).



المبحث الثامن

حكم الوسوسة في الصلاة.

الوسوسة في الصلاة:

مُدافَعَةُ حَدِيثِ النَّفْسِ فِي الصَّلَاةِ مَشْرُوعَةٌ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَسْهُو فِيهِمَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَفِي حَدِيثِ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَلْفَظٍ: ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: قَوْلُهُ: " لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ " الْمُرَادُ بِهِ مَا تَسْتَرِيسِلُ النَّفْسُ مَعَهُ، وَيُمْكِنُ الْمَرْءَ قَطْعُهُ، فَأَمَّا مَا يَهْجُمُ مِنَ الْخَطَرَاتِ وَالْوَسَاوِسِ وَيَتَعَدَّرُ دَفْعُهُ فَذَلِكَ مَعْفُوفٌ عَنْهُ. وَنَقَلَ الْقَاضِي عِيَاضٌ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْمُرَادَ مَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَدِيثُ النَّفْسِ أَصْلًا وَرَأْسًا، وَيَشْهَدُ لَهُ مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ بِلَفْظٍ: « لَمْ يَسُرْ فِيهِمَا » (١).

قَالَ النَّوَوِيُّ: هَذِهِ الْفَضِيلَةُ تَحْصُلُ مَعَ طَرِيَانِ الْخَوَاطِرِ الْعَارِضَةِ غَيْرِ الْمُسْتَقَرَّةِ.

(١) رِوَايَةٌ: « لَمْ يَسُرْ فِيهِمَا » عَزَاهَا ابْنُ حَجَرٍ فِي الْمُنْتَحِ (١ / ٢٦٠) إِلَى الزُّهْدِ لِابْنِ الْمُبَارَكِ، وَلَمْ أَرَهَا فِي الْمَطْبُوعِ مِنْهُ.

وَمَنْ اتَّفَقَ أَنْ يَحْضُلَ لَهُ عَدَمُ حَدِيثِ النَّفْسِ أَصْلًا أَعْلَى دَرَجَةً بِلاَ رَيْبٍ (١).
 وَقَدْ اخْتَلَفَ فُقَهَاءُ الْحَنَابِلَةِ فِي بُطْلَانِ الصَّلَاةِ بِغَلْبَةِ الْوَسْوَاسِ.
 فَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: إِذَا غَلَبَ الْوَسْوَاسُ عَلَى أَكْثَرِ الصَّلَاةِ لَا يُبْطَلُهَا ؛ لِأَنَّ
 الْخُشُوعَ سُنَّةً، وَالصَّلَاةَ لَا تَبْطُلُ بِتَرْكِ سُنَّةٍ.

وَقَالَ ابْنُ حَامِدٍ وَابْنُ الْجَوَازِيِّ: تَبْطُلُ صَلَاةٌ مَنْ غَلَبَ الْوَسْوَاسُ عَلَى أَكْثَرِ
 صَلَاتِهِ، وَهُوَ مُقْتَضَى قَوْلِ الشَّيْخِ وَجِيهِ الدِّينِ حَيْثُ صَرَّحَ بِأَنَّ الْخُشُوعَ وَاجِبٌ،
 وَعَلَيْهِ فَتَبْطُلُ صَلَاةٌ مَنْ غَلَبَ الْوَسْوَاسُ عَلَى أَكْثَرِ صَلَاتِهِ. لَكِنْ قَالَ فِي الْفُرُوعِ:
 مُرَادُ الشَّيْخِ وَجِيهِ الدِّينِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَجُوبُ الْخُشُوعِ فِي بَعْضِ الصَّلَاةِ وَإِنْ
 أَرَادَ فِي كُلِّهَا، فَإِنْ لَمْ تَبْطُلْ بِتَرْكِهِ فَخِلَافُ قَاعِدَةِ تَرْكِ الْوَاجِبِ، وَإِنْ بَطَلُ بِهِ
 فَخِلَافُ الْإِجْمَاعِ، وَكِلَاهُمَا خِلَافُ الْأَخْبَارِ. وَلَمْ يَأْمُرِ النَّبِيُّ ﷺ الْعَابِثَ بِلِحْيَتِهِ
 بِإِعَادَةِ الصَّلَاةِ مَعَ قَوْلِهِ: لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ (٢).

وهذه بعض الفتاوى من مصادرها تتعلق بالوسواس في الصلاة.

* السؤال الرابع من الفتوى رقم (١٦٣٣٦) (٣).

س٤: عندما أكبر لصلاة أي فرض من الفروض الخمسة والمكتوبة فتأتي
 إلى أفكار سيئة جدا وتبعدني عن متابعة الإمام في قراءته فماذا يجب علي أن
 أفعل في هذه الحالة جزاكم الله خيرا؟

(١) فَتْحُ الْبَارِي، (١ / ٢٦٠)، وَأَنْظَرُ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ، (٣ / ٢٦).

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، (٤٣ / ١٤٩).

(٣) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، (٦ / ٤٨).

ج ٤: الوسواس في الصلاة لا يبطلها ولكن على الإنسان أن يحاول إحضار قلبه في الصلاة ويقطع الوسواس ويتعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً؛ لأنه لا يكتب له من صلاته إلا ما عقل منها.

وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

عضو عضو عضو عضو

بكر أبو زيد.. عبد العزيز آل الشيخ .. صالح الفوزان.. عبد الله بن غديان

نائب الرئيس الرئيس

عبد الرزاق عفيفي... عبد العزيز بن عبد الله بن باز

رقم الفتوى ١٩٠٩٤ أحكام تتعلق بصلاة من أصابه الوسواس

تاريخ الفتوى: ٢٨ ربيع الثاني ١٤٢٣

* السؤال:

أنا أعاني من الوسواس في الصلاة في كل شيء فيها فقد أشك مثلاً في الفاتحة إذا قرأتها بشكل صحيح أو عدد السجودات أو عدد الركعات... إلخ.

ولذلك ألجأ إلى مراجعة ما صلّيته أثناء الصلاة مثلاً في السجود حيث أمكث مدة أعيد فيها مراجعة ما صلّيته ثم أشك ثانية بعد القيام وهكذا أبقى في حالة مراجعة شبه دائمة مما يصيبني بالضيق الشديد سمعت أنه على الموسوس ألا يلتفت للوسواس لكن هل يجب على سجود السهو؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:
 فعلاج الوسوسة بعد الاستعانة بالله تعالى ودعائه وذكره هو الإعراض عن
 الوسوسة وعدم الالتفات إليها، ولمزيد تفصيل ومعرفة علاج الوسوسة تنظر
 الفتوى رقم: ١٠٣٥٥، والفتوى رقم: ١١٧٥٢.

ولا عبرة بالوسواس، ولا يعيد العبد صلاته بسببه، ولا يسجد للسهو إلا إذا
 غلب على ظنه نسيان ما يستحق أن يسجد له السهو^(١). والله أعلم.
 المفتي: مركز الفتوى بإشراف د. عبدالله الفقيه.

* السؤال

فضيلة الشيخ رجل عنده وسواس في الصلاة أحياناً يقرأ الفاتحة والشيطان
 يقول: ما قرأت، وصار يكرر الفاتحة، هل في تكرار الفاتحة شيء؟

الجواب

تكرار الفاتحة مكروه لاسيما إذا كان الحامل عليه الوسواس، وإذا قال
 الشيطان: إنك لم تقرأ، فليقل: كذبت، لكن لا يقولها بلسانه ويقولها في نفسه،
 وليستمر فإنه قد قرأ، وكما أن الشيطان يأتي يقول: ما قرأت الفاتحة أو ما كبرت
 أو ما نويت، كذلك يأتي للإنسان ويقول: أحدثت، ويوسوس له أنه أحدث، وقد
 قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة، (٣/٥٤٤٩).

ريحاً) (١).

* س: ما هي الأدعية التي تقال لغرض التخلص من وسوسة الشيطان؟

ج: يدعو الإنسان بما يسر الله له من الدعوات، مثل أن يقول: (اللهم أعذني من الشيطان، اللهم أجرني من الشيطان، اللهم احفظني من الشيطان، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، اللهم احفظني من مكاييد الشيطان)، ويكثر من ذكر الله، وقراءة القرآن، ويتعوذ بالله من وسوسة الشيطان الرجيم ولو في الصلاة.

وإذا غلب عليه الوسواس في الصلاة شرع له أن ينفث عن يساره (ثلاث مرات)، ويتعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً، لأنه قد صح « عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه شكى إليه عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه يجده من الوسواس في الصلاة، فأمره أن ينفث عن يساره ثلاث مرات، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وهو في الصلاة ففعل ذلك، فذهب عنه ما يجده ».

والحاصل: أن المؤمن والمؤمنة إذا ابتليا بهذا الشيء فعليهما: أن يجتهدا في سؤال الله العافية من ذلك، وأن يتعوذا بالله من الشيطان كثيرا ويحرصا على مكافحته في الصلاة وفي غيرها. وإذا توضحاً فليجزم أنه توضحاً ولا يعيد الوضوء، وإذا صلى يجزم أنه صلى ولا يعيد الصلاة، وكذلك إذا كبر لا يعيد التكبير؛ مخالفة لعدو الله، وإرغاماً له، ولا ينبغي أن يخضع لوساوسه، بل يجتهد في

(١) لقاء الباب المفتوح للعثيمين، (٢٢ / ٨٦).

التعوذ بالله منها، وأن يكون قويا في حرب عدو الله حتى لا يغلب عليه (١).

*س: يسأل المستمع ويقول: ما حكم الوسواس في الصلاة؟ فأنا كثير التفكير أثناء الصلاة، هل تبطل صلاتي؟ وبماذا توصون الذي يعاني من كثرة الوسواس أثناء الصلاة؟

ج: الوسوسة لا تبطل بها الصلاة، لكن عليه أن يتقي الله ويحذر وسواس الشيطان، اشتكى بعض الصحابة إلى النبي ﷺ الوسواس في الصلاة فقال له: «ذاك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك» ففعلها الصحابي فرالت عنه الوسوسة، فالذي يجدها يستعيد بالله من الشيطان ويحذر الركون إلى الشيطان والضعف، يصير قويا يتعوذ بالله من الشيطان، يترك الوسواس، وينفث عن يساره ثلاث مرات، ويتعوذ بالله من الشيطان ولو في الصلاة، ويزول إن شاء الله (٢).



(١) مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ (٨ / ٣٨٥).

(٢) فتاوى نور على الدرب (٧ / ٣٢٢).

المبحث التاسع

الخشوع في الصلاة من إقامتها.

قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها: قائمة تامة القيام، والركوع، والسجود، والأذكار، وقد علق الله سبحانه الفلاح بخشوع المُصَلِّي في صلاته، فمن فاتته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً؛ بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً، وكلما قلَّ خشوعه اشتدت عجلته، حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع، ولا إقبال على العبودية، ولا معرفة حقيقة العبودية، والله سبحانه قد قال: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقال: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ [هود: ١١٤]، وقال: ﴿ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ [النساء: ١٦٢]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال لموسى: ﴿ فَأَعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۗ ﴾ [طه: ١٤]، فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقروناً بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل، كما قال عمر رضي الله عنه: "الحاج قليل والركب كثير" (١).

(١) إحياء علوم الدين، (١/٢٦٣) وعزاه لابن عمر، وفي المصنف لعبد الرزاق، (٨٨٣٧)، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ شُرَيْحًا الْعِرَاقِيَّ يَقُولُ: «الْحَاجُّ قَلِيلٌ، وَالرُّكْبَانُ كَثِيرَةٌ».

فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها على الترويح تحلّة القسم، ويقولون: يكفيننا أدنى ما يقع عليه الاسم، ولينا نأتي به، ولو علم هؤلاء أن الملائكة تصعد بصلاتهم فتعرضها على الربّ - جل جلاله - بمنزلة الهدايا التي يتقرب بها الناس إلى ملوكهم وكبرائهم، فليس من عمد إلى أفضل ما يقدر عليه، فيزيّنه ويحسنه ما استطاع، ثم يتقرب به إلى من يرجوه ويخافه، كمن يعمد إلى أسقط ما عنده وأهونه عليه، فيستريح منه، ويبعثه إلى من لا يقع عنده بموقع (١).

وليس من كانت الصلاة ربيعاً لقلبه، وحياءً له، وراحةً، وقرّةً لعينه، وجلاءً لحزنه، وذهاباً لهمه وغمه، ومفرغاً له إليه في نوائبه ونوازله، كمن هي سحت لقلبه، وقيد لجوارحه، وتكليف له، وثقلٌ عليه، فهي كبيرة على هذا، وقرّة عينٍ وراحة لذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦]، فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلوّ قلوبهم من محبة الله تعالى، وتكبيره، وتعظيمه، والخشوع له، وقلّة رغبتهم فيه؛ فإن حضور العبد في الصلاة، وخشوعه فيها، وتكميله لها، واستفراغه وسعته في إقامتها، وإتمامها على قدر رغبته في الله.

وها هنا عجيبة تحصل لمن تفقّه قلبه في معاني القرآن من عجائب الأسماء والصفات، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه؛ بحيث يرى لكل اسم وصفة موضعاً

(١) الصلاة وأحكام تاركها لابن القيم، (١٤٠).

من صلاته، ومحلاً منها، فإنه إذا انتصب قائماً بين يدي الرب تبارك وتعالى شاهد بقلبه قِيُومِيَّتِهِ، وإذا قال: "الله أكبر" شاهد كبريائه، وإذا قال: "سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك" شاهد بقلبه رباً مُنَزَّهاً عن كل عيب، سالماً من كل نقص، محموداً بكل حمد، فَحَمْدُهُ يتضمن وصفه بكل كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص، تبارك اسمه، فلا يُذَكَّرُ على قليل إلا كَثُرَ، وعلى خيرٍ إلا أُنْمِأَ، وبارك فيه، ولا على آفةٍ إلا أذْهَبَها، ولا على شيطانٍ إلا رَدَّه خاسئاً داحراً، وكمال الاسم من كمال مُسَمَّاه، فإذا كان شأن اسمه الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، فشأن المُسَمَّى أعلى وأجل، وتعالى جدُّه، أي ارتفعت عظمته، وجلت فوق كل عظمة، وعلا شأنه على كل شأن، وقهر سلطانه على كل سلطان، فتعالى جدُّه أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيَّتِهِ، أو في إلهيَّتِهِ، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۗ﴾ [الجن: ٣]، فكم في هذه الكلمات من تجلٍّ لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها غير المُعَطَّلٍ لحقائقها.

وإذا قال: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" فقد أوى إلى ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوِّه الذي يريد أن يقطعه عن ربه، ويبعده عن قربه؛ ليكون أسوأ حالاً.

فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ وقف هنيئاً يسيرة ينتظر جواب ربه له بقوله: "حمدني عبدي"، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ انتظر الجواب بقوله: "أنتى عليَّ عبدي" فإذا قال: ﴿مَلَايْكَ يَوْمَ الدِّينِ ۝﴾ انتظر جوابه: "مَجَّدني

عبدى " فيا لذة قلبه، وقرّة عينه، وسرور نفسه بقول ربه: عبدى ثلاث مرات، فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات، وغيم النفوس، لاستطيرت فرحاً وسروراً بقول ربها، وفاطرها، ومعبودها: "حمدنى عبدى، أثنى علىّ عبدى، مجدنى عبدى" ...

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتظر جواب ربه بقوله: "هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل"، ففيها سر الخلق والأمر، والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجل الغايات، وأفضل الوسائل، فأجل الغايات عبوديته، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحق العبادة إلا هو، ولا معين على عبادته غيره، فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجل الوسائل.

فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ انتظر جواب ربه بقوله: "هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل" ثم يشهد الداعي شدة فاقته، وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس هو إلى شيء أشد فاقته، وحاجة منه إليها البتة؛ فإنه محتاج إليه في كل نفسٍ، وطرفة عين، وهذا المطلوب من هذا الدعاء لا يتم إلا بالهداية إلى الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التفصيل، وخلق القدرة على الفعل، وإرادته، وتكوينه، وتوقيعه لإيقاعه له على الوجه المرضي المحبوب للرب - سبحانه وتعالى -، وحفظه عليه من مفسداته حال فعله، وبعد فعله.

ولما كان العبد مفتقراً في كل حالٍ إلى هذه الهداية في جميع ما يأتيه ويذره... فرض الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعددة في اليوم واللييلة.

ثم بيّن أن أهل هذه الهداية هم المختصّون بنعمته دون المغضوب عليهم، وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، ودون الضالين، وهم الذين عبدوا الله بغير علم، فالطائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسبيل المنعم عليهم مغايرة لسبيل أهل الباطل كلها علماً وعملاً.

فلما فرغ من هذا الثناء، والدعاء، والتوحيد، شرّع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين، يكون كالخاتم له، وافق فيه ملائكة السماء، وهذا التأمين من زينة الصلاة، كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة، واتباع للسنة، وتعظيم أمر الله، وعبودية اليدين وشعار الانتقال من ركن إلى ركن (١).

معني " إقامة الصلاة ": أن يأتي بها الإنسان مستقيمة على الوجه المطلوب، فيحافظ عليها في أوقاتها، ويقوم بأركانها وواجباتها وشروطها، ويتم ذلك بمستحباتها.

ومن هذا بالنسبة للرجال إقامة الصلاة في المساجد مع الجماعة، فإن هذا من إقامة الصلاة، ومن تخلف عن الجماعة بلا عذر فهو آثم، بل هو عند بعض العلماء - كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ إِذَا صَلَّى بدون عذر مع غير الجماعة؛ فصلاته باطلة مردودة عليه، لا تقبل منه، ولكن الجمهور هو على أنها تصح مع الإثم، وهذا هو الصحيح، فمن ترك صلاة الجماعة بلا عذر؛ فصلاته صحيحة ولكنه آثم، وهذا هو القول الراجح، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ وهو الذي عليه جمهور من قالوا بوجوب صلاة الجماعة.

(١) الصلاة وأحكام تاركها لابن القيم، (١٤٥).

ومن إقامة الصلاة: الخشوع فيها، والخشوع هو حضور القلب وتأمله بما يقوله المصلي وما يفعله، وهو أمر مهم؛ لأن الصلاة بلا خشوع كالجسد بلا روح، فأنت إذا صليت وقلبك يدور في كل واد فإنك تصلي حركات بدنيه فقط، فإذا كان قلبك حاضراً تشعر كأنك بين يدي الله عز وجل، تناجيه بكلامه، وتتقرب إليه بذكره ودعائه، فهذا هو لب الصلاة روحها (١).

وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: ومن إقامة الصلاة أن يكون الإنسان فيها خاشعاً لله تعالى بظاهره وباطنه، فالخشوع في الباطن حضور القلب، والخشوع في الظاهر السكون وعدم الحركة.

و الحركة في الصلاة تنقسم إلى خمسة أقسام:

أولاً: الحركة الواجبة: وتجب الحركة إذا كان يتوقف عليها صحة الصلاة، أي إذا كان ترك الحركة مبطلاً للصلاة، فإن الحركة تكون حينئذ واجبة.

مثال: رجل كان يصلي إلى غير القبلة فجاءه آخر فقال: إن القبلة على يمينك، فهنا يجب أن ينحرف إلى اليمين، لأنه لو بقي على اتجاهه الأول، لكانت صلاته باطلة، فيجب أن يتجه إلى اليمين.

مثال آخر: رجل ذكر أن في غترته نجاسة فيجب عليه أن يتحرك لخلع الغترة، ونظير ذلك ما فعله الرسول ﷺ حين جاءه جبريل فأخبره أن في نعليه أذى فخلعهما.

(١) شرح رياض الصالحين للعثيمين رَحِمَهُ اللهُ، (٣٩٩-٤٠٠).

ثانياً: الحركة المستحبة: وهي الحركة التي يتوقف عليها فعل مستحب.

مثال: أن يتقدم الإنسان إلى الصف الذي أمامه إذا انفرج فهذه حركة مستحبة، لأن فيه وصلاً للصف وسداً للفرج وتقدماً إلى المكان الفاضل.

مثال آخر: كذلك أيضاً لو أن الصف قرب بعضه من بعض فإنك تقرب إلى الصف وهذه الحركة نعتبرها مستحبة، لأنه يتوقف عليها فعل مستحب.

ثالثاً: الحركة المكروهة: وهي الحركة اليسيرة بلا حاجة، هي مكروهة لأنها عبث مناف للخشوع، كما نشاهده في كثير من الناس ينظر إلى الساعة وهو يصلي، أو يصلح غترته، أو يُذَكِّرُه الشيطان وهو في صلاته أمراً نسيه فيخرج القلم ويكتب الذي نسيه لئلا يضيعه بعد ذلك، وأمثلتها كثيرة.

رابعاً: الحركة المحرمة: وهي الحركة الكثيرة المتوالية لغير ضرورة.

فقولنا (الحركة الكثيرة) خرج به الحركة اليسيرة، فإنها من المكروهات.

وقولنا (المتوالية) خرج به الحركة المتفرقة، فلو تحرك الإنسان في الركعة الأولى حركة يسيرة، وفي الثانية حركة يسيرة، وكذلك الثالثة والرابعة لو جمعنا هذه الحركات لوجدناها كثيرة لكن لتفرقها صارت يسيرة، فلا تأخذ حكم الحركة الكثيرة.

وقولنا (لغير ضرورة) احترازاً من الحركة التي للضرورة، مثل أن يكون الإنسان في حالة أهبة للقتال، يحتاج إلى حركة كثيرة في حمل السلاح وتوجيهه إلى العدو، وما أشبه ذلك. وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ

وَأَسْلَحَتْهُمُ ﴿ [النساء: ١٠٢] وهذا أمر لا بد منه للمجاهد في سبيل الله.

ومن ذاك لو أن عدواً لحقه وهو هارب منه، فإن هذه الحركة الكثيرة مغتفرة، لأنها للضرورة.

وكذلك أيضاً لو هاجمته حية وهو يصلي، وحاول مدافعتها عن نفسه فإن هذه الحركة وإن كثرت فلا بأس بها، لأنها ضرورة.

خامساً: الحركة المباحة: وهي الحركة اليسيرة للحاجة أو الحركة الكثيرة للضرورة.

مثال: لو كانت الأم عندها صبي ويصيح، فإذا حملته سكت، فلا حرج عليها حينئذ أن تحمله حال القيام، وتضعه في حال السجود، فهذه الحركة يسيره ولحاجة فهي مباحة ويدل لذلك أن النبي كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب فإذا قام حملها، وإذا سجد وضعها (١).



(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، (١٢ / ٥٠٢ - وما بعدها).

المبحث العاشر الصلاة بخشوع قرة للعين وراحة للقلب.

قال ابن القيم: و لما اطمأن قلبه بذكر الله، و كلامه، و محبته و عبوديته سكن إلى ربه، و قرب منه، و قرَّت به عينه فنال الأمان بإيمانه و نال السعادة بإحسانه، و كان قيامه بهذين الأمرين أمراً ضرورياً لا حياة له، و لا فلاح و لا سعادة إلا به.

و لما كان ما بُلي به من النفس الأمارة، و الهوى المقتضي لمراها و الطباع المطالبة، و الشيطان المغوي، يقتضون منه إضاعة حظه من ذلك، أو نقصانه، اقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم أن شرَّع له الصلاة مُخْلِفة عليه ما ضاع عليه من ذلك، رادَّة عليه ما ذهب منه، مجددة له ما ذهب من عزمه و ما فقده، و ما أخلق من إيمانه، و جعل بين كل صلاتين برزخاً من الزمان حكمة و رحمة، ليُجَمَّ نفسه، و يمحوها ما يكتسبه من الدرن، و جعل صورتها على صورة أفعاله، خشوعاً و خضوعاً و انقياداً و تسليمًا و أعطى كل جارحة من جوارحه حظَّها من العبودية، و جعل ثمرتها و روحها إقباله على ربه فيها بكليته، و جعل ثوابها و محلها الدخول عليه تبارك و تعالي، و التزين للعرض عليه تذكيراً بالعرض الأكبر عليه يوم القيامة.

لكل شيء ثمرة و ثمرة الصلاة الإقبال على الله

و كما أن الصوم ثمرته تطهير النفس، و ثمرة الزكاة تطهير المال، و ثمرة الحج و جوب المغفرة، و ثمرة الجهاد تسليم النفس إليه، التي اشتراها سبحانه من العباد، و جعل الجنة ثمنها ؛ فالصلاة ثمرتها الإقبال على الله، و إقبال الله سبحانه على العبد، و في الإقبال على الله في الصلاة جميع ما ذكر من ثمرات الأعمال و جميع ثمرات الأعمال في الإقبال على الله فيها.

و لهذا لم يقل النبي ﷺ: جعلت قرّة عيني في الصوم، و لا في الحج و العمرة، و لا في شيء من هذه الأعمال و إنما قال: " و جعلت قرّة عيني في الصلاة "

و تأمل قوله: " و جعلت قرّة عيني في الصلاة " و لم يقل: " بالصلاة "، إعلاماً منه بأن عينه لا تقر إلا بدخوله كما تقر عين المحب بملاسته لمحبوبه و تقر عين الخائف بدخول في محل أنسه و أمنه، فقرة العين بالدخول في الشيء أتم و أكمل من قرّة العين به قبل الدخول فيه، و لما جاء إلى راحة القلب من تعبته و نصبه قال: " يا بلال أرحنا بالصلاة ".

و النبي ﷺ يحصل له السرور العظيم، واللذة العظيمة في صلاته؛ لأنه يستحضر عظمة الله و يناجيه، و يدعو، فيحصل له كمال المناجاة مع الرب تبارك و تعالی (١).

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: "... وقرّت عينه تُقرُّ: سُرت، قال: ﴿ كَيْ تَقَرَّ

(١) شرح السيوطي عن سنن النسائي، و حاشية السندي، ٧ / ٦٣ - ٦٤، و لسان العرب لابن منظور، ٥ / ٨٧، و المصباح المنير، ٢ / ٤٩٧.

عَيْنُهَا ﴿ [طه: ٤٠] وقيل لمن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عَيْنٍ، قال: ﴿ فُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ [القصص: ٩] وقوله: ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤] قيل: أصله من القُرُّ: أي البرد، فقُرَّتْ عينُه، قيل: معناه بردت فصَحَّتْ، وقيل: لأن للسرور دَمعة باردة قارة، وللحُزن دَمعة حارة؛ ولذلك يقال لمن يُدعى عليه: أسخن الله عينه، وقيل: هو من القرار، والمعنى: أعطاه الله ما تسكن به عينه، فلا يطمح إلى غيره" (١).

أي أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل كما يستريح التعبان إذا وصل إلى مأمنه و منزله و قرَّ فيه، و سكن و فارق ما كان فيه من التعب و النصب (٢).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "... الصلاة إنما تُكفِّرُ سيئات من أدَّى حقها، وأكمل خشوعها، ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقلبه، فهذا إذا انصرف منها وجد خِفَّةً من نفسه، وأحسَّ بأثقال قد وضعت عنه، فوجد نشاطاً، وراحة، وروحاً، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها؛ لأنها قُرَّةُ عينه، ونعيم روحه، وجنة قلبه، ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها، فيستريح بها، لا منها، فالمحبون يقولون: نُصَلِّي فنستريح بصلاتنا، كما قال إمامهم، وقدوتهم، ونبههم ﷺ: «يَا بَلَاءُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»، ولم يقل: أرحنا منها، وقال ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»، فمن جُعِلَتْ قُرَّةُ عينه في الصلاة، كيف تقرَّ عينه بدونها، وكيف يطيق الصبر عنها؟" (٣).

(١) أسرار الصلاة لابن القيم، (ص-٣٠-٣١).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، (ص-٦٣٣).

(٣) الواابل الصيِّب، (٣٤).

قال ابن القيم: وَالْمَقْصُودُ أَنْ مَا تَقَرُّ بِهِ الْعَيْنُ أَعْلَى مِنْ مُجَرَّدِ مَا يُحِبُّهُ
فَالصَّلَاةُ قُرَّةٌ عِيُونَ الْمُحِبِّينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِمَا فِيهَا مِنْ مُنَاجَاةٍ مِنْ لَا تَقَرُّ الْعِيُونَ
وَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَّا إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلُ وَالتَّذَلُّلُ وَالتَّخَضُّعُ
لَهُ وَالتَّقَرُّبُ مِنْهُ وَلَا سِيمَا فِي حَالِ السُّجُودِ وَتِلْكَ الْحَالُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ
رَبِّهِ فِيهَا وَمِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ يَا بِلَالُ أَرْحَنًا بِالصَّلَاةِ فَأَعْلَمُ بِذَلِكَ أَنَّ رَاحَتَهُ
ﷺ فِي الصَّلَاةِ كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِيهَا فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ نَصَلِي
وَنَسْتَرِيحُ مِنَ الصَّلَاةِ.

فالمحب راحته وقرّة عينه في الصلاة والغافل المعرض ليس له نصيب من ذلك بل الصلاة كيرة شاقة عليه إذا قام فيها كأنه على الجمر حتى يتخلص منها وأحب الصلاة إليه أعجلها وأسرعها فإنه ليس له قرّة عين فيها ولا لقلبه راحة بها والعبد إذا قرت عينه بشيء واستراح قلبه به فأشق ما عليه مفارقتة والمتكلف الفارغ القلب من الله والدار الآخرة المبتلى بمحبة الدنيا أشق ما عليه الصلاة وأكره ما إليه طولها مع تفرغه وصحته وعدم اشتغاله (١).



(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، (ص-٣٣).

المبحث الحادي عشر مراتب الناس في الصلاة.

اعلم أن الخشوع أمره عظيم، وشأنه خطير، ولا يتأتى إلا لمن وفقه الله لذلك، وحرمان الخشوع مصيبة كبيرة وخطب جلل ولذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ» (١).

قال المناوي: (اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع) لذكر الله سبحانه ولا لاستماع كلامه وهو القلب القاسي الذي هو أبعد القلوب من حضرة علام الغيوب (٢).

والخاشعون درجات، والخشوع من عمل القلب يزيد وينقص فممنهم من يبلغ خشوعه عنان السماء ومنهم من يخرج من صلاته لم يعقل شيئاً

والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكنه قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوسواس والأفكار.

(١) رواه الترمذي، (٣٤٨٢)، وصححه ابن حبان (١٠١٥)، انظر حديث رقم: ١٢٩٧ في صحيح الجامع.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (١٠٨/٢).

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوسوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضع بين يدي ربه عز وجل، ناظراً بقلبه إليه، مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوسوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به.

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفّر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه، لأن له نصيباً ممن جعلت قرّة عينه في الصلاة، فمن قرّت عينه بصلاته في الدنيا، قرّت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة، وقرّت عينه أيضاً به في الدنيا، ومن قرّت عينه بالله قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، وإنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة، واشتغاله فيها بربه - عز وجل - إذا قهر شهوته وهواه، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة، وأسره الهوى، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه، كيف يخلص من الوسوس والأفكار؟^(١).

(١) الوابل الصيب (ص ٣٨).

المبحث الثاني عشر

الخشوع في قراءة القرآن في الصلاة وغيرها.

يُنْبَغِي لِلْقَارِئِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يُنَاجِي اللَّهَ تَعَالَى، وَيَقْرَأُ عَلَى حَالٍ مَنْ يَرَى اللَّهَ تَعَالَى، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَاهُ (١).

فَإِذَا شَرَعَ فِي الْقِرَاءَةِ فَلْيَكُنْ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ وَالتَّدَبُّرَ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ وَالْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ وَتَسْتَيِّرُ الْقُلُوبُ (٢). كِتَابُ اللَّهِ بَحْرُهُ عَمِيقٌ، وَفَهْمُهُ دَقِيقٌ، لَا يَصِلُ إِلَى فَهْمِهِ إِلَّا مَنْ تَبَحَّرَ فِي الْعُلُومِ وَعَامَلَ اللَّهَ بِتَقْوَاهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ (٣).

وقد وصف المؤمنين بالخشوع له في أشرف عباداتهم التي هم عليها يحافظون، فَقَالَ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾

وقال عز وجل: ﴿ وَالْخَاشِعِينَ ﴾ يَعْنِي: الْمُتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ فِي الصَّلَاةِ، مَنْ لَا يَعْرِفُ مَنْ عَنِ يَمِينِهِ وَلَا مَنْ عَنِ يَسَارِهِ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنَ الْخُشُوعِ لِلَّهِ، ﴿ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ يَعْنِي: الْمُتَوَاضِعَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، (ص-٩٥)، نشر دار الدعوة.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، (ص-١٠٧).

(٣) البرهان في علوم القرآن، (٢/١٥٣).

ولذا يُسْتَحَبُّ الْبُكَاءُ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ (١)، وَالتَّبَاكِي لِمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَالْحُزْنَ وَالْخُشُوعَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَجُزُونَ لِلاَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء / ١٠٩]، وَقَدْ قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ الْقُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفِي حَدِيثِهِ: فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ (٢)، وَطَرِيقُهُ فِي تَحْصِيلِ الْبُكَاءِ أَنْ يَحْضُرَ فِي قَلْبِهِ الْحُزْنَ بِأَنْ يَتَأَمَّلَ مَا فِيهِ مِنَ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَالْمَوَاقِبِ وَالْعُهُودِ، ثُمَّ يَتَأَمَّلَ تَقْصِيرَهُ فِي ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَحْضُرْهُ حُزْنٌ وَبُكَاءٌ كَمَا يَحْضُرُ الْخَوَاصَّ فَلْيَبْكُ عَلَى فَقْدِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ (٣).

وأصل الخشوع هو: لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقة، فَإِذَا خَشَعَ الْقَلْبُ تَبِعَهُ خُشُوعُ جَمِيعِ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ؛ لِأَنَّهَا تَابِعَةٌ لَهُ (٤)، كَمَا قَالَ ﷺ: "أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ" (٥).

فَإِذَا خَشَعَ الْقَلْبُ خَشَعَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالرَّأْسُ وَالْوَجْهَ، وَسَائِرِ الْأَعْضَاءِ وَمَا يَنْشَأُ مِنْهَا حَتَّى الْكَلَامِ. لِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصْبِي» (٦).

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية، (١٣ / ٢٥٥).

(٢) البخاري، (٤٥٨٣).

(٣) إحياء علوم الدين، (١ / ٢٨٤) ط. الحلبي، والإتقان (١ / ٣٣٥).

(٤) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، (١ / ٢٩٠).

(٥) البخاري، (٥٢) ومسلم، (١٥٩٩).

(٦) رواه مسلم، (٧٧١).

قوله: خشع لك سمعي وبصري. الخشوع: الخضوع والتواضع. والمعنى أن جوارحي ذليلة منقادة لأمرك (١).

وقال ابن الملك: (خشع) أي خضع وتواضع أو سكن (لك سمعي) فلا يسمع إلا منك (وبصري) فلا ينظر إلا بك وإليك، وتخصيصهما من بين الحواس لأن أكثر الآفات بهما فإذا خشعنا قلت الوسواس (٢).

وكان السلف رضي الله عنهم لهم عاداتٌ مختلفةٌ في قدرٍ ما يختمون فيه فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرةً، وبعضهم مرتين، وانتهى بعضهم إلى ثلاث، ومنهم من يختم في الشهر (٣).

قال النووي: والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصده، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الممل والهذمة (٤).

* حض النبي صلى الله عليه وسلم على القراءة التي تجلب خشية الله.

روى أبي نعيم في تاريخ أصبهان بسنده عن عروة، عن عائشة، قالت: قال

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين، (١/٢٠٧).

(٢) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، (١٠/٧٠).

(٣) إحياء علوم الدين ١ / ٢٨٤ ط. الحلبي، والإتقان ١ / ٢٨٢.

(٤) التبيان (ص-٨٢).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ قِرَاءَةَ الَّذِي إِذَا قَرَأَ رُئِيَ أَنَّهُ يَخْشَى اللَّهَ» (١).

قال المناوي: (أحسن الناس قراءة) للقرآن، القارئ (الذي إذا قرأ رأيت) أي علمت (أنه يخشى الله) أي يخافه لأن القراءة حالة تقتضي مطالعة جلال الله وعرفان صفاته ولذلك الحال آثار تنشأ عنها الخشية من وعيد الله وزواجر تذكيره وقوارع تخويفه فمن تلبس بهذا الحال وظهرت عليه هيئة الجلال فهو أحسن الناس قراءة لما دل عليه حاله من عدم غفلة قلبه عن تدبر مواضع ربه وخشية الله سبب لولوج نور اليقين في القلب والتلذذ بكلام الرب ولم يكن كذلك فالقرآن لا تجاوز حنجرتَه (٢).

* وأخرج أبو داود عن الأعمش، عن طلحة، عن عبد الرحمن بن عوسجة، عن البراء بن عازب، قال: قال رسول الله ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» (٣).
وروى مسلم (٧٩٢) عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «مَا أَدَنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَدَنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ».

(١) رواه أبو نعيم في "أخبار أصبهان"، (٢ / ٢٠).
قال الألباني رحمه الله: وهو بهذا اللفظ أصح عندي لمجيئه من طرق أخرى، ولذلك اعتمده في "صفة الصلاة". «الصحيحة»، (٤ / ١١١-١١٢).
(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (١ / ١٩٠).
(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، والنسائي ٢ / ١٧٩ و ١٧٩ - ١٨٠ من طريقين عن طلحة الياضي، بهذا الإسناد.
وعلقه البخاري في "صحيحه" كتاب التوحيد، فقال: باب قول النبي ﷺ "الماهر بالقرآن مع سفره الكرام البررة، وزينوا القرآن بأصواتكم".
وهو في "مسند أحمد" (١٨٤٩٤)، و"صحيح ابن حبان"، (٧٤٩)...

و معناه عند أكثر العلماء من الطوائف وأصحاب الفتوى: يحسن صوته به وقال الشافعي وموافقوه معناه: تحزين القراءة وترقيقها واستدلوا بالحديث الآخر زينوا القرآن بأصواتكم، قال الهروي: معنى يتغنى به: يجهر به (١).

قال المناوي: يعني زينوا أصواتكم بالخشية لله حال القرآن

وقيل: بل هو حث على ترتيله ورعاية إعرابه وتحسين الصوت به وتنبه على التحرز من اللحن والتصحيف فإنه إذا قرئ كذلك كان أوقع في القلب وأشد تأثيراً وأرق لسامعه وسماه تزيينا لأنه تزيين للفظ والمعنى (٢).

وورد بسند ضعيف عند أبي نعيم في الحلية (٤/١٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ قِرَاءَةً مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يَتَحَزَّنُ بِهِ»

(من قرأ القرآن يتحزن به) أي يرقق به صوته لما أهمه من شأن القرآن وهذا هو المراد بخبر الطبراني "أحسنوا الأصوات بالقرآن" لا ما يفعله القراء من رعاية الألحان المخرجة للحروف عن مواضعها فالقصد بالتحزن به التخشع عند قراءته لينشأ عن ذلك الخشية (٣).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا أَرَدْتَ الْإِنْتِفَاعَ بِالْقُرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ وَأَلْقِ سَمْعَكَ وَاحْضِرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ خَطَابٌ مِنْهُ لِكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَتْ

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (٦/٧٩).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٤/٦٨).

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (١/١٩١)، والحديث في الطبراني (١٢٦٤٣).

لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٢٧﴾ * وَذَلِكَ أَنْ تَمَامَ التَّأثيرِ لَمَّا كَانَ مَوْقُوفًا عَلَى مُؤَثِّرٍ مُقْتَضِيٍّ وَمَحَلِّ قَابِلٍ وَشُرْطَ لِحُصُولِ الأثرِ انْتِفَاءُ المَانِعِ الَّذِي يَمْنَعُ مِنْهُ تَضَمَّنَتِ الآيَةُ بَيَانِ ذَلِكَ كُلِّهِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْيَنِهِ عَلَى المُرَادِ (١).

والقرآن العظيم مؤثرٌ في القلوب والنفوس والأرواح وتعرض فيما يلي بما يدل على ذلك من القرآن والسنة

أولا من القرآن:

١- تأثيره على علماء أهل الكتاب

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ [المائدة: ٨٣]

قال السعدي رحمه الله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﴾ محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي يتقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿٨٣﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاءوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ﴿٢﴾.

٢- تأثيره على الصالحين من أهل الكتاب الذين يمسكون بكتابهم

(١) الفوائد - ابن قيم الجوزية، (ص-٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٢٤٢).

وَيُقِيمُونَهُ، وَلَمْ يَبْدُلُوهُ وَلَا حَرَّفُوهُ -

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]

قال السعدي رحمه الله: ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ ﴾ أي: يتأثرون به غاية التأثير، ويخضعون له.

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ عما لا يليق بجلاله، مما نسبه إليه المشركون. ﴿ إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا ﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿ لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ لا خلف فيه ولا شك. ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ ﴾ أي: على وجوههم ﴿ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ القرآن ﴿ خُشوعًا ﴾ (١).

أخرج أحمد في الزهد عن أبي الجراح، عن رجل من أصحابهم؛ يُقَالُ لَهُ خَازِمٌ " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ ﷺ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ يَبْكِي، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» قَالَ: «فُلَانٌ» قَالَ جِبْرِيلُ: «إِنَّا نَزْنُ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا إِلَّا الْبُكَاءَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُطْفِئُ بِالدَّمْعَةِ بُحُورًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» (٢).

وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر أن عبد الأعلى التيمي قال: " مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ، فَخَلِيقٌ أَنْ لَا يَكُونَ أُوتِيَ عِلْمًا يَنْفَعُهُ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَعَتَ الْعُلَمَاءَ وَقَرَأَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٤٦٨).

(٢) الزهد لأحمد، (١٤٤).

١٠٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (١).

وأخرج ابن أبي شيبة عن الجعد، قال: "بلغنا أن داود، قال: إلهي، ما جزاء من فاضت عيناه من خشيتك، قال: جزاؤه أن أومنه يوم الفزع الأكبر" (٢). قال بعضهم [الوافر]:

وَكُلُّ تِلَاوَةٍ فَنَمْلٌ إِلَّا كَلَامَ اللَّهِ مَعَ قَوْلِ الرَّسُولِ

وقال آخر: [الطويل]

وَأَهْوَى مِنَ الْفِتْيَانِ كُلِّ مُحَافِظٍ عَلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ سِرًّا وَجَهْرَةً وَبِاللَّيْلِ قَوَّامًا بِسَجْدٍ وَرُكْعَةٍ

وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالنَّاسِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ فَلَمَّا بَلَغَ: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) خَنَقَتْهُ الْعِبْرَةُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْفُذَهَا فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا بَلَغَهَا خَنَقَتْهُ الْعِبْرَةُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَنْفُذَهَا فَقَرَأَ غَيْرَهَا (موارد الظمان ١ / ٤٨٥).

إِنَّ مِنْ تَعْظِيمِ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلَا تَعْظِيمِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَشِعَائِرِهِ وَذَلِكَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ فَمَنْ اسْتَخَفَّ بِكِتَابِ اللَّهِ أَوْ آيَةٍ مِنْهُ أَوْ اسْتَخَفَّ بِرُسُلِهِ أَوْ شِعَائِرِهِ خَسِرَ كُلَّ الْخُسْرَانِ.

٣- تأثيره على الذين أنعم الله عليهم.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ [مريم: ٥٨] أَيْ: إِذَا سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ الْمُتَضَمِّنَ حُجَجَهُ وَدَلَائِلَهُ وَبَرَاهِينَهُ، سَجَدُوا لِرَبِّهِمْ خُضُوعًا

(١) أحلاق العلماء للأجري، (٦٧)، والدارمي في سننه، (٢٩٩)، وقال محققه رَحِمَهُ اللهُ: إسناده جيد.

(٢) المصنف لابن أبي شيبة، (٣٤٢٨١).

وَاسْتِكَانَةً، وَحَمْدًا وَشُكْرًا عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ العَظِيمَةِ.
"والبُكْيُ": جَمْعُ بَاكِ، فَلِهَذَا أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَى شَرَعِيَّةِ السُّجُودِ هَاهُنَا،
اقتِدَاءً بِهِمْ، وَاتِّبَاعًا لِمَنَوَالِهِمْ (١).

روى البيهقي في الشعب بسنده عن سُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ
أَبِي مَعْمَرٍ، أَنَّ عُمَرَ قَرَأَ سُورَةَ مَرْيَمَ فَلَمَّا قَرَأَ آيَةَ السَّجْدَةِ سَجَدَ، ثُمَّ قَالَ: " هَذَا
السُّجُودُ فَأَيْنَ البُكْيَاءُ؟ " (٢). وفي رواية: " هَذَا السُّجُودُ فَأَيْنَ البُكْيُ " (٣).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿ خَرُّوا سَجْدًا وَبُكْيًا ﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا
لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما أوجب لهم البكاء
والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها
صما وعميانا (٤).

٤ - تأثيره على المؤمنين بزيادة الإيمان -

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢].
استدلَّ البُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الأئِمَّةِ بِهَذِهِ الآيَةِ وَأَشْبَاهِهَا، عَلَى زِيَادَةِ الإِيمَانِ
وَتَفَاضُلِهِ فِي القُلُوبِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الأُمَّةِ، بَلْ قَدْ حَكَى الإِجْمَاعُ عَلَى
ذَلِكَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الأئِمَّةِ، كَالشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَأَبِي عُبَيْدٍ (٥).

(١) تفسير القرآن العظيم، (٥/ ٢٤٢).

(٢) شعب الإيمان (٣/ ٤١٥).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا، (٤١٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٤٩٦).

(٥) أفاده ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عند الآيَةِ.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان^(١).

٥- تأثيره على الأبرار لما يفهمون منه من الوعد والوعيد.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَتَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: أي هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تشعروا منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ﴿لَمَّا يَرْجُونَ وَيُؤْمَلُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، فَهُمْ مُخَالَفُونَ لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمة لآيات، من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١) الَّذِينَ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٣١٥).

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴿[الأنفال: ٢-٤] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ﴿[الفرقان: ٧٣] أَيْ: لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَمَاعِهَا مُتَشَاغِلِينَ لِأَهْمِيَّتِهَا، بَلْ مُصْغِينَ إِلَيْهَا، فَاهْمِينَ بِصِيرَتِهَا بِمَعَانِيهَا؛ فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا، وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ بَصِيرَةٍ لَا عَنْ جَهْلٍ وَمُتَابَعَةٍ لغيرِهِمْ [أَي يَرُونَ غيرَهُمْ قَدْ سَجَدَ فَيَسْجُدُونَ تَبَعًا لَهُ]..

الثالث: أَنَّهُمْ يَلْزَمُونَ الأَدَبَ عِنْدَ سَمَاعِهَا، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ، رضي الله عنهم عِنْدَ سَمَاعِهَا كَلَامِ اللهِ مِنْ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَقْشَعُرُ جُلُودَهُمْ، ثُمَّ تَلِينُ مَعَ قُلُوبِهِمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ. لَمْ يَكُونُوا يَتَصَارخُونَ وَلَا يَتَكَلَّفُونَ مَا لَيْسَ فِيهِمْ، بَلْ عِنْدَهُمْ مِنَ الثَّبَاتِ وَالسُّكُونِ والأَدَبِ وَالخَشْيَةِ مَا لَا يَلْحَقُهُمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا فَازُوا بِالقِدْحِ المَعْلَى فِي الدُّنْيَا والأُخْرَةِ.

قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ قَالَ: تَلَا قَتَادَةُ، رحمته الله: ﴿ تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ﴾ قَالَ: هَذَا نَعْتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، نَعْتَهُمُ اللهُ بِأَنْ تَقْشَعُرَ جُلُودُهُمْ، وَتَبْكِي أَعْيُنُهُمْ، وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ، وَلَمْ يَنْعَتَهُمْ بِذَهَابِ عُقُولِهِمْ وَالغَشْيَانِ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا هَذَا فِي أَهْلِ البِدْعِ، وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ (١).

ثانيا: تأثير القرآن في القلوب والنفوس من سنة النبي صلى الله عليه وسلم

١- روى البخاري بسنده عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله

(١) تفسير عبد الرزاق، (٢٦٢٦).

بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْرَأْ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ، قَالَ: «نَعَمْ» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۗ﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ» فَالْتَفَتْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ (١).

قال ابن بطال: إنما بكى ﷺ عند تلاوة هذه الآية لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأُمَّته بالتصديق وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف وهو أمر يحق له طول البكاء - انتهى. قال الحافظ: والذي يظهر أنه بكى رحمة لأُمَّته، لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعلمهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً فقد يفضى إلى تعذيبهم - انتهى.

وفي الحديث استحباب استماع القراءة والإصغاء إليها والبكاء عندها والتدبر فيها.

قال النووي: البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين وشعار الصالحين قال الله تعالى: ﴿يَجْرُونَ لِأَذْقَانِ سَجْدًا ۗ﴾ [الإسراء: ١٠٩] ﴿حَرُورًا سَجْدًا وَبُكْيًا ۗ﴾ [مريم: ٥٨] والأحاديث فيه كثيرة قال: فإن عز عليه البكاء تباكى لخبر أحمد والبيهقي "إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا" - الحديث (٢).

وقال الغزالي يستحب البكاء مع القراءة وعندها. وطريق تحصيله أن يحضر قلبه الحزن والخوف بتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والوثائق

(١) البخاري، (٥٢)، ومسلم، (٨٠٠).

(٢) ضعيف. أخرجه ابن ماجه، (١٣٣٧). وانظر الضعيفة (٦٥١١)، للألباني رَحْمَةُ اللَّهِ.

والعهد ثم ينظر تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره حزن فليبك على فقد ذلك وإنه من أعظم المصائب (١).

٢- روى ابن حبان في صحيحه عن عطاء، قال: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فَقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهُ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غِيًّا تَزِدُّ حُبًّا، قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ قُرْبَكَ، وَأَحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا» إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿﴾ الْآيَةَ كُلُّهَا [آل عمران: ١٩٠] (٢).

قِيلَ لِلأَوْزَاعِيِّ: مَا غَايَةَ التَّفَكُّرِ فِيهِنَّ؟ قَالَ: يَقْرَأْنَهُنَّ وَهُوَ يَعْقِلُهُنَّ (٣).

قال ابن كثير: وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْلِيَّ الأَلْبَابِ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ﴾ ﴿﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ

(١) ذكره الحافظ في "الفتح" (٩٨ / ٩).

(٢) ابن حبان، (٦٢٠)، وصححه الألباني، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في الصحيحة (٦٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، (١٨٩ / ٢).

لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ أَيُّ: لَا يَقْطَعُونَ ذِكْرَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِسَرَائِرِهِمْ
وَضَمَائِرِهِمْ وَالسَّتِيهِمْ ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ: يَفْهَمُونَ مَا
فِيهِمَا مِنَ الْحُكْمِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ، وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَاخْتِيَارِهِ
وَرَحْمَتِهِ (١).

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: إِنِّي لِأَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِي، فَمَا يَقَعُ بَصْرِي
عَلَى شَيْءٍ إِلَّا رَأَيْتُ لِلَّهِ عَلَيَّ فِيهِ نِعْمَةً، أَوْ لِي فِيهِ عِبْرَةٌ.
رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ "التَّفَكُّرِ وَالْإِعْتِبَارِ" (٢).

٣- روى البخاري بسنده عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم
لِأَبِي: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» قَالَ أَبِي: اللَّهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «اللَّهُ
سَمَّاكَ لِي» فَجَعَلَ أَبِي يَبْكِي، قَالَ قَتَادَةُ: فَأُنْبِتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [البينة: ١]

قال النووي: وفي الحديث فوائد كثيرة:

منها استحباب قراءة القرآن على الحذاق فيه وأهل العلم به والفضل وإن
كان القارئ أفضل من المقروء عليه.

ومنها المنقبة الشريفة لأبي بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم عليه ولا يعلم أحد من الناس
شاركه في هذا.

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ١٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ١٨٤).

ومنها منقبة أخرى له بذكر الله تعالى له ونصه عليه في هذه المنزلة الرفيعة ومنها البكاء للسرور والفرح مما يبشر الإنسان به ويعطاه من معالي الأمور (١).

وقال ابن هبيرة: في هذا الحديث ما يدل على أنه لا يجوز أن يتكبر كبير أن يقرأ على صغير، ولأن سماع القرآن عبادة؛ كما في القراءة له، ويجوز أن يكون مراد الله عز وجل من قراءة النبي ﷺ على أبي أن يعلمه كيف يقرأ؛ ولهذا جاء في نطق له: قرأ عليه (٢).

٤- وروى مسلم رحمه الله: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿ رَبِّ إِنِّهِنَّ أَصْلَافٌ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِن تَعَدَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تَعَفَّرْتَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلِّهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَاتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: " يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ " (٣).

قال النووي: الحديث مشتمل على أنواع من الفوائد منها:

بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته واعتناؤه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (٦/٨٦).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح، (٥/١٨١).

(٣) مسلم، (٢٠٢).

ومنها استحباب رفع اليدين في الدعاء.

ومنها البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله تعالى شرفا بما وعدّها الله تعالى بقوله سنرضيك في أمّتك ولا نسوءك.

ومنها بيان عظم منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ والحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ إظهار شرف النبي ﷺ وأنه بالمحل الأعلى فيسترضى ويكرم بما يرضيه والله أعلم.

وهذا الحديث موافق لقول الله عز وجل ولسوف يعطيك ربك فترضى، وأما قوله تعالى ولا نسوءك فقال صاحب التحرير، هو تأكيد للمعنى أي، لا نحزنك لأن الإرضاء قد يحصل في حق البعض بالعفو عنهم ويدخل الباقي النار فقال تعالى نرضيك ولا ندخل عليك حزنا بل ننجي الجميع والله أعلم (١). وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها.

٥- وروى ابن ماجه عن جَسْرَةَ بِنْتِ دَجَاجَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرٍّ يَقُولُ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَيَّةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يَرُدُّدَهَا، وَالْآيَةُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] (٢).

قال ابن القيم: قراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب (٣). وقال أيضا: وَكَانَ بُكَاءُهُ تَارَةً رَحْمَةً لِلْمَيِّتِ، وَتَارَةً خَوْفًا عَلَى أُمَّتِهِ وَشَفَقَةً

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (٣/٧٩).

(٢) ابن ماجه (١٣٥٠) وصححه الحاكم (١/٣٦٧)، ووافقه الذهبي.

(٣) مفتاح دار السعادة، (١/١٨٧).

عَلَيْهَا، وَتَارَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَتَارَةً عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ وَهُوَ بُكَاءُ اشْتِيَاقٍ وَمَحَبَّةٍ وَإِجْلَالٍ مُصَاحِبٍ لِلْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ (١).

ثالثاً: تأثير القرآن الكريم على القلوب من آثار السلف.

١- روى أبو نعيم عن الأعمش، عن أبي صالح: لَمَّا قَدِمَ أَهْلُ الْيَمَنِ زَمَانَ أَبِي بَكْرٍ وَسَمِعُوا الْقُرْآنَ جَعَلُوا يَبْكُونَ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «هَكَذَا كُنَّا ثُمَّ قَسَتِ الْقُلُوبُ» (٢).

٢- وقال عبيد بن عمير: صلى بنا عمر صلاة الفجر فقرأ سورة يوسف حتى إذا بلغ: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٨٤﴾ [يوسف: ٨٤] بكى حتى انقطع فرقع (٣).

قال ابن بطال: وكره السلف الصعق والغشى عند قراءة القرآن.

ذكر أبو عبيد بإسناده عن أبي حازم قال: مرَّ ابْنُ عُمَرَ بِرَجُلٍ سَاقِطٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَقَالَ: مَا شَأْنُهُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ يُصِيبُهُ هَذَا قَالَ: إِنَّا لَنَخْشَى اللَّهَ وَمَا نَسْقُطُ " (٤).

وعن عكرمة قال: سئلت أسماء: هل كان أحد من السلف يغشى عليه من القراءة؟ فقالت: لا، ولكنهم كانوا يبكون (٥).

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، (١/١٧٦).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (١/٣٣).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٢٨١).

(٤) الزهد لأحمد (١٠٧٧).

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد، (٨/٢٥٣).

وقال هشام بن حسان: سئلت عائشة عمن يصعق عند قراءة القرآن فقالت:
القرآن أكرم من أن تنزف عنه عقول الرجال، ولكنه كما قال الله: ﴿ تَفَشَّعُ مِنْهُ
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلْبِيسٌ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣] (١).



(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال (١٠/٢٨٣).

المبحث الثالث عشر أهمية حضور القلب في الصلاة.

الخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضرا لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبا بين يدي ربه، مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتتنفي بذلك الوسوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها^(١).

لذا أمر الله تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعها فيها ما يلزم فيها، وما يسن، وحصل فيها حضور القلب، الذي هو لبها فصار العبد إذا دخل فيها، استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه، موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضرا لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقا بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه، ووصفا، وداعيا يدعوه إلى امثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه، هذه

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٥٤٧).

هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء (١).

ولذا نهى الشارع عن إتيان الصلاة بالشواغل، فمن الشواغل:

١- ما رواه مسلم عن النبي ﷺ قال: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبِثَانِ» (٢).

أي لا يصلي أحد بحضرة طعام (ولا وهو يدافعه الأخبثان) بمثلثة، البول والغائط فتكره الصلاة تنزيها بحضرة طعام يتوق إليه وبمدافعة الأخبثين أي أو أحدهما لما في ذلك من اشتغال القلب به وذهاب كمال الخشوع فيؤخر ليأكل ويفرغ نفسه وفيه تقديم فضيلة حضور القلب على فضيلة أول الوقت (٣).

وقال العثيمين: من فوائده: أنه يقاس على الطعام إذا حضر كل ما يشتغل به القلب، والقياس حينئذ صحيح، قياس مماثل أو قياس مساواة، وعلى هذا فإذا كان الإنسان ليس عليه إلا ثياب قليلة، واشتد عليه البرد وقد سمع إقامة الصلاة فهل يذهب ويصلي مع اشتغال قلبه وتألمه من البرد، أو نقول: البس ثم صل؟ الثاني: وكذلك لو كان حر مزعج يحتاج إلى أن يغتسل حتى ينشط ويزول عنه الحر، فنقول كذلك يعذر فنأخذه قاعدة عامة: "كل مشغل عن حضور القلب في الصلاة فإنه يبدأ به قبل الصلاة ما لم يخش خروج الوقت" (٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٧٤).

(٢) رواه مسلم، (٥٦٠).

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٦/٤٣٠).

(٤) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، (١/٥٧٧)، للشيخ محمد بن صالح العثيمين تحقيق وتعليق: صبحي بن محمد رمضان، وأم إسراء بنت عرفة بيومي.

٢- ومن الشواغل ما رواه الشيخان عن عائشة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي حَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ، فَقَالَ: «سَغَلَّتْنِي أَعْلَامٌ هَذِهِ، أَذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأَتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ»

فقوله ﷺ "سغلتني أعلام هذه" وفي الرواية الأخرى "ألهتني" وفي رواية للبخاري "فأخاف أن تفتني" معنى هذه الألفاظ متقارب وهو: اشتغال القلب بها عن كمال الحضور في الصلاة وتدبر أذكراها وتلاوتها ومقاصدها من الانقياد والخضوع

ففي هذا الحديث: الحث على حضور القلب في الصلاة وتدبر ما ذكرناه، ومنع النظر من الامتداد إلى ما يشغل، وإزالة ما يخاف اشتغال القلب به وكرهية تزويق محراب المسجد وحائطه ونقشه، وغير ذلك من الشاغلات لأن النبي ﷺ جعل العلة في إزالة الخميصة هذا المعنى (١).

قال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: على الإنسان أن يحرص على الخشوع في الصلاة، حضور القلب؛ لأنه إذا حضر قلبه استفاد فائدة عظيمة من صلاته سوف يتأثر إذا انتهى من الصلاة تأثراً بالغاً، لكن إذا دخل فيها ثم من وقت ما يدخل ينفذ له بعض الوسوس التي كان قبل الدخول غافلاً عنها، ولم تطراً على باله فإنه سيخرج من الصلاة بدون أن يتأثر القلب، وسيبقى دائماً على هذا الحال، لكن لو عالج نفسه، وصار كلما اتجهت إلى شيء ردها واستحضر ما يقول ويفعل وهو في عراك معها، مسألة ليست هينة، لكن إذا عود نفسه مرة بعد أخرى، ومرة

(١) شرح النووي على مسلم، (٥/٤٤).

يستحضر نصف الصلاة، ومرة أقل ومرة أكثر وعود نفسه؛ سهل عليه، أما أن يستمر ويغفل عن هذا فإنه لن يستفيد كثيرا من صلاته إلا إبراء الذمة فقط (١).

وقال ابن القيم: والمقصود أنه قيح بالعبء أن يقول بلسانه الله أكبر وقد امتلأ قلبه بغير الله فهو قبلة قلبه في الصلاة ولعله لا يحضر بين يدي ربه في شيء منها فلو قضى حق الله أكبر وأتى البيت من بابه لدخل وانصرف بأنواع التحف والخيرات فهذا الباب الذي يدخل منه المصلي وهو التحريم

وأما الباب الذي يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماء الحسنى فيكون مفتتحا لصلاته باسمه تبارك وتعالى ومختتما لها باسمه فيكون ذاكرا لاسم ربه أول الصلاة وآخرها فأولها باسمه وآخرها باسمه فدخل فيها باسمه وخرج منها باسمه مع ما في اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المصلي من بين يدي الله تعالى فإن المصلي ما دام في صلاته بين يدي ربه فهو في حماه الذي لا يستطيع أحد أن يخفّره بل هو في حمى من جميع الآفات والشور فإذا انصرف من بين يديه تبارك وتعالى ابتدرته الآفات والبلايا والمحن وتعرضت له من كل جانب وجاءه الشيطان بمصائده وجنده فهو متعرض لأنواع البلايا والمحن فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوبا بالسلام لم يزل عليه حافظ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى وكان من تمام النعمة عليه أن يكون انصرافه من بين يدي ربه بسلام يستصعبه ويدوم له ويبقى معه

فتدبر هذا السر الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره لكان كافيا فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان والحمد في ذلك لله وحده فكما

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، (١/٥٧٣).

أن المنعم به هو الله وحده فالمحمود عليه هو الله وحده (١).

وَتَعْطِيلُ الْقَلْبِ عَنْ عُبُودِيَّةِ الْحُضُورِ وَالْخُشُوعِ: تَعْطِيلٌ لِمَلِكِ الْأَعْضَاءِ عَنْ عُبُودِيَّتِهِ، وَعَزْلٌ لَهُ عَنْهَا، فَمَاذَا تُغْنِي طَاعَةَ الرَّعِيَّةِ وَعُبُودِيَّتَهَا، وَقَدْ عَزَلَ مَلِكُهَا وَتَعْطَلَّ؟.

وَالْأَعْضَاءُ تَابِعَةٌ لِلْقَلْبِ، تَصْلُحُ بِصَلَاحِهِ، وَتَفْسُدُ بِفَسَادِهِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ قَائِمًا بِعُبُودِيَّتِهِ، فَالْأَعْضَاءُ أَوْلَى أَنْ لَا يُعْتَدَّ بِعُبُودِيَّتِهَا، وَإِذَا فَسَدَتْ عُبُودِيَّتُهُ بِالْغَفْلَةِ وَالْوَسْوَاسِ فَأَنْتَى تَصِحُّ عُبُودِيَّةُ رَعِيَّتِهِ وَجُنْدِهِ وَمَادَّتُهُمْ مِنْهُ، وَعَنْ أَمْرِهِ يُصْدِرُونَ، وَبِهِ يَأْتِمِرُونَ؟.

لذا كان من فوائد (الصلاة):

- ١ - حضور القلب واستشعار عظمة الله في الصلاة.
- ٢ - إذا حضر المصلي قلبه في صلاته، فإنه يخرج من صلاته وقد غفرت خطاياهم.
- ٣ - الدنيا سجن المؤمن يشعر فيها بالضيق، إذا دخل في الصلاة وجدها قرّة عينيه ونعيم روحه وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا.
- ٤ - الصلاة صلة بين العبد وربّه، وتذكّر العبد بدوام مراقبته لله - عزّ وجلّ - فيحسن باطنه كما يحسن ظاهره (٢).

(١) بدائع الفوائد - ابن القيم الجوزية، (٢/٤٢٣).

(٢) العبادة في الإسلام للشيخ القرضاوي، رَحِمَهُ اللهُ، (٢٢١).

قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ اللهُ: والمقصود أن الواصل إلى الله سبحانه وتعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة، فلا بد من حضور القلب في الصلاة، ولكن سامح الشارع في غفلة تطراً لأن حضور القلب في أولها ينسحب حكمه على باقيها (١).

وقال ابن قدامة أيضاً: المعاني التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة:

المعنى الأول: حضور القلب كما ذكرنا، ومعناه أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له، وسبب ذلك الهمة، فإنه متى أهملك أمر حضر قلبك ضرورة فلا علاج لإحضاره إلا صرف الهمة إلى الصلاة، وانصراف الهمة يقوى ويضعف بحسب قوة الإيمان بالآخرة واحتقار الدنيا، فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة، فاعلم أن سببه ضعف الإيمان، فاجتهد في تقويته.

والمعنى الثاني: التفهم لمعنى الكلام فإنه أمر وراء حضور القلب، لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى، فينبغي صرف الذهن إلى إدراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع موادها، فإن المواد إذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها.

المعنى الثالث: التعظيم لله والهيبة، وذلك يتولد من شيئين: معرفة جلال الله تعالى وعظمته، ومعرفة حقارة النفس وأنها مستعبدة، فيتولد من المعرفتين: الاستكانة، والخشوع.

وينبغي للمصلي أن يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة، فإذا سمع نداء

(١) مُخْتَصَرٌ مِنْهَا جِ الْقَاصِدِينَ، (٢٩).

المؤذن فليمثل النداء للقيامه ويشمر للجابة، ولينظر ماذا يجيب، وبأي بدن يحضر. وإذا ستر عورته فليعلم أن المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق، فليذكر عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها إلا الخالق، وليس لها عنه ساتر، وأنها يكفرها الندم، والحياء، والخوف.

وإذا استقبل القبلة فقد صرف وجهه عن الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، فصرف قلبه إلى الله تعالى أولى من ذلك، فكما أنه لا يتوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، كذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه.

إذا كبرت أيها المصلي، فلا يكذب قلبك لسانك، لأنه إذا كان في قلبك أكبر من الله تعالى قد كذبت، فاحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إثارك موافقتة على طاعة الله تعالى.

فإذا استعدت، فاعلم أن الاستعاذة هي لجأ إلى الله سبحانه، فإذا لم تلجأ بقلبك كان كلامك لغواً، وتفهم معنى ما تتلو، وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، واستحضر لطفه عند قولك: ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾، وعظمته عند قولك: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾، وكذلك في جميع ما تتلو.

وقد روينا عن زرارة بن أبي أوفى رضى الله عنه أنه قرأ في صلاته: ﴿ فَإِذَا قُرَءَ فِي التَّأْوُرِ ﴾ [المدثر: ٨] فخر ميتاً، وما ذاك إلا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلف.

واستشعر في ركوعك التواضع، وفي سجودك الذل، لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذى خلقت منه.

واعلم: أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدأ، وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود، وتطلع على أسراره وما يعقلها إلا العالمون (١).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَرَوَى عَنْهُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَنَّهُ مَرَّ بِأَبِي هُرَيْرَةَ، وَهُوَ مُنْبَطِحٌ عَلَى بَطْنِهِ، فَقَالَ لَهُ: "اشْكَبْ دَرْدًا" (٢) قَالَ: نَعَمْ قَالَ: "قُمْ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ شِفَاءٌ"، وَمَعْنَاهُ: أَيُوجِعُكَ بَطْنُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَدْ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ وَيَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَا حَدَّثَنَا ابْنُ عَلِيَّةَ، حَدَّثَنَا عُمَيْرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ نَعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ قَتْمٌ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ، فَأَنَاحَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ أَطَالَ فِيهِمَا الْجُلُوسَ، ثُمَّ قَامَ يَمْشِي إِلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٣).

وَقَالَ سُنَيْدٌ، عَنْ حَجَّاجٍ، عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قَالَ: إِنَّهُمَا مَعُونَتَانِ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ.

قال السعدي: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع، وخشية الله، ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشرحاً صدره لترقبه للثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له يدعوها إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه (٣).

(١) مُخْتَصَرٌ مِنْهَاجِ الْقَاصِدِينَ، (٣٢).

(٢) تفسير الطبري، (١٣/١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٥١).

وقال المروزي: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وَهُمْ
 الْمُنْكَسِرَةُ قُلُوبُهُمْ إِجْلَالًا لِلَّهِ، وَرَهْبَةً مِنْهُ، فَشَهِدَ لِمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ أَنْ يُقِيمَهَا لَهُ،
 إِنَّهُ مِنَ الْخَاشِعِينَ، وَكَيْفَ لَا يَفْزَعُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهِيَ عِمَادُ دِينِهِمْ (١).





المبحث الرابع عشر

فوائد ومزايا الخشوع في الصلاة.

لا تحقق العبادة لله سبحانه وتعالى إلا بالخشوع وهذا يسهل العبادة على العبد؛ فكل من كان لله أشع كان لله أطوع؛ لأن الخشوع خشوع القلب؛ والإحبات إلى الله تعالى، والإنابة إليه تدعو إلى طاعته (١).

*فمن فوائد الخشوع: أنه يخفف أمر الصلاة على العبد، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥) والمعنى: أي مشقة الصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين (٢).

*ومن فوائد الخشوع: يجعل للعبد نورا في وجهه يوم القيامة

أخرج الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالصَّغِيرِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي بِن كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَنْرِ السُّجُودِ﴾ قَالَ: النُّورُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٣).

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُبَارَكِ وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ نَصْرِ عَنْ مُجَاهِدٍ

(١) تفسير العلامة محمد العثيمين، (٣/ ١١٤) بتصرف يسير.

(٢) تفسير ابن كثير، (١/ ١٢٥).

(٣) الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، (٤٤٦٤) وَالصَّغِيرِ (٦١٩)، وانظر الدر المنثور (٧/ ٥٤٢).

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ قَالَ: الخُشُوعُ والتواضع (١).

*ومن فوائد الخشوع: أنه يوصل العبد إلى منزلة الإحسان.

فمن استشعر هذا في صلاته قرب الله منه، وأنه بمرأى منه ومسمع، وانه مناج له وانه يسمع كلامه ويرد عليه جواب مناجاته له (٢)، أوجب له ذلك حضور قلبه بين يدي ربه، وخشوعه له، وتأدبه في وقوفه بين يديه، فلا يلتفت إلى غيره بقلبه ولا ببدنه، ولا يعبت وهو واقف بين يديه، ولا يبصق أمامه، فيصير في عبادته في مقام الإحسان، يعبد الله كأنه يراه، كما فسر النبي ﷺ الإحسان بذلك في سؤال جبريل - عليه السلام - له

*الخشوع يجعل العبد في منزلة أرجى للإجابة بالدعاء عند الرقة يصدر عن القلب حالة رغبة ورهبة فتسرع الإجابة قال تعالى ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي عن قلب راغب راهب خاشع ﴿وَكُنُوزًا لَنَا خَشِيعَاتٍ﴾ (٣).

ورد في الأثر " اغتَنِمُوا الدُّعَاءَ عِنْدَ الرُّقَّةِ فَإِنَّهَا رَحْمَةٌ " (٤).

* ومن فوائد الخشوع أنه يوصل العبد للربِّ العبودية

فالخشوع أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه - عز وجل -؛ حيث جعل العبد

(١) جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢/٢٦٤)، والدر المشثور (٧/٥٤٢).

(٢) كما عند مسلم، (٣٩٥) " قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي... الحديث.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٢/١٦).

(٤) انظر حديث رقم: ٩٧٩ في ضعيف الجامع.

أشرف ما له من الأعضاء، وأعزها عليه، وأعلاها حقيقةً، أوضع ما يمكنه، فيضعه في التراب متعفراً، ويتبع ذلك انكسار القلب، وتواضعه، وخشوعه لله - عز وجل -.

ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك: أن يقربه الله إليه، فإن «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»، (١)، وقال الله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]؛ ولهذا كان يأنف منه المشركون المستكبرون عن عبادة الله - عز وجل -، وكان يقول بعضهم: أكره أن أسجد، فتعلوني استي؛ فكأن العبد المؤمن يقول - حال سجوده -: العز والكبرياء، والعظمة والتقديس وصفك، والذل والانكسار، والتواضع والافتقار وصفي (٢).

*ومن فوائده أنه نجاة من عتاب الله.

روى مسلم عن عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ، قَالَ: " مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ " (٣).

وأخرج أَبُو يَعْلَى وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الْآيَةِ أَقْبَلَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ أَي شَيْءٍ أَحَدُنَا أَي شَيْءٍ صَنَعْنَا (٤).

(١) رواه مسلم (٤٨٢).

(٢) كشف اللثام شرح عمدة الأحكام للسفاريني، (٣٥٦/٢).

(٣) رواه مسلم، (٣٠٢٧).

(٤) الدرر المشهور، (٥٨/٨).

وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنَ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُهَاجِرِينَ فَعَاتَبَهُمْ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ فَقَالَ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ ﴾ الْآيَةُ (١).

وَأَخْرَجَ ابْنَ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمُصَنَّفِ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَادٍ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ ظَهَرَتْ مِنْهُمْ الْمَزَاحُ وَالضَّحْكَ فَنَزَلَتْ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الْآيَةُ (٢).

وَأَخْرَجَ ابْنَ الْمُبَارَكِ وَعَبْدَ الرَّزَّاقِ وَابْنَ الْمُنْذِرِ عَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَصَابُوا مِنْ لَيْنِ الْعَيْشِ مَا أَصَابُوا بَعْدَ مَا كَانَ بِهِمْ مِنَ الْجَهْدِ فَكَانَهُمْ فِتْرًا عَنْ بَعْضِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فَعُوتِبُوا فَنَزَلَتْ ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الْآيَةُ (٣).

فَالْآيَةُ بَيَّنَّتْ أَنَّ الْخُشُوعَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ عِتَابًا وَتَوْبِيخًا؛ لِإِخْلَالِهِمْ، وَبُعْدِهِمْ عَنِ مَقْتَضَى إِيْمَانِهِمْ، فَفِيهِ أَنَّ الذَّمَّ جَاءَهُمْ بِبُعْدِهِمْ عَنْ صِفَاتِهِمُ الَّتِي تَلِيْقُ بِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ (٤).

*وَمِنْ فَوَائِدِهِ أَنَّهُ سَبَبٌ لِتَكْفِيرِ الذُّنُوبِ.

فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا مِنْ

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، (٢/٤٦٩).

(٢) الدر المشور، (٨/٥٨).

(٣) الدر المشور، (٨/٥٨).

(٤) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (٤٥/٤٢٩).

أَمْرِي مُسْلِمٌ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وَضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١).

قوله: (وَخُشُوعَهَا): بِإِتْيَانِ كُلِّ رُكْنٍ عَلَى وَجْهِ هُوَ أَكْثَرُ تَوَاضَعًا وَإِخْبَاتًا، أَوْ خُشُوعَهَا خَشْيَةُ الْقَلْبِ وَالزَّامُ الْبَصَرِ مَوْضِعَ السُّجُودِ، وَجَمْعُ الْهَمَّةِ لَهَا وَالْإِعْرَاضُ عَمَّا سِوَاهَا وَمِنَ الْخُشُوعِ أَنْ يَتَوَقَّى كَفَّ الثُّوبِ وَالِإِلْتِفَاتِ وَالْعَبَثِ وَالتَّثَاؤُبِ وَالتَّغْمِيضِ وَنَحْوَهَا (٢).

قال ابن رجب (٣): فانظر إلى كم تُيسر لك أسباب تكفير الخطايا لعلك تطهر منها قبل الموت فتلقاه طاهراً، فتصلح لمجاورته في دار السلام فما كل أحد يصلح لمجاورة الله تعالى غداً، ولا كل أحد يصلح لمناجاة الله اليوم، ولا على كل الحالات تحسن المناجاة:

النَّاسُ مِنَ الْهَوَى عَلَى أَصْنَافٍ هَذَا نَقَضَ الْعَهْدَ وَهَذَا وَافِيَ
هِيَاتٍ مِنَ الْكُدُورِ تَبْغِي الصَّافِي مَا يَصْلِحُ لِلْحَضْرَةِ قَلْبٌ جَافِي
* ومن فوائده أن العبد يكتب له من صلاته بحسب خشوعه.

روى أبو داود والنسائي في الكبرى وغيره من حديث عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ

(١) صحيح الإمام مسلم، (٢٢٨).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (١/٣٤٦).

(٣) شرح حديث اختصاص الملائكة الأعلى، (١٧).

تُسَعُّهَا ثَمَنُهَا سُبْعُهَا سُدُسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا» (١).

قال الصنعاني: فيه مأخذ أن أقل الناس من يكتب له نصفها لأنه آخره عن الأجزاء كلها وأن الأكثر من يكتب له عشرها كما يقتضيه تقديمه وإرشاد إلى أنه ينبغي للعبد أن يبالي في صيانة صلاته عن موجب نقصانها (٢).

وقال العراقي: واستدل على عدم وجوب الخشوع بهذا الحديث إذ لم يأمرهم بالإعادة (٣).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْأَمَانَةُ، وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْ دِينِهِمُ الصَّلَاةُ، وَرَبُّ مُصَلٍّ لَا خَلْقَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ». وفي رواية «وَرَبُّ مُصَلٍّ لَا خَيْرَ فِيهِ» (٤).

(ورب مصل) آت بصورة الصلاة (لا خلاق له عند الله) أي لا نصيب له عنده من قبولها والإثابة عليها وفي رواية ورب مصل لا خير فيه أي لكونه غافلاً لا هي القلب وليس للمرء من صلاته إلا ما عقل كما في حديث آخر وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١١٥﴾ فظاهر الأمر الوجوب والغفلة ضده فمن غفل في جميع صلاته لا يكون مقيماً للصلاة لذكره تعالى فلا خلاق له عنده

(١) أبو داود، (٧٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦١٥)، صحيح أبي داود ٧٦١.

(٢) التَّنْوِيرُ شَرْحُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ (٣/٤٥٣)..

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب (٢/٣٧٢).

(٤) قال الهيثمي (٧/٣٢١): رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ، (٣٨٧)، وَفِيهِ حَكِيمٌ بْنُ نَافِعٍ، وَثَقَّهُ ابْنُ مَعِينٍ وَصَعَّفَهُ أَبُو زُرْعَةَ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ. وانظر صحيح الجامع: ٢٥٧٥. فقد عزاه للحكيم الترمذي.

فافهم (١). وقد روى ابن المبارك في الزهد عن عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ قَالَ: «لَا يُكْتَبُ لِلرَّجُلِ مِنْ صَلَاتِهِ مَا سَهَا عَنْهُ» (٢).

وفي النونية لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، من [الكامل] (٣).

وَتَفَاضُلِ الْأَعْمَالِ يَتَّبِعُ مَا يَقْوُ مُبْقَلِبِ صَاحِبِهَا مِنَ الْبُرْهَانِ
حَتَّى يَكُونَ الْعَامِلَانِ كِلَاهُمَا فِي رُتَبَةٍ تَبْدُو لَنَا بَعِيَانِ
هَذَا وَيَبْنِيهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي فَضْلِ وَفِي رُجْحَانِ
وَيَكُونُ بَيْنَ ثَوَابِ ذَا وَثَوَابِ ذَا رُتَبٌ مُضَاعَفَةٌ بِمَا حُسْبَانِ
هَذَا عَطَاءُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وَبِذَاكَ تُعْرَفُ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ

فَالْمَدَارُ عَلَى أَعْمَالِ الْقُلُوبِ فَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ حَاضِرًا وَمُلِقَ سَمْعَهُ لِمَا يَسْمَعُ
وَلِمَا يَنْطِقُ هُوَ بِهِ مِنْ قِرَاءَةٍ وَتَكْبِيرٍ وَتَسْبِيحٍ وَقَوْلٍ: رَبِّي اغْفِرْ لِي، وَقَوْلٍ: سَمِعَ اللهُ
لِمَنْ حَمِدَهُ، وَمَعَانِي الْفَاتِحَةِ وَالتَّحِيَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَأَمَّا الْغَافِلُ الَّذِي
لَا يَتَدَبَّرُ وَلَا يَتَفَهَّمُ وَيَعْبَثُ وَلَا يَهْتَمُّ لَهَا فَهَذَا مَحْضُولُهُ ضَيِّلٌ جَدًّا أَوْ مَعْدُومٌ.

وبالتالي فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا مَرَنَ نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ عَلَى التَّفْهَمِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّخْشُوعِ
وَالتَّخْضُوعِ فِي الصَّلَاةِ انْغَرَسَتْ فِي قَلْبِهِ خَشْيَةُ اللهِ وَمَحَبَّتُهُ وَالرَّغْبَةُ فِيهِمَا لَدَيْهِ
وَحَضْرَتُهُ هَيْبَةً خَالِقَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَفِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ.

فَإِذَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَمْرًا أَوْ زَيْنَ لَهُ الشَّيْطَانُ سَوْءًا تَبَرَّأَ مِنْهُمَا قَائِلًا إِنِّي أَخَافُ

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٣/٨٧).

(٢) الزهد والرفائق لابن المبارك (١٣٠٠).

(٣) مجموعة القصائد الزهديات لعبد العزيز السلطان رَحِمَهُ اللهُ، (١/٤٥-٤٦).

الله رب العالمين فكن في صلاتك خاشعًا خاضعًا مخبتًا.

فإذا قُلْتُ اللهُ أكبر فاستحضر عظمة الله وأنه لا شيء أكبر منه ولا شيء أعظم منه وأنه مستحق لأن يعظم ويجل ويقدر وأنه ليس أحد يساويه أو يدانيه في عظمته.

وإذا قُلْتُ الحمد لله رب العالمين فاستحضر أنه المستحق للثناء وأنه المرابي لجميع الخلق التربية العامة والمرابي لخواص خلقه التربية الخاصة، وهي تربية القلوب على العقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة.

وَإِذَا قُلْتُ الرحمن الرحيم استحضرت لرحمته العامة والخاصة راجيًا منه أن يجعلك ممن كتبها لهم فإذا قُلْتُ مالك يوم الدين مجدته واستحضرت لوقوفك بين يديه وهو أحكم الحاكمين.

فإذا قُلْتُ إياك نعبد وإياك نستعين استحضرت أنك تخصه وحده بالعبادة

والاستعانة، المعنى نعبدك ولا نعبد غيرك ونستعين بك ولا نستعين بغيرك.

فإذا قُلْتُ اهدنا الصراط المستقيم استحضرت أنك تتضرع إليه وتساله أن يبدلك ويرشدك ويوفقك إلى سلوك الصراط المستقيم وأن يثبتك عليه فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على العبد أن يدعو به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك وهذا الصراط هو صراط المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، وافعل في باقي صلاتك كما فعلت في أولها من التدبر والتفهم محضرًا قلبك لمعاني ما تقوله وما تسمعه حتى تكتب لك كاملة.

إن من حافظ على الصلوات في أوقاتها وواظب على الجُمُعة والجماعات وأداها تأدية تامة بخشوع وخضوع، استنار قلبه وقويت الصلة بينه وبين ربه، وتهذبت نفسه وحسنت مع الله والناس معاملته،

وحيل بينه وبين المحرمات وكان على البؤساء عطوفاً وبالضعفاء رحيماً، وأفلح في دينه وكان من المحبوبين عند الله وعند خلقه.

فليحذر المسلم أن يستهين بالصلاة وأن لا يهتم لها، فإن هذه صفة الذين خلت صلاتهم من التذلل والخشوع كما ترونهم يسرعون في أدائها وهم عنها غافلون لا يعرفون لها معنى ولا يعقلون لها سرّاً ولم تشعر قلوبهم بحلاوتها ولا بلذة المناجات قد ملكتهم الوسوس، وامتلات قلوبهم بشواغل الدنيا ولذاتها، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ عَمِيَتْ بَصَائِرُهُمْ، وَتَحَجَّرَتْ ضَمَائِرُهُمْ، فَأَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، وَأَهْمَلُوا أَمْرَ بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَغَفَلُوا عَنْ وَاجِبِ شُكْرِهِ وَلَمْ يَخَافُوا سَطْوَةَ جَبْرُوتِهِ وَبَطْشَهُ، وَلَا سُوءَ الْحِسَابِ، وَلَا نَارَ الْعَذَابِ ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَّوهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾، ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

ورحم الله القائل من [الكامل] (١):

لِللَّهِ دَرُّ السَّيِّئَةِ الْعَبَّادِ فِي كُلِّ كَهْفٍ قَدْ ثَوَّأُوا أَوْ وَاوَدِي
أَلْوَانُهُمْ تُنْبِئُكَ عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَدُمُوعُهُمْ عَنْ حُرْقَةِ الْأَكْبَادِ

(١) سلاح اليقظان لطرده الشيطان، للشيخ عبد العزيز السلطان رَحِمَهُ اللهُ، (١٤٩).

كَتَمُوا الضَّنَى حِفْظًا لَهُمْ وَتَحَمَّلُوا
هَجَرُوا الْمَرَاقِدَ فِي الظَّلَامِ لِرَبِّهِمْ
لَا يَفْتُرُونَ إِذَا الدُّجَى وَافَاهُمُوا
وَرَأَوْا عِلَامَاتِ الرَّحِيلِ فَبَادِرُوا
فَإِذَا اسْتَمَالَ قُلُوبَهُمْ دَاعِي الْهُوَى
نَظَرُوا إِلَى الدُّنْيَا تَغَرُّبًا بِأَهْلِهَا
فَتَجَنَّبُوهَا عِفَّةً وَتَزَهَّدًا
وَمَضُوا عَلَى مِنْهَاجِ صَحْبِ نَبِيِّهِمْ

* ومن فوائده أنه بتمام الخشوع تساقط كل الذنوب.

أخرج المروزي عن جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، رَأَى فَتًى وَهُوَ يُصَلِّي
وَقَدْ أَطَالَ صَلَاتَهُ وَأَطْنَبَ فِيهَا فَقَالَ: مَنْ يَعْرِفُ هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، فَقَالَ عَبْدُ
اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ لَأَمَرْتُهُ أَنْ يُطِيلَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي أُتِيَ بِذُنُوبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَى رَأْسِهِ
وَعَانِيَتِهِ، فَكُلَّمَا رَكَعَ أَوْ سَجَدَ تَسَاقَطَتْ عَنْهُ » (١).

قال المناوي: (فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه) حتى لا يبقى عليه ذنب
وذكر الركوع والسجود ليس للاختصاص بل لتحقيقا لوجه التشبيه فإن من وضع
شيء على رأسه لا يستقر إلا ما دام منتصباً فإذا انحنى تساقط فالمراد أنه كلما

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة، (٢٩٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٩٩)، والبيهقي في
سننه (٣/١٦)، انظر الصحيحة للألباني، (١٣٩٨).

أتم ركنا من الصلاة سقط عنه ركن من الذنوب حتى إذا أتمها تكامل السقوط وهذا في صلاة متوفرة الشروط والأركان والخشوع كما يؤذن به لفظ العبد والقيام إذ هو إشارة إلى أنه قام بين يدي ملك الملوك مقام عبد حقير ذليل ومن لم يكن كذلك فصلاته التي هي أعظم الطاعات أعظم إبعادا له عن الله من الكبائر^(١).

* ومن فوائده أنه يهون الصلاة على العبد ويرزقه اليقين بقاء ربه.

قال تعالى ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦].

قال ابن كثير: وَإِنَّ الصَّلَاةَ لِثَقِيلَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ، أَي: يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُحْشُورُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعْرُوضُونَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، أَي: أُمُورُهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ، يَحْكُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلِهَذَا لَمَّا أَيقَنُوا بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ سَهَّلَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ الطَّاعَاتِ وَتَرَكَ الْمُنْكَرَاتِ (٢).

قال ابن جرير: وَقَدْ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ وَيَعْقُوبُ بْنُ إِبرَاهِيمَ، قَالَا حَدَّثَنَا ابْنُ عَلِيَّةَ، حَدَّثَنَا عِيْنَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ نُعِيَ إِلَيْهِ أَخُوهُ قَتْمٌ وَهُوَ فِي سَفَرٍ، فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ تَنَحَّى عَنِ الطَّرِيقِ، فَأَنَاحَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ أَطَالَ فِيهِمَا الْجُلُوسَ، ثُمَّ قَامَ يَمْشِي إِلَى رَاحِلَتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ (٣).

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٢/٣٦٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (١/٢٥٤).

(٣) تفسير الطبري، (١/١٤).

وَعَنْ حُدَيْفَةَ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ، صَلَّى»

أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ حَسَنٍ (١).

وَأَخْرَجَ البَيْهَقِيُّ فِي شَعْبِ الإِيمَانِ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ عِبَادَةَ الوَفَاةَ قَالَ: أُحْرَجُ عَلَى إِنْسَانٍ مِنْكُمْ يَبْكِي، فَإِذَا أُخْرِجَتْ نَفْسِي فَتَوَضَّأُوا وَأَحْسِنُوا الوُضُوءَ، ثُمَّ لِيَدْخُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَسْجِدًا فَيُصَلِّي ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ لِعِبَادَةِ وَلِنَفْسِهِ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ثُمَّ أَسْرِعُوا بِي إِلَى حُفْرَتِي (٢).

وَأَخْرَجَ المَرْوَزِيُّ وَالبَيْهَقِيُّ فِي الشَّعْبِ مِنْ طَرِيقِ مَعْمَرِ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ أُمِّهِ أُمِّ كَلْثُومِ بِنْتِ عُقْبَةَ، وَكَانَتْ مِنَ المُهَاجِرَاتِ الأُولَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، قَالَتْ: غُشِيَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَشِيَّةً، فَظَنُّوا أَنَّهُ فَاضَ حَتَّى أَنَّهُ أَفَاضَ نَفْسَهُ فِيهَا، فَخَرَجَتْ امْرَأَتُهُ أُمُّ كَلْثُومٍ إِلَى المَسْجِدِ تَسْتَعِينُ بِمَا أَمَرَتْ بِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَلَمَّا أَفَاقَ، قَالَ: "أُغْشِيَ عَلَيَّ أَنْفًا؟" قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: "صَدَقْتُمْ، إِنَّهُ جَاءَنِي مَلَكَانِ فَقَالَا لِي: انْطَلِقْ نُحَاكِمَكَ إِلَى العَزِيزِ الأَمِينِ، فَقَالَ مَلَكَ آخَرَ: أَرْجِعْهُ، فَإِنَّ هَذَا فِي مَنْ كُتِبَتْ لَهُ السَّعَادَةُ، وَهُوَ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ"، وَيَسْتَمْتَعُ بِهِ بَنُوهُ مَا شَاءَ اللهُ، فَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ شَهْرًا ثُمَّ مَاتَ

قَالَ ابْنُ نَصْرِ المَرْوَزِيُّ: وَمَا زَالَ مَفْرَعُ المُؤْمِنِينَ عِنْدَ كُلِّ مُهَمٍّ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا

(١) أَبُو دَاوُدَ، (١٣١٩) وَحَسَنَةُ ابْنِ حَجْرٍ فِي فَتْحِ البَارِي، (٣/١٧٢).

(٢) البَيْهَقِيُّ فِي شَعْبِ الإِيمَانِ، (١٢/١٧٤).

وَالْآخِرَةَ إِلَى مُنَاجَاةِ رَبِّهِمْ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى آدَمَ فَمَنْ دُونَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ (١).

لذا روى أحمد وصححه ابن حبان عن صُهَيْبٍ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَمَسَ شَيْئًا لَا نَفْهَمُهُ، فَقَالَ: «أَفْطَيْتُمْ لِي؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «إِنِّي ذَكَرْتُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أُعْطِيَ جُنُودًا مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ: مَنْ يَقُومُ لَهُؤُلَاءِ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ اخْتَرِ لِقَوْمِكَ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوْ الْجُوعَ، أَوْ الْمَوْتَ، فَاسْتَشَارَ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالُوا: أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ نَكِلُ ذَلِكَ إِلَيْكَ خِرْ لَنَا، فَقَامَ إِلَى صَلَاتِهِ - وَكَانُوا إِذَا فَرَعُوا فَرَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ - فَصَلَّى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أَمَّا عَدُوُّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ وَالْجُوعُ فَلَا، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ، فَسَلِّطَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، فَهَمَسِيَ الَّذِي تَرُونَ أَنِّي أَقُولُ: اللَّهُمَّ بِكَ أُقَاتِلْ، وَبِكَ أُصَاوِلْ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، قال السندي: "وكانوا يفرعون إلخ ..."، أي: وكانوا إذا فرعوا يفرعون إلى الصلاة، أي عادتهم الاشتغال بالصلاة في الشدائد (٢).

* ومن فوائده أنه يحفظ صاحبه عن المنكر.

الصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِتَتَذَكَّرَ عَلَيْهَا وَالْمُنْكَرَ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥]

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله

(١) تعظيم قدر الصلاة، (٢٠٥)، البيهقي في شعب الإيمان، (١٢/ ١٧٥).
(٢) المسند، (٢٣٩٢٧)، وابن حبان، (١٩٧٥)، والصحيححة للألباني، (١٠٦١).

﴿إِتِّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يَقُولُ: فِي الصَّلَاةِ مُتَّهَى وَمَزْدَجْر عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ ﴿إِتِّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قَالَ: «إِنَّ الصَّلَاةَ فِيهَا ثَلَاثُ خِلَالٍ، فَكُلُّ صَلَاةٍ لَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْخِلَالِ فَلَيْسَتْ بِصَلَاةٍ؛ الْإِخْلَاصُ وَالْخَشْيَةُ وَذِكْرُ اللَّهِ، فَلَا إِخْلَاصَ يَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالْخَشْيَةُ تَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَذِكْرُ اللَّهِ الْقُرْآنُ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ» (١).

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبْرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا» (٢).

قال المناوي: (من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر) أي لم يفهم في أثناء صلواته أموراً، تلك الأمور تنهى عن الفحشاء والمنكر (لم يزد) بصلواته (من الله إلا بعداً) لأن صلواته ليست هي المستحق بها الثواب بل هي وبال يترتب عليه العذاب

قال الحرالي: هذه الآفة غالبية على كثير من أبناء الدنيا.

واستدل به الغزالي على أن الخشوع شرط للصلاة، فقال: لأن صلاة الغافل

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، (١٧٣٤٤).

(٢) قال في مجمع الزوائد، (٢/٢٥٨): رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (١١٠٢٥)، وَفِيهِ كَيْتُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ وَهُوَ ثِقَةٌ وَلَكِنَّهُ مُدَلِّسٌ.

وقال المناوي في الفيض، (٦/٢٢١): ورواه علي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح.

لا تمنع من الفحشاء والمنكر.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له: إن فلانا يطيل الصلاة قال: إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها ثم قرأ ﴿إِنِ الصَّلَاةَ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ - وفي رواية «لَا تَنْفَعُ الصَّلَاةُ إِلَّا مَنْ أَطَاعَهَا، ثُمَّ قرأ عبد الله: ﴿إِنِ الصَّلَاةَ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: ذَكَرُ اللَّهِ الْعَبْدَ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ» - وفي رواية «لَا تَنْفَعُ الصَّلَاةُ إِلَّا مَنْ أَطَاعَهَا»^(١). قال البيهقي: يعنني والله أعلم: إنَّ الصَّلَاةَ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ نَفَعَتُهُ الصَّلَاةُ.

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن فلانا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق قال: «إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ»^(٢).

وعن الحسن رضي الله عنه قال: يا ابن آدم إنما الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر فإن لم تنهك صلاتك عن الفحشاء والمنكر فإنك لست تصلي^(٣).
فصورة الصلاة الظاهرة: القيام والقراءة والركوع والسجود ونحو ذلك من وظائف.

(١) ابن أبي شيبة، (٣٤٥٥٤)، وشعب الإيمان للبيهقي (٤/٥٤٥)، وابن أبي حاتم (١٧٣٤٢).
(٢) المسند (٩٧٧٨)، قال في مجمع الزوائد (٢/٢٥٨): رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبَرْزُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ. وانظر الصحيحة للألباني، (٣٤٨٢).
(٣) الدر المشهور للسيوطي، (٦/٤٦٦).

وأما حقيقتها الباطنة فمثل الخشوع والإخبات وحُضورِ القلبِ وكمال الإخلاصِ.

مَنْ لَمْ يَكُنْ مُخْلِصًا لِلَّهِ فِي العَمَلِ فَلَيْسَ يَنْفَعُهُ قَوْلٌ وَلَا عَمَلٌ والتدبر والتفهم لمعاني القراءة ومعاني التسبيح ونحو ذلك من وظائف الصلاة الباطنة.

فظاهر الصلاة حفظ البدن والجوارح وباطن الصلاة حفظ القلب.

ومن المحافظة على الصلاة والإقامة لها كمال الطهارة والاحتياط في البدن والثوب والمكان.

قال عليه الصلاة والسلام: «الطهور شرط الإيمان» وفي الحديث الآخر: «الطهور مفتاح الصلاة وإسباغ الوضوء وتثليثه من غير وسوسة ولا إسراف». فإن الوسوسة في الطهارة والصلاة من عمل الشيطان يُلبس بها على مَنْ ضَعُفَ عقله وقَلَّ علمه.

فقد روى مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ - أَوِ المُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ المَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَتْ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ المَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ» (١).

فلا بد من الاستعداد لها والمحافظة عليها.

ومن المحافظة على الصلاة والإقامة لها، المبادرة بها في أول مَوَاقِيتِهَا وفي ذلك فضلٌ وأجر عظيم.

وهو دليل على محبة العبد لربه وعلى المسارعة في مرضاته ومحابه قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: « أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله ».

قال المناوي: وقد أفاد هذا الحديث وما قبله طلب تعجيل الصلاة أول وقتها وحرمة إخراج بعضها عن الوقت (١).

وقبيح بالمؤمن العاقل أن يدخل عليه وقت الصلاة وهو على شغل من أشغال الدنيا فلا يتركه ويقوم إلى فريضة الله التي كتبها الله عليه فيؤديها.

وما يفعل ذلك إلا من عظمت غفلته وقلّت معرفته بالله وعظّمته وضعُفَتْ رَغْبَتُهُ فيما أعدَّ اللهُ لأوليائه في الدار الآخرة.

وأما تأخيرها عن وقتها فلا يَجُوزُ وفيه إثم عظيم.

ومن المحافظة على الصلاة والإقامة لها: الخشوع وحُضور القلب وتدبُّرُ القِرَاءَةِ وفهمُ مَعَانِيهَا واستشعارُ الخُضُوعِ والتواضعِ لله عند الركوع والسجود.

وامتلاءُ القلب بتعظيم الله وإجلاله وتقديسه عند التكبير والتسبيح وجميع أجزاء الصلاة.

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٣/٨٣)، قال الزيلعي: سئل أحمد عن هذا الحديث أول الوقت رضوان الله فقال: ليس بثابت. « نصب الراية (١/٢٤٣) ».

والحرص والاجتهاد في دفع الخواطر والهواجيس في شؤون الدنيا والإعراض عند حديث النفس في ذلك.

ويكون همه في الصلاة وحسن تأديتها كما أمر الله. فإن الصلاة مع الغفلة وعدم الخشوع والحضور قليلة الجدوى.

فاجتهد في تدبُّر ما تقول من كلام ربك واحرص على الطمأنينة فيها.

فإن الذي لا يتم الركوع والسجود في الصلاة سارق لها كما ورد في الحديث وورد أن من حافظ عليها وأتمها تخرج بيضاء تقول: حفظك الله كما حفظتني. والذي لا يتم الصلاة تخرج سوداء مُظلمة تقول: ضيَعَكَ اللهُ كما ضيَعْتَنِي ثم تَلَفُ كما يَلْفُ الثوبُ الخَلْقُ فيضربُ بها وجهه.

رَأَى رَجُلٌ حَاتِمَ الأَصْمِ واقفًا يَعِظُ النَّاسَ فقال: يا حاتمُ أراكَ تَعْظُ النَّاسَ أَفَتُحْسِنُ أَنْ تُصَلِّيَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قال: كيف تُصَلِّي؟ قال: أقومُ بالأمرِ وأمشي بالسَّكِينَةِ وأدخُلُ بالهَيْبَةِ وأكْبِرُ بالعِظَمَةِ وأقرأ بالترتيل واجلسُ للشَّهَدِ بالتمامِ وأسلم على السنةِ وأسلمَها إلى ربي وأحفظُها أيامَ حَيَاتِي وأزجِعُ باللَّوْمِ على نَفْسِي وأخافُ أن لا تُقَبَّلَ مِنِّي وأرجو أن تُقَبَّلَ مِنِّي وَأَنَا بَيْنَ الرَّجَا وَالْخَوْفِ وَأشكرُ مَنْ عَلَّمَنِي وَأَعَلَّمُ مَنْ سألَنِي وأحمدُ ربي إذ هداني (١).

* ومن فوائده أنه يوفق العبد لنعمة الخوف من الله تعالى (٢).

روى الترمذي عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ

(١) موارد الظمان لدروس الزمان، (١/٢٥٨).

(٢) قال تعالى: { قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا } [المائدة/ ٢٢].

بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَدُخَانٌ جَهَنَّمَ".

قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ (١).

قال ابن بطال: وفيه: فضل البكاء من خشية الله، وفي اشتراطه الخلوة بذلك
حصر وندب على أن يجعل المرء وقتاً من خلوته للندم على ذنوبه ويفزع إلى الله
بإخلاص من قلبه، وتضرع إليه في غفرانها فإنه يجيب المضطر إذا دعاه، وألا
يجعل خلوته كلها في لذاته كفعل البهائم التي قد أمنت الحساب والمساءلة عن
الفتيل والقطمير على رءوس الخلائق فينبغي لمن لم يأمن ذلك وأيقن به أن
يطول في الخلوة بكاءه ويتبرم لحياته وتصير الدنيا سجنه لما سلف من ذنوبه (٢).

وعند الحاكم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ
فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يُصِيبَ الْأَرْضَ مِنْ دُمُوعِهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ اللَّهُ تَعَالَى
يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣).

قال المناوي: لما كان فيض العين تارة يكون من الخشية وتارة يكون من
الشوق وتارة من المحبة بين أن الكلام هنا في مقام الخوف فقال (من خشية الله
حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذبه الله يوم القيامة) فإنه تعالى لا يجمع
على عبده خوفين فمن خافه في الدنيا لم يخفه يوم الفرع الأكبر بل يكون من

(١) الترمذي (١٦٣٣)، والنسائي (١٢/٦)، وصححه الحاكم (٤/٢٨٨)، ووافقه الذهبي.

(٢) شرح صحيح البخارى لابن بطال، (٨/٤٢٧).

(٣) صححه الحاكم، (٤/٢٨٩)، ووافقه الذهبي.

الآمنين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١).

وأخرج الدارمي عن أَبِي رِيحَانَةَ، أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ فَسَمِعَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ يَقُولُ: «حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ سَهْرَتٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ دَمَعَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، أَوْ عَيْنِ فُقِئَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٢).

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: البكاء له أسباب: تارة يكون الخوف، وتارة يكون الألم، وتارة يكون الشوق، وغير ذلك من الأسباب التي يعرفها الناس. ولكن البكاء من خشية الله إما خوفاً منه وإما شوقاً إليه تبارك وتعالى (٣).

* ومن فوائد الخشوع أنه يُهَوِّنُ الوقوف بين يدي الله.

جاء في الفوائد لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: للعبد بين يدي الله موقفان، موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (٤) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ
الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ [الإنسان: ٢٦ - ٢٧] (٤).

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٦/١٢٨).

(٢) سنن الدارمي، (٢٤٤٥) وقال محققه رَحِمَهُ اللهُ: وصححه الحاكم، (٢/٩٢)، ووافقه الذهبي.

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/٣٤٤).

(٤) الفوائد لابن القيم، (ص-٢٠٠).

يعني: ومن الليل فاخضع لربك، وصلِّ له، وتهجِّد له زمناً طويلاً فيه.
* ومن فوائده - كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة.

فالأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الانشغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة (١).

* ومن فوائده أنه يكون سبباً لإجابة الدعاء.

أخرج الترمذي رَحِمَهُ اللهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَاهٍ" (٢).

قال المناوي: (واعلموا أن الله لا يستجيب) أي لا يجيب قال في النهاية: المجيب الذي يقابل الدعاء والسؤال بالقبول والعطاء (دعاء) بالمد (من قلب غافل) بالإضافة ويجوز عدمها وتنوينها (لاه) أي لا يعبأ بسؤال سائل غافل عن الحضور مع مولاه مشغوف بما أهمه من دنياه (٣).

(١) الفوائد لابن القيم، (ص-١٤٤).

(٢) رواه الترمذي، (٣٤٧٩)، والحاكم (١/٦٧١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ مُسْتَقِيمٌ الْإِسْنَادِ، وَأُورِدَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي الصَّحِيحَةِ (٥٩٤).

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (١/٢٢٨).

قال الإمام الرازي: أجمعوا على أن الدعاء مع غفلة القلب لا أثر له (١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ المُسْرِعِينَ فِيهَا الَّذِينَ يَمُرُّونَ فِيهَا مَرَّ السَّهْمِ: وَهَذَا كُلُّهُ تَلَاعَبٌ بِالصَّلَاةِ، وَتَعْطِيلٌ لَهَا وَخِدَاعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَخِلَافٌ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فَأَمَرْنَا بِإِقَامَتِهَا وَهُوَ الْإِتْيَانُ بِهَا قَائِمَةٌ تَامَةٌ الْقِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْأَذْكَارِ.

وَقَدْ عَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْفَلَاحَ بِخُشُوعِ الْمُصَلِّي فِي صَلَاتِهِ فَمَنْ فَاتَهُ خُشُوعُ الصَّلَاةِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْفَلَاحِ وَيَسْتَحِيلُ حُصُولُ الْخُشُوعِ مَعَ الْعَجَلَةِ وَالنَّقْرِ قَطْعًا بَلْ لَا يَحْصُلُ الْخُشُوعُ إِلَّا مَعَ الطَّمَأْنِينَةِ وَكُلَّمَا زَادَتْ الطَّمَأْنِينَةُ أَزْدَادَ خُشُوعًا وَكُلَّمَا قَلَّ خُشُوعُهُ اشْتَدَّتْ عَجَلَتُهُ حَتَّى تَصِيرَ حَرَكَةُ يَدَيْهِ بِمَنْزِلَةِ الْعَبَثِ الَّذِي لَا يَصْحَبُهُ خُشُوعٌ وَلَا إِقْبَالَ عَلَى الْعُبُودِيَّةِ، وَلَا مَعْرِفَةَ حَقِيقَةِ الْعُبُودِيَّةِ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ قَالَ: ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾، وَقَالَ: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾، وَقَالَ: ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ ﴾، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾، وَقَالَ لِمُوسَى: ﴿ فَأَعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ ﴿١٤﴾ فَلَنْ تُكَادُ تَجِدُ ذِكْرَ الصَّلَاةِ فِي مَوْضُوعٍ مِنَ التَّنْزِيلِ إِلَّا مَقْرُونًا بِإِقَامَتِهَا.

فَالْمُصَلُّونَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ وَمُقِيمِ الصَّلَاةِ مِنْهُمْ أَقَلُّ الْقَلِيلِ، كَمَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْحَاجُّ قَلِيلٌ وَالرَّاكِبُ كَثِيرٌ، فَالْعَامِلُونَ يَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ الْمَأْمُورِ بِهَا عَلَى التَّرْوِيحِ تَحِلَّةِ الْقَسَمِ وَيَقُولُونَ: يَكْفِينَا أَدْنَى مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْأِسْمُ وَلَيْتَنَا نَأْتِي بِهِ.

وَلَوْ عَلِمَ هَؤُلَاءِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَصْعَدُ بِصَلَاتِهِمْ فَتَعْرُضُهَا عَلَى الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير، (١/١٠٦).

بِمَنْزِلَةِ الْهَدَايَا الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا النَّاسُ إِلَى مُلُوكِهِمْ وَكِبْرَائِهِمْ، فَلَيْسَ مَنْ عَمِدَ إِلَى أَفْضَلِ مَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ فَيَزِيئَهُ، وَيُحَسِّنُهُ، مَا اسْتَطَاعَ ثُمَّ يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى مَنْ يَرْجُوهُ، وَيَخَافُهُ، كَمَنْ يَعْمِدُ إِلَى أَسْقَطِ مَا عِنْدَهُ وَأَهْوَنِهِ عَلَيْهِ فَلَيْسَتْ رِيحٌ مِنْهُ وَيَبْعَثُهُ إِلَى مَنْ لَا يَقَعُ عِنْدَهُ بِمَوْقِعٍ.

وَلَيْسَ مَنْ كَانَتْ صَلَاتُهُ رِبِيعًا لِقَلْبِهِ، وَحَيَاةً لَهُ، وَرَاحَةً وَقُرَّةً لِعَيْنِهِ، وَجَلَاءً لِحُزْنِهِ وَذَهَابًا لِهَمِّهِ وَغَمِّهِ، وَمَفْرَعًا لَهُ فِي نَوَائِبِهِ وَنَوَازِلِهِ، كَمَنْ هِيَ سِجْنٌ لِقَلْبِهِ، وَقَيْدٌ لِحَوَارِحِهِ، وَتَكْلِيفٌ لَهُ، وَثِقَلٌ عَلَيْهِ، فَهِيَ كَبِيرَةٌ عَلَى هَذَا وَقُرَّةٌ عَيْنٍ وَرَاحَةٌ لِذَلِكَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ فَإِنَّمَا كَبُرَتْ عَلَى غَيْرِ هَؤُلَاءِ لِحُلُوقِ قُلُوبِهِمْ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَكْبِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَالخُشُوعِ لَهُ وَقِلَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِيهِ فَإِنَّ حُضُورَ الْعَبْدِ فِي الصَّلَاةِ وَخُشُوعَهُ فِيهَا وَتَكْمِيلَهُ لَهَا وَاسْتِفْرَاطَهُ وَسَعَهُ فِي إِقَامَتِهَا وَإِتْمَامِهَا عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِ فِي اللَّهِ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: فِي رِوَايَةِ مُهَنَّادِ بْنِ يَحْيَى: إِتِمَّا حَظُّهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ عَلَى قَدْرِ حَظِّهِمْ مِنَ الصَّلَاةِ، وَرَغْبَتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِمْ فِي الصَّلَاةِ فَاعْرَفَ نَفْسَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ وَاحْذَرْ أَنْ تَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا قَدْرَ لِلْإِسْلَامِ عِنْدَكَ فَإِنَّ قَدْرَ الْإِسْلَامِ فِي قَلْبِكَ كَقَدْرِ الصَّلَاةِ فِي قَلْبِكَ (١).

(١) الصلاة وأحكام تاركها، (١٤٠).

*ومن فوائده أنه يعلق القلب بالصلاة ويربي النفس على الهمة العالية
كَانَ الْمُحَدِّثُ الثَّقَّةَ بَشْرَ بْنَ الْحَسَنِ يُقَالُ لَهُ الصَّفِيُّ لِأَنَّهُ كَانَ يَلْزِمُ الصَّفَّ
الْأَوَّلَ فِي مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ خَمْسِينَ سُنَّةً (١).

مثله إبراهيم بن ميمون المروزي أحد الدعاة المحدثين الثقة من أصحاب
عطاء بن أبي رباح وكانت مهنته الصياغة وطرق الذهب والفضة قالوا: كَانَ فَقِيهًا
فَاضِلًا مِنَ الْأَمَارِينَ بِالْمَعْرُوفِ. وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ: كَانَ إِذَا رَفَعَ الْمَطْرَقَةَ فَسَمِعَ
النِّدَاءَ لَمْ يَرُدِّهَا (٢).

وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة وقد أم أهل
حمص ستين سنة كاملة فقال: ما دخلت من باب المسجد قط وفي نفسي غير
الله (٣).

وقال سليمان بن حمزة المقدسي وهو من ذرية ابن قدامة صاحب كتاب
المغنى " لم أصل الفريضة قط منفردًا إلا مرتين، وكأني لم أصلها قط مع أنه
قارب التسعين " (٤).

وذكر عن الأعمش أنه قال: لم تفتني صلاة الجماعة ما يقرب من أربعين
سنة إلا مرة واحدة حين ماتت والدته اشتغل بتجهيزها.

عدي بن حاتم رضي الله عنه يقول: ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (٤/١١٣).

(٢) الأنساب للسمعاني، (٨/٢٦٦).

(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (٢٤/١٤٢).

(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان، (٢/٤٨٠).

وضوء (١).

قال بعض العلماء: (٢).

يُخَيِّونَ لِيَلَهُمْ بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ بِتِلَاوَةٍ، وَتَضَرُّعٍ، وَسُؤَالِ
وَعِيُونُهُمْ تَجْرِي بِفَيْضِ دُمُوعِهِمْ مِثْلِ أَنْهَمَالِ الْوَابِلِ الْهَطَّالِ
فِي اللَّيْلِ رُهْبَانٌ، وَعِنْدَ جِهَادِهِمْ لِعَدُوهِمْ مِنْ أَشْجَعِ الْأَبْطَالِ
وَإِذَا بَدَا عَلَمُ الرَّهَانِ رَأَيْتَهُمْ يَتَسَابِقُونَ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ
بُوجُوهِهِمْ أَنْرُ السُّجُودِ لِرَبِّهِمْ وَبَهَا أَشْعَّةُ نُورِهِ الْمُتَلَالِي

*ومن فوائده أنه يجب الحرص عليه لأن ذهاب العلم بذهاب العمل.

روى الطبراني عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «أول شيء يُرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعاً» (٣).

قال المناوي: (أول شيء يرفع من هذه الأمة) المحمدية (الخشوع حتى لا ترى فيها خاشعاً) خشوع إيمان بل خشوع تماوت ونفاق فيصير الواحد منهم ساكن الجوارح تصنعاً ورياء ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وأسد الغابة رابض بين جنبه ينتظر الفريسة.

وقال الراغب: قال رجل للحسن البصري: أمؤمن أنت قال: إن كنت تريد

(١) موارد الظمان لدروس الزمان، (٢/ ٤٨١).

(٢) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، (١/ ٢٣٧) والآيات من بحر الكامل.

(٣) قال في المجمع، (٢/ ١٣٦)، رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن. وهو في صحيح الجامع (رقم: ٢٥٦٩).

قول الله تعالى ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ فنعم به نتناكح ونتوارث وإن أردت قوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فلا أدري (١).

وعند الترمذي عن أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَشَخَّصَ بَبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ» قَالَ: فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ، فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنَقْرَأَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا، فَقَالَ: «تَكَلِّتُكَ أُمَّكَ يَا زِيَادُ، إِنِّي كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا يُغْنِي عَنْهُمْ؟». قَالَ جُبَيْرٌ: فَلَقِيتُ عِبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ، قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِنْ شِئْتَ لِأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ (٢)، يُوَشِّكُ أَنْ تَدْخَلَ مَسْجِدَ الْجَمَاعَةِ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا (٣).

وقال ابن أبي شيبة: حدثنا وكيع، عن عكرمة بن عمار، عن أبي عبد الله الفيلسطيني، عن عبد العزيز ابن أخٍ لحديفة قال: سمعته من حديفة منذ خمس

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٣/٨٨).

(٢) وإنما قال عبادة هذا، لأن العلم قسمان:

أحدهما: ما كان ثمرته في قلب الإنسان، وهو العلم بالله تعالى، وأسمائه،

وصفاته، وأفعاله المقتضي لخشيته، ومهابته، وإجلاله، والخضوع له، ولمحبيته،

ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، ونحو ذلك، فهذا هو العلم النافع، كما قال ابن مسعود: إن أقواماً

يقروون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب، فرسخ فيه، نفع. - جامع العلوم

والحكم (٣/١٠١٩).

(٣) الترمذي، (٢٦٥٣)، والحاكم، (١/١٧٩)، وصححه ووافقه الذهبي وقال الحاكم: «هذا

إسناده صحيح من حديث البصريين».

وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ: قَالَ حُذَيْفَةُ: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْخُشُوعُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ» (١).

ففي هذه الأحاديث أن ذهاب العلم بذهاب العمل وأن الصحابة فسروا ذلك بذهاب العلم الباطن من القلوب وهو الخشوع. كذا كما قال حذيفة: أن أول ما يرفع من العلم الخشوع.

أَلَا فِي الصَّلَاةِ الْخَيْرُ وَالْفَضْلُ أَجْمَعُ لِأَنَّ بِهَا الْأَرَابُ لِلَّهِ تَخَضَعُ
وَأَوَّلُ فَرَضٍ مِنْ شَرِيعَةِ دِينِنَا وَآخِرُ مَا يَبْقَى إِذَا الدِّينُ يَرْفَعُ
فَمَنْ قَامَ لِلتَّكْبِيرِ لاقْتِهِ رَحْمَةً وَكَانَ كَعَبْدِ بَابِ مَوْلَاهُ يُقْرَعُ
وَصَارَ لِرَبِّ الْعَرْشِ حِينَ صَلَاتِهِ نَجِيًّا فَيَا طُوبَاهُ لَوْ كَانَ يَخْشَعُ (٢)

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ» (٣).

وهذا يدل على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع. وروى ابن ماجه عن جابر، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ» (٤).

وأما العلم الذي على اللسان فهو حجة الله على ابن آدم كما قال ﷺ:

-
- (١) ابن أبي شيبة في المصنف، (٣٤٨٠٨)، وأورده الحاكم (٤/٥١٦)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخْرِجَاهُ»، ووافقه الذهبي.
(٢) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، (١٢/١٠٤) والأبيات من بحر الطويل.
(٣) رواه مسلم، (٢٧٢٢).
(٤) رواه ابن ماجه، (٣٨٤٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٥١١).

«وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» (١). فإذا ذهبَ مِنَ النَّاسِ الْعِلْمُ الْبَاطِنُ بَقِيَ الظَّاهِرُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ حُجَّةً.

ثم يذهبُ الْعِلْمُ الَّذِي هُوَ حُجَّةٌ بَدَهَابِ حَمَلْتِهِ وَلَا يَبْقَى مِنَ الدِّينِ إِلَّا اسْمُهُ وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، فَيَبْقَى الْقُرْآنُ فِي الْمَصَاحِفِ ثُمَّ يُسْرَى بِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ فِي الْمَصَاحِفِ وَلَا فِي الْقُلُوبِ شَيْءٌ (٢).

وَمِنْ هُنَا قَسَمَ مَنْ قَسَمَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى بَاطِنٍ وَظَاهِرٍ: فَالْبَاطِنُ: مَا بَاشَرَ الْقُلُوبَ فَاتَّمَرَ لَهَا الْخَشْيَةُ وَالْخُشُوعَ وَالتَّعْظِيمَ وَالْإِجْلَالَ وَالْمَحَبَّةَ وَالْأَنْسَ وَالشُّوقَ. وَالظَّاهِرُ: مَا كَانَ عَلَى اللِّسَانِ فِيهِ تَقْوَمُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ.

وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ كَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَغَيْرِهِ يُقَسِّمُونَ الْعُلَمَاءَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: عَالِمٌ بِاللَّهِ وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَيُشِيرُونَ بِذَلِكَ إِلَى مَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْعَلَمَيْنِ الْمُشَارُ إِلَيْهِمَا: الظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ.

وهؤلاءُ أَشْرَفُ الْعُلَمَاءِ وَهُمْ الْمَمْدُوحُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾، وَقَالَ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالذِّقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

وَقَالَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ: لَيْسَ الْعِلْمُ كَثْرَةُ الرِّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيَةُ. وَقَالَ

(١) رواه مسلم، (٢٢٣).

(٢) روى ابن أبي شيبة، (٣٠١٩٣) عن عبد الله بن مسعود: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ يُوشِكُ أَنْ يُنْرَعَ مِنْكُمْ»، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ يُنْرَعُ مِنَّا وَقَدْ أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا وَأَثْبَتَانَهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟ قَالَ: «يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيُنْرَعُ مَا فِي الْقُلُوبِ، وَيَذْهَبُ مَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَيُصْبِحُ النَّاسُ مِنْهُ فَقَرَاءً»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَلَيْنَ سُنَّتِنَا لَنَنْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء]:

بَعْضُهُمْ: كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا وَكَفَى بِالْإِغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا. وَيَقُولُونَ أَيْضًا: عَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَهُمْ أَصْحَابُ الْعِلْمِ الْبَاطِنِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَيْسَ لَهُمْ اتِّسَاعٌ فِي الْعِلْمِ الظَّاهِرِ.

وَيَقُولُونَ: عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللَّهِ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْعِلْمِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ لَا نَفَادَ لَهُمْ فِي الْعِلْمِ الْبَاطِنِ وَلَيْسَ لَهُمْ خَشْيَةٌ وَلَا خُشُوعٌ، وَهَؤُلَاءِ مَذْمُومُونَ عِنْدَ السَّلَفِ (١).

وَيُرْوَى أَنَّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُنْشِدُ مُتَمَثِّلًا وَهِيَ لِسَابِقِ الْبَرْبَرِيِّ فِي شِعْرِ لَهُ مِطْوَلٍ (٢):

[البحر الطويل]

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً عَلَيْكَ وَلَمْ تُعْذَرْ بِمَا أَنْتَ جَاهِلُهُ
فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا فَإِنَّمَا يُصَدِّقُ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ فَاعِلُهُ

فائدة:

قال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

الصَّلَاةُ مَجْلَبَةٌ لِلرِّزْقِ، حَافِظَةٌ لِلصِّحَّةِ، دَافِعَةٌ لِلْأَذَى، مَطْرِدَةٌ لِلْأَذْوَاءِ، مُقَوِّبَةٌ لِلْقَلْبِ، مُبَيِّضَةٌ لِلْوَجْهِ، مُفْرِحَةٌ لِلنَّفْسِ، مُذْهِبَةٌ لِلْكَسَلِ، مُنْشِطَةٌ لِلْجَوَارِحِ، مُمِدَّةٌ لِلْقُوَى، شَارِحَةٌ لِلصَّدْرِ مُغْدِيَةٌ لِلرُّوحِ، مُنَوِّرَةٌ لِلْقَلْبِ، حَافِظَةٌ لِلنِّعْمَةِ، دَافِعَةٌ لِلنَّقْمَةِ، جَالِبَةٌ لِلْبَرَكَاتِ، مُبْعِدَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، مُقَرِّبَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ.

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان، (١/١٣٩-١٤٠).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، (١/٦٩٨).

وَبِالْجُمْلَةِ: فَلَهَا تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي حِفْظِ صِحَّةِ الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ، وَقَوَاهُمَا وَدَفْعِ
الْمَوَادِّ الرَّدِيئَةِ عَنْهُمَا، وَمَا ابْتَلَى رَجُلَانِ بَعَاهَةَ أَوْ دَاءٍ أَوْ مِحْنَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ إِلَّا كَانَ حَظُّ
الْمُصَلِّي مِنْهُمَا أَقَلَّ، وَعَاقِبَتُهُ أَسْلَمَ.

وَلِلصَّلَاةِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي دَفْعِ شُرُورِ الدُّنْيَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا أُعْطِيَتْ حَقَّهَا مِنْ
التَّكْمِيلِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَمَا اسْتُدْفِعَتْ شُرُورُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَا اسْتُجْلِبَتْ
مَصَالِحُهُمَا بِمِثْلِ الصَّلَاةِ، وَسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ الصَّلَاةَ صَلَاةً بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَى قَدْرِ
صَلَاةِ الْعَبْدِ بَرِّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَفْتَحُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ أَبْوَابُهَا، وَتَقْطَعُ عَنْهُ مِنَ الشُّرُورِ
أَسْبَابُهَا، وَتُفِيضُ عَلَيْهِ مَوَادِّ التَّوْفِيقِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَافِيَةَ وَالصِّحَّةَ،
وَالْغَنِيمَةَ وَالْغِنَى، وَالرَّاحَةَ وَالنَّعِيمَ، وَالْأَفْرَاحَ وَالْمَسْرَاتِ كُلَّهَا مُحَضَّرَةً لَدَيْهِ،
وَمُسَارِعَةً إِلَيْهِ (١).



(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، (٤/ ٣٠٤-٣٠٥).

المبحث الخامس عشر

الخشوع يشمر التلذذ بطعم الإيمان .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسلاً» (١).

قال صاحب التحرير رحمه الله معنى رضيت بالشيء قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره فمعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى ولم يسع في غير طريق الإسلام ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ ولا شك في أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه وقال القاضي عياض رحمه الله معنى الحديث صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه لأن من رضي أمراً سهلاً عليه فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له والله أعلم (٢).

وروى مسلم أيضاً عن أنس عن النبي ﷺ قال: "ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ

(١) مسلم، (٣٤).

(٢) شرح النووي، (٢/٢).

يُثَدَّفَ فِي النَّارِ" (١).

قال العلماء رحمهم الله معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رضي الله عز وجل ورسوله ﷺ وإيثار ذلك على عرض الدنيا ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك محبة رسول الله ﷺ (٢).

لذا على العبد أن يتأول قول الله تعالى ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾

أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقا لغيره مستوليا على الأمر، إلا بأمرين:

الأمر الأول-المبادرة إليها وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها،

يستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتمام وتكمل، ويحصل بها السبق (٣).

روى النسائي عن الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَبُو عَبْدِ

(١) مسلم، (٤٣).

(٢) شرح النووي، (١٣/٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٢٣٤).

اللَّهُ الْأَغْرُ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَجِّرِ إِلَى الصَّلَاةِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي الْبَدَنَةَ، ثُمَّ الَّذِي عَلَى إِثْرِهِ كَالَّذِي يُهْدِي الْبَقْرَةَ، ثُمَّ الَّذِي عَلَى إِثْرِهِ كَالَّذِي يُهْدِي الْكَبْشَ، ثُمَّ الَّذِي عَلَى إِثْرِهِ كَالَّذِي يُهْدِي الدَّجَاجَةَ، ثُمَّ الَّذِي عَلَى إِثْرِهِ كَالَّذِي يُهْدِي الْبَيْضَةَ» (١).

قال ابن حجر: المراد بالتهجير هنا التبكير (٢).

وروى الشيخان عن أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَأَسْتَهْمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَأَسْتَبْقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ، لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا» (٣).

و(التهجير): التبكير إلى الصلوات. قال القاضي: التهجير السفر في الهاجرة والمراد به السعي إلى الجمعة والجماعة في أول الوقت. قال ابن أبي جمرة: المراد الاستباق معناه حسا لأن المسابقة على الإقدام حسا تقتضي السرعة في المشي وهو ممنوع منه (٤).

وقال النووي: التهجير التبكير إلى الصلاة أي صلاة كانت قال الهروي

(١) النسائي، (١١٦/٢) وانظر الصحيحة (٣٥٧٦)، والحديث هنا عام في الصلوات كلها ورواه الشيخان بأنه خاص بيوم الجمعة - قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «الْمُهَجِّرُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَالَّذِي يُهْدِي بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقْرَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي كَبْشًا، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي دَجَاجَةً» وَحَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ «كَالَّذِي يُهْدِي بَيْضَةً»، البخاري، (٩٢٩)، ومسلم (٨٥٠).

(٢) فتح الباري، (٣٦٩/٢).

(٣) البخاري، (٦١٥)، ومسلم، (٤٣٧).

(٤) فيض القدير، (٣٣٦/٥).

وغيره: وخصه الخليل بالجمعة، والصواب المشهور الأول

قال رَحِمَهُ اللهُ: والحديث فيه الحث العظيم على حضور جماعة هاتين الصلاتين والفضل الكثير في ذلك لما فيهما من المشقة على النفس من تنغيص أول نومها وآخره ولهذا كانتا أثقل الصلاة على المنافقين (١).

وفي البخاري عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ، سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي البَيْتِ؟ قَالَتْ: «كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا سَمِعَ الأَذَانَ خَرَجَ» (٢).

والمِهْنَةُ: بكسر الميم، وحكي الفتح قال الهروي المهنة: الخدمة بفتح الميم، وخفضها خطأ، قاله شمر عن مشايخه.

قال المهلب: هذا من فعله على سبيل التواضع، وليس لأمته ذَلِكَ؛ فمن السنة أن يمتهن الإنسان نفسه في بيته فيما يحتاج إليه من أمر دنياه وما يعينه على دينه، وليس الترفه في هذا بمحمود ولا من سبيل الصالحين، وإنما ذَلِكَ من سير الأعاجم.

وفيه: أن شهود صلاة الجماعة من (أكد السنن)؛ لأنه لا يتخلف عن ذَلِكَ إلا في مرضه، وكان شديد المحافظة عليها (٣).

وروى الطبراني عَنِ سَالِمٍ، عَنِ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي عَبْدَ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ كَانَ أَيْنَمَا أُدْرِكْتُهُ الصَّلَاةُ أَنَا» (٤).

(١) شرح النووي، (٤/١٥٨).

(٢) البخاري، (٥٣٦٣).

(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن، (٢٦/٤٤).

(٤) قال الهيثمي، (٩/٣١٦): رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، (١٣٢٤١) وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

(كان حيثما أدركته الصلاة) وهو سائر على بعيره (أناخ) بعيره وصلّى
محافظة على أدائها أول وقتها (١).

وبذلك عمل السلف الصالحون فقد روى ابن أبي شيبة عن أبي حيان، عن
أبيه، عن الربيع بن خثيم، أنه كان به مرض، فكان يهادى بين رجلين إلى الصلاة،
فيقال له: يا أبا زيد، إنك إن شاء الله في عذر، فيقول: "أجل، ولكنني أسمع
المؤذن يقول: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، فمن سمعها فليأتها، ولو
حبوا ولو زحفاً" (٢).

وروى ابن سعد في الطبقات: عن تميم بن سلمة، أن أبا عبد الرحمن
السلمي كان إمام المسجد، وكان يحمل في الطين في اليوم المطير (٣).

وقال سفيان: كان سويد بن غفلة ابن ست وعشرين ومائة سنة يخرج إلى
الصلاة. وعن الوليد بن علي، عن أبيه، قال: كان سويد بن غفلة يؤمنا فيقوم بنا
في شهر رمضان وهو ابن عشرين ومائة سنة (٤).

وكان أبو إسحاق الهمداني يهادى إلى المسجد، فإذا فرغ من صلاته لم
يقدر أن ينهض حتى يقام (٥).

وعند ابن أبي شيبة وكيع، حدثنا سفيان، حدثنا رجل، من جعفي عن عدي

(١) فيض القدير، (٤/١٩).

(٢) ابن أبي شيبة، (٣٥١٩).

(٣) ابن سعد في الطبقات، (٦/١٧٢) وانظر النبلاء (٤/٢٦٩).

(٤) ابن أبي شيبة، (٧٧٨٤).

(٥) شرح صحيح البخارى - لابن بطال، (٢/٢٩٠).

بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: «مَا جَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ إِلَّا وَأَنَا إِلَيْهَا بِالْأَشْوَاقِ وَمَا دَخَلَ وَقْتُ صَلَاةٍ قَطُّ إِلَّا وَأَنَا لَهَا مُسْتَعِدٌّ» (١).

وروى ابن أبي شيبة عن وكيع، عن سُفْيَانَ، عَنْ شَيْخٍ يُكْنَى أَبَا سَهْلٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ قَالَ: «مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ» (٢).

وفي النبلاء: كَانَ عَاصِمٌ بْنُ أَبِي النُّجُودِ، إِذَا صَلَّى، يَتَّصِبُ كَأَنَّهُ عُوذٌ، وَكَانَ يَكُونُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى الْعَصْرِ، وَكَانَ عَابِدًا، خَيْرًا، يُصَلِّي أَبَدًا، رَبَّمَا أَتَى حَاجَةً، فَإِذَا رَأَى مَسْجِدًا، قَالَ: مِلِّ بِنَا، فَإِنَّ حَاجَتَنَا لَا تَفُوتُ.

ثُمَّ يَدْخُلُ، فَيُصَلِّي (٣).

وفي تاريخ بغداد عن محمد بن عمران الضبي قال سمعت محمد بن سماعة القاضي قال: مَكَثْتُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ تَفْتِنِي التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى، إِلَّا يَوْمَ مَاتَتْ أُمِّي، فَصَلَّيْتُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ صَلَاةً، أُرِيدُ التَّضَعِيفَ فَعَلْبَتَنِي عَيْنِي فَآتَانِي آتٌ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قَدْ صَلَّيْتَ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ صَلَاةً وَلَكِنْ كَيْفَ لَكَ بِتَأْمِينِ الْمَلَائِكَةِ (٤).

وقد جاء في السنن عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ» (٥).

(إلا في عمل الآخرة) فإنه غير محمود بل الحزم بذل الجهد فيه لتكثير

(١) ابن أبي شيبة، (٣٥٢٥٨).

(٢) ابن أبي شيبة، (٣٥٢٢) قال الذهبي في النبلاء، (٤/٢٢١): إِسْنَادُهُ ثَابِتٌ.

(٣) النبلاء، (٥/٢٥٩).

(٤) تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي، (٥/٣٤١).

(٥) رواه أبو داود، (٥٣٦٣)، وانظر حديث رقم: ٣٠٠٩ في صحيح الجامع.

القربات ورفع الدرجات ذكره القاضي وقال الطيبي: معناه أن الأمور الدنيوية لا يعلم أنها محمودة العواقب حتى يتعجل فيها أو مذمومة حتى يتأخر عنها بخلاف الأمور الآخروية لقوله سبحانه ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَعْرِقَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ ﴾ وكان البوشنجي في الخلاء فدعى خادمه فقال: انزع قميصي وأعطه فلانا فقال: هلا صبرت حتى تخرج قال: خطر لي بذله ولا آمن على نفسي التغير (١).

وعند مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» (٢).

ومعنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر.

وقال الحسن: تفقدوا الحلاوة في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق (٣).

والأمر الثاني - الاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به.

روى أبو داود عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: " خَمْسٌ مِّنْ جَاءِ

(١) فيض القدير، (٣/ ٢٧٧).

(٢) مسلم، (١١٨).

(٣) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، (٢/ ٤٧٠).

بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ: مَنْ حَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيْتِهِنَّ، وَصَامَ رَمَضَانَ، وَحَجَّ الْبَيْتِ إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَأَعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ " قَالُوا: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، وَمَا أَدَاءُ الْأَمَانَةِ قَالَ: «الْغُسْلُ مِنَ الْجَنَابَةِ» (١).

وفي البخاري عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ، أَنَّ عَائِشَةَ، أَخْبَرَتْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، كَانَتْ تِلْكَ صَلَاتِهِ - تَعْنِي بِاللَّيْلِ - فَيَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذَلِكَ قَدْرَ مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ، وَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَضْطَجِعُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُؤَذِّنُ لِلصَّلَاةِ» (٢).

وروى مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَنْ تَطَوُّعِهِ؟ فَقَالَتْ: «.... وَكَانَ يُصَلِّي لَيْلًا طَوِيلًا قَائِمًا، وَلَيْلًا طَوِيلًا قَاعِدًا، وَكَانَ إِذَا قَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ قَائِمٌ، وَإِذَا قَرَأَ قَاعِدًا رَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ قَاعِدٌ، وَكَانَ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ» (٣).

وعند مسلم أيضا عَنْ حَفْصَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا، حَتَّى كَانَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِعَامٍ، فَكَانَ يُصَلِّي فِي سُبْحَتِهِ قَاعِدًا، وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيَرْتَلُّهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا» (٤).

(١) رواه أبو داود، (٤٢٩)، وحسنه الألباني..

(٢) البخاري، (٩٩٤).

(٣) مسلم، (٧٣٠).

(٤) مسلم، (٧٣٣).

قال الباجي: إخبارٌ عنه عليه السلام أنه كان يصلي الصلاة في تنفله على أتم هيئاتها من القيام إذ هو أفضل هيئات الصلاة (١).

وقال ابن عبد البر القرطبي: في هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتكلف في علم النافلة ما كان أعظم أجراً فلما شق عليه القيام الطويل دخل فيما أباح الله له (٢).

وكذلك سار الخلفاء والصحابة رضي الله عنهم على دربه بإحسان.

ف عند أحمد في الزهد عن سفيان بن عيينة قال: قال عثمان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله عز وجل».

فكان رضي الله عنه كما جاء في المصنف لعبد الرزاق عن ابن سيرين، أن عثمان كان يقرأ القرآن في ركعة يحيي بها ليلة (٣).

وعند ابن سعد عن الزهري قال: " قتل عثمان عند صلاة العصر، وشد عبد لعثمان أسود على كنانة بن بشر فقتله، وشد سودان على العبد فقتله، ودخلت الغوغاء دار عثمان فصاح إنسان منهم: أيحل دم عثمان ولا يحل ماله؟ فانتهبوا متاعه، فقامت نائلة فقالت: لصوص ورب الكعبة، يا أعداء الله، ما ركبت من دم

(١) المنتقى شرح الموطأ، (١/٢٤٣) ..

(٢) الاستذكار، (٢/١٨١).

(٣) المصنف، (٥٩٥٢). قال الترمذي إثر حديث (٢٩٤٦): قال بعض أهل العلم: لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث للحديث الذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، ورخص فيه بعض أهل العلم، وروي عن عثمان بن عفان أنه كان يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها وروي عن سعيد بن جبير أنه قرأ القرآن في ركعة في الكعبة والترتيل في القراءة أحب إلى أهل العلم.

عثمان أعظم، أما والله لقد قتلتموه صواما قواما، يقرأ القرآن في ركعة (١).
وقال خارجة بن مصعب: ختم القرآن في ركعة أربعة من الأئمة: عثمان ابن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة (٢).
قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: وأما الذين ختموا القرآن في ركعة، فلا يُحصون لكثرتهم، فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير.
والمختار: أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرأ، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم، أو فصل الحكومات بين المسلمين، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح العامة للمسلمين، فليقتصر على قدر لا يحصل له بسببه إخلال بما هو مرصد له ولا فوت كماله، ومن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهدرمة في القراءة.

وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة (٣).

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: أما مقدار القراءة، فقد اختلفت فيها عادات السلف، فمنهم من كان يختم كل يوم وليلة ختمة، ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة أكثر رأيتهم ذلك، ومنهم من كان يختم في ثلاث ختمة ومنهم من كان يختم في كل أسبوع، ومنهم من كان يختم في كل شهر، اشتغالا بالتدبر أو بنشر العلم، أو

(١) ابن سعد في الطبقات (٧٤/٣).

(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (٤٣٦/٢٩).

(٣) الأذكار للنووي، (١٠٢).

بتعليمه، أو بنوع من التعبد غير القراءة، أو بغيره من اكتساب الدنيا.

وأولى الأمر: ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمة، ولا يؤذيه في بدنه، ولا يفوته معه الترتيل والفهم^(١).

روى ابو نعيم في الحلية: ثنا أبو بكر بن عيَّاش، قال: قال أبو إسحاق السبيعي: «ذَهَبَتِ الصَّلَاةُ مِنِّي، وَضَعُفْتُ، وَإِنِّي لِأُصَلِّي وَأَنَا قَائِمٌ، فَمَا أَقْرَأُ إِلَّا الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ»^(٢).

وفي الزهد لأحمد عن ابن جريج قال: «كَانَ عَطَاءٌ بَعْدَمَا كَبُرَ وَضَعُفَ يَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ فَيَقْرَأُ مَا تَنَبَّأَتْ آيَةُ مِنَ الْبَقْرَةِ وَهُوَ قَائِمٌ مَا يَزُولُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَتَحَرَّكُ»^(٣).

ومن السلف الصالح من كان يَجْتَهِدُ في العبادة حتى لو قيل له: إن غداً القيامة ما استطاع أن يزيد في عبادته شيئاً.

وفي الزهد لأحمد عن سعيد بن عبد العزيز قال: قال أبو مسلم الخولاني «لَوْ قِيلَ إِنَّ جَهَنَّمَ تُسَعَّرُ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَزِيدَ فِي عَمَلِي»^(٤).

وعند ابن سعد عن حماد بن سلمة، قال: كان ثابتٌ يقول: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ أُعْطِيتُ أَحَدًا الصَّلَاةَ فِي قَبْرِهِ، فَأَعْطِنِي الصَّلَاةَ فِي قَبْرِي^(٥).

(١) مُخْتَصَرٌ مِنْهَا جِ القاصدين، (٥٢).

(٢) الحلية، (٤/٣٣٩) ..

(٣) الزهد (٣٠٥)، وشعب الإيمان (٢٨٨٦) ..

(٤) الزهد لأحمد، (٢٣٢١).

(٥) ابن سعد، (٧/٢٣٣).

قال الذهبي: فيقال: إن هذه الدعوة استجيبت له، وإنه رُئي بعد موته يُصلي في قبره (١).

قال الشاطبي: عن أنس ابن سيرين أن امرأة مسروق قالت: كان يُصلي حتى تورمت قدماه، فربما جلست أبكي خلفه مما أراه يصنع بنفسه.

إلى سائر ما ذكر عن الأولين من الأعمال الشاقة التي لا يطيقها إلا الأفراد؛ هياهم الله لها وهياها لهم وحببها إليهم، ولم يكونوا بذلك مخالفين للسنة بل كانوا معبودين في السابقين، جعلنا الله منهم؛ وذلك لأن العلة التي لأجلها نُهي عن العمل الشاق مفقودة في حقهم، فلم ينتهض النهي في حقهم (٢).

لكن مع كل هذا السرد المشوق إلا أن الضابط في هذا المعيار سنة رسولنا عليه الصلاة والسلام

ففي البخاري عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت عندي امرأة من بني أسد، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «من هذه؟» قلت: فلانة لا تنام بالليل، فذكر من صلاتها، فقال: «مه عليكم ما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يمل حتى تملوا» (٣).

قوله: (لا يمل حتى تملوا) لا يترك إيثابكم حتى تتركوا العمل والإفراط في العمل ربما أدى إلى تركه

(١) النبلاء، (٥/٢٢٢).

(٢) الموافقات، (٢/٢٤٤).

(٣) البخاري، (١١٥١).

وفيه أيضا عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ» (١).

قال المناوي: (إن الدين) بكسر الدال (يسر) أي دين الإسلام ذو يسر نقيض العسر أو هو يسر مبالغة لشدة اليسر وكثرته كأنه نفسه بالنسبة للأديان قبله لرفع الإصر عن الأمة (ولن يشاد) أي يقاوم (الدين أحد إلا غلبه) أي لا يتعمق أحد في العبادة ويترك الرفق كالرهبان في الصوامع إلا عجز فغلب عليه العبد من العجز والمعبود من عظم الأمر وليس المراد ترك طلب الأكمل في العبادة فإنه محمود بل منع الإفراط المؤدي للملال (٢).

قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: : وهذا يدلُّ على أن الأفضل في حقنا القصد، وعدم التطويل الذي يشقُّ علينا حتى لا نملَّ، وحتى لا نفتر من العبادة، فالمؤمن يصلِّي ويجهد، ويتعبَّد، لكن من غير مشقة، بل يتوسط في كل الأمور حتى لا يملَّ العبادة" (٣).

وروى البخاري ومسلم رحمهما الله عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَيْنِ، فَقَالَ: «مَا هَذَا الْحَبْلُ؟» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لَزِينَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا حُلُوهُ لِيَصِلَ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ،

(١) البخاري، (٣٩)

(٢) فيض القدير، (٢/٣٢٩).

(٣) أثناء تقريره على منتقى الأخبار، الأحاديث رقم ١٢٥٧ - ١٢٦٢. نقله عنه الشيخ سعيد بن علي بن وهف القحطاني رَحِمَهُ اللهُ - في كتابه الخشوع في الصلاة في ضوء الكتاب والسنة.

فَإِذَا فُتِرَ فَلْيَتَّعُدْ» (١).

دل الحديث عل طلب الاقتصاد والتوسط في العبادة والنهي عن التعمق فيها وعلي الترغيب في الإقبال علي الصلاة حال النشاط والقوة، وعلي أنه إذا ضعف الشخص في الصلاة يقعد حتى فذهب عنه الضعف والفتور، وعلي مشروعية إزالة المنكر، وعلي جواز تنفل النساء في المسجد، فإن حمئة وزينب كانتا تصليان فيه ولم ينكل عليهما ومحل ذلك إن أمنت الفتنة، وعلي كراهة التعلق بالحبل أثناء الصلاة وبه قال الجمهور (٢).

وفي صحيح مُسْلِمٍ عَنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا» (٣).

(هلك المتنطعون) أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم (٤).

وقال ابن حجر: جمع متنطع وهو المبالغ في الأمر قولاً وفعلاً (٥).

وفي البخاري قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «..... سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَعْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِّنَ الدُّلْبَجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا» (٦).

(١) البخاري، (١١٥٠)، ومسلم، (٧٨٤).

(٢) المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود، (٢٣٦/٧).

(٣) صحيح مُسْلِمٍ، (٢٦٧٠).

(٤) شرح النووي، (٢٢٠/١٦).

(٥) فتح الباري، (١٩٦/١).

(٦) البخاري (٦٤٦٣).

قوله: " والقصد القصد تبلغوا ". حث على الاقتصاد في العبادة، والتوسط فيها بين الغلو والتقصير"، ولذلك كرره مرة بعد مرة. وفي مسند البزار من حديث حذيفة رضي الله عنه: ما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في الغني، وما أحسن القصد في العبادة.

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: تَعَبَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُطَرِّفٍ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: أَيُّ عَبْدَ اللَّهِ «الْعِلْمُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ، وَالسَّيِّئَةُ بَيْنَ الْحَسَنَتَيْنِ، وَشَرُّ الشَّيْئَيْنِ الْحَقَّاقَةُ» قَالَ الشَّيْخُ رحمته الله: كَذَا السَّيِّئَةُ بَيْنَ الْحَسَنَتَيْنِ وَقَدْ قِيلَ: الْحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ يَعْنِي بَتْرُكِ الْعُلُوِّ وَالْتِقَاصِ ^(١).

وفي تكرير أمره بالقصد إشارة إلى المداومة عليه فإن شدة السير والاجتهاد مظنة السامة والانقطاع، والقصد أقرب إلى الدوام، ولهذا جعل عاقبة القصد البلوغ. قال أدلج: بلغ المنزل.

فالمؤمن في الدنيا يسير إلى ربه حتى يبلغ إليه كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۗ﴾ [الانشقاق: ٦] وَقَالَ تَعَالَى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) [الحجر: ٩٩]. أي: الموت أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه، فلم يزل دائماً في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

قال الحسن: يا قوم: المداومة فإن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت. ثم تلي هذه الآية (٢).

(١) الحلية، (٢/ ٢٠٩).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، (٤/ ٤٩٠).

وَقَالَ أَيضًا: نفوسكم مطاياكم فأصلحوا مطاياكم تبلغكم إلى ربكم عز وجل. وإصلاح المطايا، الرفق بِهَا وتعاهدها بما يصلحها من قوتها والرفق بِهَا فِي سيرها، فَإِذَا أَحْسَسَ بِهَا بتوقف فِي السير تعاهدها تارة بالتشويق وتارة بالتخويف حتي تسير.

قال بعض السَّلَفِ: الرَّجَاءُ قَائِدُ والخوف سَائِقُ، والنفس بينهما، كالدابة الحرون (١)، فمتي فتر قائدها وقصر سائقها وقفت فتحتاج إلى الرفق بِهَا والحدو لها حتي يطيب لها السير (٢).

قال خلود العصري: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَبِيبٍ يُحِبُّ أَنْ يَلْقَى حَبِيبَهُ أَلَا فَاجِبُوا رَبَّكُمْ، وَسِيرُوا إِلَيْهِ سَيْرًا جَمِيلًا» (٣).

فغاية السير يوصل الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ربه، ومن لَا يعرف الطَّرِيقَ إِلَى ربه لم يسلك إِلَيْهِ فِيهِ (٤).

وعند أحمد عن عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: " هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا "، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: " هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ " ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] (٥).

(١) الدابة الحرون: هي التي إذا استُدِرَّ جَرُّهَا وَقَفَتْ لسان العرب، (١٣ / ١١٠).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، (٤ / ٤٢٣).

(٣) الحلية، (٢ / ٢٣٢).

(٤) موارد الظمان، (٤ / ٤٩٢).

(٥) المسند، (٤٤٣٧)، وصححه الحاكم، (٢ / ٢٦١) ووافقه الذهبي.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ قَالَ: الضلالات

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ قَالَ: البدع والشبهات (١).

قال الشيخ السعدي: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ أي: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بينه الله في كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه، وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر.

﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ لتناولوا الفوز والفلاح، وتدركوا الآمال والأفراح. ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي: تضلکم عنه وتفرقکم يمينا وشمالا فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم.

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ ١٥٧ ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علما وعملا صرتم من المتقين، وعباد الله المفلحين، ووجد الصراط وأضافه إليه لأنه سبيل واحد موصل إليه، والله هو المعين للسالكين على سلوكه (٢).

فالطريق الموصل إلى الله واحد، وهو صراطه المستقيم، وبقية السبل كلها سبل الشيطان، من سلكها قطعت به عن الله، وأوصلته دار سخطه وغضبه وعقابه، فربما سلك الإنسان في أول أمره على الصراط المستقيم ثم ينحرف

(١) الدر المشور، (٣/٣٨٦).

(٢) تفسير السعدي، (٢٨٠).

عنه آخر عمره فيسلك بعض سبل الشيطان فيقطع عن الله فيهلك.

والشأن كلُّ الشأن في الاستقامة على الصراط المستقيم من أول السير إلى الله (ذَلِكَ فضل الله يؤتيه من يشاء) (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم). ما أكثر من يرجع أثناء الطريق وينقطع، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن (يَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

خَلِيلِي قَطَّاعُ الطَّرِيقِ إِلَى الْجَمَا كَثِيرٌ وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ قَلِيلٌ

جاء في المسند: إِنْ الْمُؤْمِنِ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسُ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَاهَدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى " قَالَ: " فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللهُ، وَدِينِي الإسلامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَنْتَهَرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

فَيَقُولُ: رَبِّي اللهُ، وَدِينِي الإسلامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشِّرْكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، كُنْتَ

وَاللهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيَقَالُ: هَذَا كَانَ مَنَزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهُ، أَبَدَكَ اللهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجَّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيَقَالُ لَهُ: اسْكُنْ (١).

وفي صحيح مسلم قال حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا بُدَيْلٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّهَا مَلَكَانِ يُضَعِدَانِهَا» - قَالَ حَمَادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طَيْبِ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ - قَالَ: " وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَسَدِكَ كُنْتَ تَعْمُرِينَهُ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَقُولُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ "، قَالَ: " وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ - قَالَ حَمَادٌ وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وَذَكَرَ لَعْنًا - وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ: خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ. قَالَ فَيَقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ "، (٢) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَردَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ رِيظَةً كَانَتْ عَلَيْهِ، عَلَى أَنْفِهِ، هَكَذَا.

قَالَ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيُّ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ أَرْخَمٍ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ قَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنْ الْمُؤْمِنِ إِذَا قُبِضَ، أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: أَخْرِجِي إِلَى رُوحِ اللهِ. فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَنَاولُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَشْمُونَهُ حَتَّى يَأْتُوا بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ مَا هَذَا الرِّيحُ

(١) المسند، (١٨٦١٤).

(٢) صحيح مسلم، (٢٨٧٢).

الطَّيْبَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ؟ وَلَا يَأْتُونَ سَمَاءً إِلَّا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمٍّ! فَيَقُولُ: قَدْ مَاتَ، أَمَا أَتَاكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: ذَهَبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَائِيَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَأْتِيهِ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمَسْحٍ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي إِلَى غَضَبِ اللَّهِ، فَتَخْرُجُ كَأَنَّ رِيحَ جِيفَةٍ، فَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى بَابِ الْأَرْضِ" (١).

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ خَلْفٍ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدِ الْمَقْبَرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ، أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ، آتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يَنْسُخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوِّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ (٢).

(١) صحيح ابن حبان، (٣٠١٤)، «الصحيححة»، (١٣٠٩).

(٢) الترمذي (١٠٧١)، وانظر «الصحيححة»، (١٣٩١).

وَقَالَ حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قَالَ: "ذَاكَ إِذَا قِيلَ لَهُ فِي الْقَبْرِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ، عَلَى هَذَا عِشْتِ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ" (١).

وقال ابن أبي شيبة رحمه الله: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: "إِنَّ الْمَيِّتَ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَسَارِهِ، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْمَعْرُوفِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، فَيَأْتِي مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَتَقُولُ الصَّلَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخُلٌ، وَيَأْتِي عَنْ يَمِينِهِ، فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخُلٌ، وَيَأْتِي عَنْ يَسَارِهِ فَيَقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِي مَدْخُلٌ، وَيَأْتِي مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَيَقُولُ: فِعْلُ الْخَيْرِ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَالصَّلَاةِ، وَالْمَعْرُوفِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ، فَيَقُولُ: مَا قِبَلِي مَدْخُلٌ، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ، قَدْ مُثِّلْتُ لَهُ الشَّمْسُ تَدَانَتْ لِلْغُرُوبِ فَيُقَالُ لَهُ: أَخْبِرْنَا عَنْ مَا نَسَأَلُكَ عَنْهُ؟ فَيَقُولُ: دَعَوْنِي حَتَّى أَصَلِّيَ فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّكَ سَتَفْعَلُ، فَأَخْبِرْنَا عَمَّا نَسَأَلُكَ؟ فَيَقُولُ: وَعَمَّ تَسْأَلُونِي؟ فَيَقُولُونَ: أَرَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ فِيكُمْ مَا تَقُولُ فِيهِ؟، وَمَا تَشْهَدُ بِهِ عَلَيْهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ: فَيُقَالُ لَهُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِّتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مِتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ

(١) ابن أبي شيبة، (١٢٠٦٢) وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله، «أحكام الجنائز»، (١٩٨ - ٢٠٢).

سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيَنُورُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، فَيَزِدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يَجْعَلُ نَسَمَةً مِنَ النَّسَمِ الطَّيِّبِ، وَهُوَ طَيْرٌ خُضِرُ تَعَلَّقَ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ، وَيُعَادُ الْجِسْمُ إِلَى مَا بَدَأَ مِنْهُ مِنَ التُّرَابِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] " وَقَالَ مُحَمَّدٌ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ ثَوْبَانَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: «نَمْ، فَيَنَامُ كَنَوْمَةِ العُرُوسِ لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ» حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ " (١).

قَالَ البِرَّازُ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ بَحْرِ القَرَّاطِيِّ، حَدَّثَنَا الوليدُ بْنُ القَاسِمِ، حَدَّثَنَا يزيدُ بْنُ كَيْسَانَ، عَنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ - أَحْسَبُهُ رَفَعَهُ " إِنَّ المُؤْمِنَ يَنزَلُ بِهِ المَوْتُ، وَيَعَايِنُ مَا يَعَايِنُ، فَوَدَّ لَوْ خَرَجَتْ يَعْنِي: نَفْسُهُ وَاللَّهُ يُحِبُّ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ المُؤْمِنَ يُصْعَدُ بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَأْتِيهِ أَرْوَاحُ المُؤْمِنِينَ فَيَسْتَحْبِرُونَهُ عَنْ مَعَارِفِهِمْ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، فَإِذَا قَالَ: تَرَكْتُ فُلَانًا فِي الدُّنْيَا، أَعْجَبَهُمْ ذَلِكَ، وَإِذَا قَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَدْ مَاتَ، قَالُوا: مَا جِيَءَ بِهِ إِلَيْنَا، وَإِنَّ المُؤْمِنَ يُجْلِسُ فِي قَبْرِهِ، فَيَسْأَلُ مَنْ رَبُّهُ، فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولُ: مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيَقُولُ: نَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ: فَمَا دِينُكَ؟ قَالَ: دِينِي الإِسْلَامُ، فَيَفْتَحُ لَهُ بَابٌ فِي قَبْرِهِ، فَيَقُولُ أَوْ يُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَجْلِسِكَ، ثُمَّ يَرَى القَبْرَ، فَكَأَنَّمَا كَانَتْ رَقْدَةً، فَإِذَا كَانَ عَدُوُّ اللَّهِ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ، وَعَايِنَ مَا عَايِنَ، فَإِنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ تُخْرَجَ رُوحُهُ أَبَدًا، وَاللَّهُ يُبْغِضُ لِقَاءَهُ، فَإِذَا جَلَسَ فِي قَبْرِهِ أَوْ أَجْلَسَ يُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ، فَيَفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُضْرَبُ ضَرْبَةً يَسْمَعُ كُلُّ دَابَّةٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ كَمَا يَنَامُ المَنْهَوشُ "، فَقُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: مَا المَنْهَوشُ؟ قَالَ: الَّذِي يَنْهَشُهُ

الدَّوَابُّ وَالْحَيَّاتُ، ثُمَّ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرَهُ (١).

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿الْآيَةَ﴾، قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ أَجْلَسَ فِي قَبْرِهِ، فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ. فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. فَيَقَالُ لَهُ فِي ذَلِكَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، فَيَقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ فِي النَّارِ لَوْ رُغِتَ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ مِنَ الْجَنَّةِ إِذْ ثَبَّتَ. وَإِذَا مَاتَ الْكَافِرُ أَجْلَسَ فِي قَبْرِهِ، فَيَقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَنْ نَبِيِّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ. فَيَقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ. ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ لَوْ ثَبَّتَ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، فَيَقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَنْزِلِكَ إِذْ رُغِتَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿(٢)﴾.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ﴿قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿الْمَسْأَلَةُ﴾ فِي الْقَبْرِ (٣).

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَيُثَبِّتُهُمُ بِالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾

(١) مسند البزار برقم، (٨٧٤) "كشف الأستار" وقال الهيثمي في المجمع (٣/٥٢): "في الصحيح طرف منه رواه البزار ورجاله ثقات خلا سعيد بن بحر القراطيسي -فإني لم أعرفه". وهو في الصحيحة، (٢٦٢٨).

(٢) ابن كثير في تفسيره، (٤/٥٠٢).

(٣) تفسير عبد الرزاق، (١٤٠٨).

في القبر. (١).

وعند أبي داود عن هانئ، مولى عثمان، عن عثمان بن عفان، قال: كان النبي ﷺ، إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالثبوت، فإنه الآن يسأل» (٢).

(وسلوا له الثبوت) أي اطلبوا له من الله تعالى أن يثبت لسانه وجنانه لجواب الملكين.

(فهو الآن يسأل) أي يسأله الملكان منكر ونكير فهو أحوج ما كان إلى الاستغفار وذلك لكمال رحمته بأمته ونظره إلى الإحسان إلى ميتهم ومعاملته بما ينفعه في قبره ويوم معاده.

وقال المظهر: فيه دليل على أن الدعاء نافع للميت وليس فيه دلالة على التلقين عند الدفن كما هو العادة لكن قال النووي: اتفق كثير من أصحابنا على ندبه قال الآجري في النصيحة: يسن الوقوف بعد الدفن قليلا والدعاء للميت مستقبل وجهه بالثبات فيقال اللهم هذا عبدك وأنت أعلم به منا ولا نعلم منه إلا خيرا وقد أجلسته تسأله اللهم فثبته بالقول الثابت في الآخرة كما ثبته في الدنيا اللهم ارحمه وألحقه بنبيه ولا تزلنا بعده ولا تحرمنا أجره - انتهى (٣).

(١) الدر المشور، (٣٣/٥).

(٢) سنن أبي داود رحمه الله، (٣٢٢١)، وصححه ابن حبان رحمه الله (٣١٠١).

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٥/١٥١).

المبحث السادس عشر أمورها يستجلب الخشوع وهي:

■ الأول - معرفة الله تعالى

قَالَ عُلَمَاءُ السَّلَفِ: أَوَّلُ مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ الْإِخْلَاصَ وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ وَالْإِقْرَارَ بِهِ، وَطَاعَتَهُ بِمَا أَمَرَ وَنَهَى، وَأَوَّلُ الْفَرَضِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ، وَأَنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ فَهُوَ بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ، وَجَمِيعِ كَلَامِهِ لَمْ يَزَلْ، وَلَا يَزَالُ، وَلَا يَخْلُو مِنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، وَلَا مَكَانَ وَهُوَ الْمُتَكَلِّمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ، وَيَسْمَعُونَ كَلَامَهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ دُونَهُ سَحَابٌ، وَعَلِمَ اللهُ وَصِفَاتَهُ كُلَّهَا غَيْرَ مَخْلُوقَةٍ وَهُوَ وَاحِدٌ بِجَمِيعِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ (١).

وأخرج الحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي نَوَادِرِ الْأُصُولِ عَنْ مَكْحُولٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ
أَنَّ الْفِطْرَةَ مَعْرِفَةُ اللهِ (٢).

(١) الحجّة في بيان المحجّة وشرح عقيدة أهل السنة، للأصبهاني، الشهر بقوام السنة، (٢/ ٢٧٩).

(٢) الدرر المشثور، (٦/ ٤٩٣).

وأخرج ابن جرير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه

أن عمر رضي الله عنه قال له: ما قوام هذه الأمة قال: ثلاث وهي المنجيات

١- الإخلاص: وهي الفطرة التي فطر الناس عليها (١).

٢- والصلاة: وهي الملة.

٣- والطاعة: وهي العصمة.

فقال عمر رضي الله عنه: صدقت (٢).

وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبت فيه وأعيدت:

منها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك

فوائد عظيمة:

١-: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها

على الإطلاق.

فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله

للعبد من أشرف المواهب.

٢-: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه،

وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا

(١) قال ابن القيم: والفطرة فطران فطرة تتعلّق بالقلب وهي معرفة الله ومحبه وإيثاره على ما

سواه وفطرة عملية وهي حديث: الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم

الأظافر ونف الإبط «تحفة المودود»، (١٦١).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، (٩٨/٢٠).

بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عبادته، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

قال تعالى: ﴿ وَهَذَا ﴾ أي: القرآن ﴿ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكرا يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية،

وسماه ذكرا، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلا والنهي عن القبيح عقلا وكونه ﴿ مُّبَارَكًا ﴾ يقتضي كثرة خيراته ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكرا مباركا، وجب تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه^(١).

٣-: أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فلا اشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعبد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٥٢٥).

يكون جاهلا بربه معرضا عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: "آمنت بالله" من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، وي بذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه عما يضاد ذلك.

٤-: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.

فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه (١).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٣٤-٣٥).

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ (١)
فَكَيْفَ يَحْتَاجُ إِلَى إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ، مَنِ النَّهَارُ بَعْضُ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ؟
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [فصلت: ٣٧]

وَلِهَذَا خَاطَبَ الرَّسُلُ قَوْمَهُمْ خِطَابَ مَنْ لَا يَشْكُ فِي رَبِّهِ وَلَا يَرْتَابُ فِي
وُجُودِهِ ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها على قوله: ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَأَتَّقُونِ ﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات
الألوهية وعبادته وحده لا شريك له فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله،
وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها (٢).

وأخبر سبحانه أن القرآن مشتمل على المطالب العالية وأعلاها أنه هدى
فقال: ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن فإنه يهدي إلى معرفة الله
تعالى بصفاته المقدسة وأفعاله الحميدة (٣).

وأخبر بالغاية، التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون
إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٤٣٥)، وهو من بحر الوافر. «شرح ديوان
المتنبي (٢٤٩)».

(٢) قال ابن القيم: سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ تَقِيَّ الدِّينِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ يَقُولُ: كَيْفَ يُطَلَّبُ
الدَّلِيلُ عَلَى مَنْ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؟ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ وَذَكَرَهُ. مدارج
السالكين، (١/٨٢). وهو من بحر الوافر. «شرح ديوان المتنبي (٢٤٩)».

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٧٧٥).

والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم^(١).

فقال ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبودوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون.

فقال سبحانه: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ (٢). وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف علم معرفة الله، فمن أوتي العلم فهو الغني بالحقيقة وإن كان فقيراً من المال ومن حرم العلم سيما علم المعرفة والتوحيد فهو الفقير

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٨١٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٨٧٢).

بالحقيقة وإن كان غنيا بالمال وأنشدوا: [من السريع] (١).

مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بَعِزِّ الْغِنَى وَالْعِزُّ كُلُّ الْعِزِّ لِلْمُتَّقِي
مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَلَمْ تُغْنِهِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ فَذَلِكَ الشَّقِي

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ السَّاجِي وَاسْمُهُ سَعِيدُ بْنُ يَزِيدَ: خَمْسُ خِصَالٍ بِهَا تَمَامُ الْعِلْمِ، وَهِيَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ وَإِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالْعَمَلِ عَلَى السُّنَّةِ، وَأَكْلُ الْحَلَالِ، فَإِنْ فُقِدَتْ وَاحِدَةٌ لَمْ يُرْفَعْ الْعَمَلُ (٢).

ولذلك ذم الله هؤلاء الذين لم يوفقوا لمعرفة سبحانه ووصفهم بالعمى

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (٣)، قِيلَ: عَنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ، يُقَالُ: رَجُلٌ عَمٌ بِكَذَا، أَيْ جَاهِلٌ (٣).

وقال عن بلعام الإسرائيلي ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أَيْ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى، أَيْ نَزَعَ مِنْهُ الْعِلْمَ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُهُ.

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: «خَرَجَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذُوقُوا أَطْيَبَ شَيْءٍ فِيهَا» قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا يَحْيَى؟ قَالَ: «مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى» (٤).

قَالَ شَقِيقٌ: " لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ مِائَتِي سَنَةٍ لَا يَعْرِفُ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ لَمْ يَنْجُ مِنَ النَّارِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ: أَحَدُهَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَالثَّانِي مَعْرِفَةُ نَفْسِهِ وَالثَّالِثُ مَعْرِفَةُ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ وَالرَّابِعُ مَعْرِفَةُ عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّ نَفْسِهِ، وَتَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ أَنْ تَعْرِفَ بِقَلْبِكَ أَنَّهُ

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٢/١٤٤).

(٢) تفسير القرطبي، (٢/٢٠٨).

(٣) تفسير القرطبي، (٧/٢٣٥).

(٤) الحلية، (٢/٣٥٧).

لَا يُعْطِي غَيْرَهُ وَلَا مَانِعَ غَيْرِهِ، وَلَا ضَارَّ غَيْرُهُ، وَلَا نَافِعَ غَيْرُهُ (١). ثم قال: وَأَمَّا مَعْرِفَةُ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَهْيِهِ، أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَأَنَّ رِزْقَكَ عَلَى اللَّهِ وَأَنَّ تَكُونَ وَائْتِقًا بِالرِّزْقِ مُخْلِصًا فِي الْعَمَلِ (٢).

وقال شقيق أيضا: " مَنْ عَمِلَ بِثَلَاثِ خِصَالٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ: أَوَّلُهَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَسَمْعِهِ وَجَمِيعِ جَوَارِحِهِ وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقُ مِمَّا فِي يَدَيْهِ وَالثَّلَاثُ يَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ مُسْتَيْقِنٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، وَلَا يُحْرِكُ شَيْئًا مِنْ جَوَارِحِهِ إِلَّا بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عِنْدَ اللَّهِ فَذَلِكَ حَقُّ الْمَعْرِفَةِ. وَتَفْسِيرُ الثَّقَةِ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَسْعَى فِي طَمَعٍ وَلَا تَتَكَلَّمُ فِي طَمَعٍ وَلَا تَرْجُو دُونَ اللَّهِ سِوَاهُ وَلَا تَخَافُ دُونَ اللَّهِ سِوَاهُ وَلَا تَخْشَى مِنْ شَيْءٍ سِوَاهُ وَلَا يُحْرِكُ مِنْ جَوَارِحِهِ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ يَعْنِي فِي طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ (٣).

قال الجرجاني: أَسْوَطُ التَّوْحِيدِ ثَلَاثَةٌ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِقْرَارُ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَنَفْيُ الْأَنْدَادِ عَنْهُ جُمْلَةً " (٤).

وهذا الأمر نبه عليه العلماء ليقوم الناس به مع أطفالهم من الصغر

قال ابن القيم: فَإِذَا كَانَ وَقْتُ نَطْقِهِمْ فَلْيَلْقِنُوا لِإِلَهِهِ إِلَّا اللَّهَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ وَلِيَكُنْ أَوَّلَ مَا يَقْرَعُ مَسَامِعَهُمْ مَعْرِفَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَوْحِيدَهُ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ

(١) تنبيه الغافلين، (٥٦٧).

(٢) قال المناوي: لا يجتمع الشح مع معرفة الله أبداً فإن المانع من الإنفاق والجود خوف الفقر وهو جهل بالله وعدم وثوق بوعدته وضمانه ومن تحقق أنه الرزاق لم يثق بغيره، فيض القدير، (١٤٤/٢)

(٣) الحلية، (٦١/٨).

(٤) غرائب القرآن ورجائب الفرقان، للنيسابوري، (بهامش الطبري) (١٢ جزء ٣ ص ٢٠٤).

عَرَّشَهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَهُوَ مَعَهُمْ أَيَّمَا كَانُوا وَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ كَثِيرًا مَا يَسْمُونَ أَوْلَادَهُمْ بَ عَمَانَوِيلَ وَمَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ إِلَهِنَا مَعَنَا وَلِهَذَا كَانَ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدَ اللَّهِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بِحَيْثُ إِذَا وَعَى الطِّفْلَ وَعَقَلَ عِلْمَ أَنَّهُ عَبْدَ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ سَيِّدُهُ وَمَوْلَاهُ (١).

قال الحكيم الترمذي: وأوفر الخلق حظاً من معرفة الله أعلمهم به وأعظمهم عنده منزلة وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة والأنبياء إنما فضلوا على الخلق بالمعرفة لا بالأعمال ولو تفاضلوا بالأعمال لكان المعمرون من الأنبياء وقومهم أفضل من نبينا ﷺ وأمته (٢).

فلا صلاح للقلوب حتى تستقرَّ فيها معرفة الله وعظمته ومحَبَّته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكُّل عليه، وتمتلي من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى "لا إله إلا الله"، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تألَّهُه وتعرفه وتحبُّه وتخشاه هو الله وحده لا شريك له، ولو كان في السماوات والأرض إله يُؤَلِّه سوى الله، لفسدت بذلك السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي: أحبُّ أن لا أموت حتى أعرف مولاي، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة التي إذا عرفته استحييت منه (٣).

(١) تحفة المودود بأحكام المولود، (٢٣٢).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٥/٥٢٠).

(٣) جامع العلوم والحكم، (٢/٥٦٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: معرفة الله نوعان:

النوع الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس: البرُّ والفاجر، والمطيع والعاصي.

النوع الثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقاءه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه، وهذه هي المعرفة الخاصة، والناس يتفاوتون فيها؛ ولهذا المعرفة بابان واسعان:

الباب الأول: التفكُّر والتأمُّل في آيات القرآن كُلِّها، والفهم الخاص عن الله تعالى، ورسوله ﷺ.

الباب الثاني: التفكُّر في آيات الله المشهودة، وتأمُّل حكمته فيها، وقدرته، ولطفه، وإحسانه، وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه، وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنی، وجلالها، وكمالها، وتفردِه بذلك، وتعلُّقها بالخلق والأمر، فيكون فقيهاً في أوامره، ونواهيه، فقيهاً في قضائه وقدره، فقيهاً في أسمائه وصفاته، فقيهاً في الحكم الديني الشرعي، والحكم الكوني القدری، و﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] (١).

* لكن لا طريق إلى معرفة الله، وإلى الوصول إلى رضوانه، والفوز بقربه، ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النَّافع الذي بعث الله به رُسُلَه، وأنزل به كتبه، فهو الدليل عليه، وبه يُهتَدَى في ظلمات الجهل والشُّبُه والشُّكوك، ولهذا سَمَّى اللهُ

(١) الفوائد، (١٧٠).

كتابه نوراً؛ لَأَنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ فِي الظُّلْمَاتِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

لذا قال ابن القيم عن شيخه: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ» (١): إِذَا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ الْمَخْلُوقُونَ يَمْنَعُهَا الْكَلْبُ وَالصُّورَةُ عَنْ دُخُولِ الْبَيْتِ. فَكَيْفَ تَلْجُ مَعْرِفَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَحَبَّتَهُ وَحَلَاوَةَ ذِكْرِهِ، وَالْأُنْسَ بِقُرْبِهِ، فِي قَلْبٍ مُمْتَلِئٍ بِكِلَابِ الشَّهَوَاتِ وَصُورِهَا؟ (٢).

فَمَنْ ذَاقَ حَلَاوَةَ مَعْرِفَةِ اللهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، وَالْأُنْسَ بِهِ: لَمْ يَكُنْ لَهُ أَمَلٌ فِي غَيْرِهِ. وَإِنَّ تَعَلَّقَ أَمَلُهُ بِسِوَاهُ، فَهُوَ لِإِعَانَتِهِ عَلَى مَرْضَاتِهِ وَمَحَابَّتِهِ. فَهُوَ يُؤْمَلُهُ لِأَجَلِهِ، وَلَا يُؤْمَلُهُ مَعَهُ.

وَمَنْ عَرَفَ اللهُ أَحَبَّهُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَخَافَهُ وَرَجَاهُ، وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَأَنَابَ إِلَيْهِ، وَلَهَجَ بِذِكْرِهِ، وَاشْتَقَّ إِلَى لِقَائِهِ، وَاسْتَحْيَا مِنْهُ، وَأَجَلَّهُ وَعَظَّمَهُ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ.

وَأَشْرَفَ النَّاسَ نَفْسًا وَأَعْلَاهُمْ هِمَّةً وَأَرْفَعَهُمْ قَدْرًا مِنْ لَذْتِهِ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالشُّوقِ إِلَى لِقَائِهِ وَالتُّودِدِ إِلَيْهِ بِمَا يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ فَلذته فِي إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ وَعُكُوفِ هِمَّتِهِ عَلَيْهِ (٣).

(١) البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم، (٢١٠٦).

(٢) مدارج السالكين، (٣٩١/٢).

(٣) الفوائد، (١٥٠).

* وأفضل ما يوفق إلى معرفة الله سبحانه، أن يكون لسان العبد رطبا بذكره^(١).

قال تعالى: ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ ﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى: "إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِي، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَالٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ" (٢).

وذكر الله تعالى، أفضله، ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبته، وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصا، ثم من بعده أمر بالشكر عموما فقال: ﴿ وَأَشْكُرُوا لِي ﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب، إقرارا بالنعم، واعترافا، وباللسان، ذكرا وثناء، وبالجوارح، طاعة لله وانقيادا لأمره، واجتنابا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية؟ التي تدوم، إذا زال غيرها وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر^(٣).

(١) عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللهُ؟، قَالَ: «أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ» صححه ابن حبان، (٨١٨).
 (٢) البخاري، (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
 (٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٤٣٥).

ولهذا كان التسبيح نِصْفُ الْمِيزَانِ، لأنه نصف العبودية والحمد لله تَمَلُّاً الْمِيزَانَ، لأنه كمال العبودية، إذ كمالها معرفة الله والافتقار إليه، فصفاء معرفته: تنزيهه عما يهجس في الخواطر وتقع عليه النواظر، وكمال الافتقار إليه أن ترى نفسك في قبضته يصرفك كيف يشاء، فمن قال سبحان الله على يقين من قلبه فقد صفت معرفته لله، ومن قال الحمد لله على بصيرة منه فقد صح افتقاره إليه (١).

■ الثاني- مما يستجلب به الخشوع، معرفة أسباب قسوة القلب، والعلاج.

أولاً: أسباب قسوة القلب:

١- الغفلة عن ذكر الله وتدبر القرآن، والتأمل في آياته الكونية:

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٤٢].

قال أبو السعود في قوله تعالى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِّنَاسٍ لِّعَالَمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١﴾: أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وعدم تخشعه عند تلاوته، وقلة تدبره فيه.

وقال تعالى في الإعراض عن تدبر الآيات الكونية: ﴿ أَقَلَّمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ﴿٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

٢- كثرة المعاصي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةً

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٣/ ٢٨٢).

سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبُهُ ذَاكَ الرَّأْيَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] (١).

قال المُحَاسِبِيُّ: اعْلَمَ أَنَّ الذُّنُوبَ تُورِثُ الغَفْلَةَ وَالغَفْلَةُ تُورِثُ القَسْوَةَ وَالقَسْوَةُ تُورِثُ البُعْدَ مِنَ اللهِ وَالبُعْدُ مِنَ اللهِ يُورِثُ النَّارَ، وَإِنَّمَا يَتَفَكَّرُ فِي هَذَا الأَحْيَاءُ، وَأَمَّا الأَمْوَاتُ فَقَدْ أَمَاتُوا أَنْفُسَهُمْ بِحُبِّ الدُّنْيَا (٢).

وقسوة القلوب من ثمرات المعاصي

أَنشَدَ ابْنُ المُبَارِكِ: [البحر المتقارب] (٣).

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ وَيُورِثُكَ الذُّلَّ إِذْمَانُهَا
وَتَرَكَ الذُّنُوبَ حَيَاةَ القُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِضْيَانُهَا

٣- التفریط في الفرائض وانتهاك المحرمات:

قال تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣] وبين ذلك بقوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبيَاءَ بغيرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٤)، والترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في "عمل اليوم والليلة" (٤١٨)، وفي التفسير من "الكبرى" (١٠١٨٠)، وهو في "مسند أحمد" (٧٩٥٢)، و"صححه ابن حبان" (٩٣٥) ..

(٢) رسالة المسترشدين للمحاسبي، (ص-٨٢).

(٣) الحلية، (٨/ ٢٧٩).

٤- الانشغال بالدنيا والانهماك في طلبها والمنافسة عليها:

روى الشيخان عن أَبِي مَسْعُودٍ، قَالَ: وَأَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ نَحْوَ الْيَمَنِ: «الْإِيمَانُ هَا هُنَا - مَرَّتَيْنِ - أَلَا وَإِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلْظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ - حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ - رَبِيعَةَ وَمُضَرَ» (١).

قال الخطابي: إنما ذمهم لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمر دينهم وذلك يفضي إلى قسوة القلب (٢).

قال ابن القيم: "متى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقاءه، وحلَّ فيه حب المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا، والطمأنينة بها، فاعلم أنه قد خسف به" (٣).

٥- طول الأمل والتمني:

طول الأمل غرور وخداع إذ لا ساعة من ساعات العمر إلا ويمكن فيها انقضاء الأجل فلا معنى لطول الأمل المورث قسوة القلب وتسليط الشيطان وربما جر إلى الطغيان (٤).

٦- التوسع المذموم في المباحات:

وَفِي كَثْرَةِ النَّوْمِ ضَيَاعُ الْعَمْرِ وَفَوْتُ التَّهَجُّدِ وَبِلَادَةُ الطَّبَعِ وَقِسَاوَةُ الْقَلْبِ (٥).

(١) البخاري (٣٣٠٢)، ومسلم (٥١).

(٢) فيض القدير، (٤/٤٦٢).

(٣) بدائع الفوائد، (٣/٢٢٤).

(٤) فيض القدير، (٥/٣٢٧).

(٥) إحياء علوم الدين، (٣/٨٦).

٧- كثرة مخالطة الناس في غير مصلحة:

قال ابن القيم: "إن فضول المخالطة هي الداء العضال، الجالب لكل شرٍّ، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات، تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة" (١).

٨- عدم الرحمة بالخلق والإحسان إليهم:

عن النبي ﷺ قال: "خَابَ عَبْدٌ وَعَسِرَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلْبَشَرِ" (٢).

وعن ابن عباسٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا يُؤْمِنُ مَنْ بَاتَ شَبَعَانَ وَجَارَهُ طَاوٍ إِلَى جَنْبِهِ» (٣).

قال المناوي: "المراد نفي الإيمان الكامل، وذلك لأنه يدل على قسوة قلبه، وكثرة شحه، وسقوط مروءته، وعظيم لؤمه، وخبث طويته" (٤).

٩- الكسل والفتور:

في الحديث: "ثَلَاثُ خِصَالٍ تُورِثُ الْقَسْوَةَ فِي الْقَلْبِ: حُبُّ الطَّعَامِ، وَحُبُّ

(١) بدائع الفوائد، (٢/٢٣٧).

(٢) أخرجه الدولابي (١ / ١٧٣) وانظر الصحيحة، (٢٤٥٦).

(٣) أخرجه البزار (٧٤٢٩) وانظر، (٥٥٠٥)، في صحيح الجامع.

(٤) فيض القدير، (٥/٤٠٩).

النَّوْمِ، وَحُبُّ الرَّاحَةِ". رواه الديلمي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (١).

١٠- التعصب للرأي وكثرة الجدل:

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْمِرَاءُ فِي الْعِلْمِ يُقَسِّي الْقُلُوبَ وَيُورِثُ الضَّغَائِنَ (٢).

علاج قسوة القلب:

١- وجوب متابعة القلب، وتجديد الإيمان:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلُقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثُّوبُ، فَيَتَلَوُ، فَاتْلُوا الْقُرْآنَ يُجَدِّدُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ» (٣).

وقال ﷺ: «مَا مِنْ الْقُلُوبِ قَلْبٌ، إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ، بَيْنَا الْقَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ، فَأَظْلَمَ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ» (٤).

٢- تدبر القرآن

قال جل من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَكِّرُوا بِآيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

قال الطبري في تفسيره: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وهذا القرآن

(١) رواه الديلمي في "مسند الفردوس" (٨٩٥٠)، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٢٢٠) إلى ابن مردويه.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، (١/ ٢٠٢).

(٣) قال الهيثمي، (١/ ٥٢): رواه الطبراني في الكبير، (٨٤)، وإسناده حسن..

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، (٥٢٢٠) وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٨).

كتاب أنزلناه إليك يا محمد مبارك ليدبروا آياته يقول ليتدبروا حجج الله التي فيه وما شرع فيه من شرائعه فيتعظوا ويعملوا به. (١) اهـ

وقال النووي رَحِمَهُ اللهُ: فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر، وأشهر وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح (٢).

وأخرج الطبراني عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَيُخْرَجُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كُشْرَبِهِمُ اللَّبَنَ» (٣).

قال المناوي: أي يسلقونه بألستهم من غير تدبر لمعانيه، ولا تأمل في أحكامه، بل يمر على ألستهم كما يمر اللبن المشروب عليها بسرعة. (٤) اهـ

٣- استشعار عظمة الله:

فإن مما يعين على استشعار عظمة الله في القلب والبعد عن المعاصي الإكثار من تلاوة القرآن بتدبر، والتأمل في أسماء الله وصفاته، والإكثار من ذكر الله بالتدبر لمعاني الأذكار، والنظر فيما في القرآن من الحديث عن أهوال القيامة وإهلاك الله وعقوبته لمن عصاه في الدنيا والآخرة، والتأمل كذلك في كتب السنة فإن فيها كثيراً من الأحاديث المخوفة من عقاب الله والمرغبة في طاعته والمبينة

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، (٢١/١٩٠).

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، (٨٢).

(٣) قال الهيثمي، (٦/٢٢٩): رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (٨٢١)، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ.

(٤) فيض القدير، (٤/١١٨).

لعظمته وجبروته. ومن أعظم ما صنف في هذا كتاب العظمة لأبي الشيخ، وكتاب الترغيب والترهيب للمنزري، ورياض الصالحين، ويضاف إلى هذا مطالعة سير السلف أهل الخشية، ومصاحبة أهل الخير وملازمة مجالس العلم والبعث عن ضياع الوقت فيما لا يفيد.

٤ - طلب العلم الشرعي:

كلما ازداد المسلم علمًا، ازداد من الله قربًا، وخشيةً، وإنابةً، واستكانةً؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨].
وقال سبحانه: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

٥ - زيارة القبور:

روى الحاكم عن أنس بن مالك، قال: قال النبي ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ إِلَّا فُزُّوْهُمَا، فَإِنَّهُ يُرْقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمَعُ الْعَيْنَ، وَتَذَكَّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا» (١).

٦- عدم الإكثار من الضحك؛ فإن كثرة ذلك تميمت القلب؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَأْخُذْ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟»، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَأَخَذَ بِيَدِي، فَعَدَّ خَمْسًا، وَقَالَ: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَعْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنُ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا

(١) المستدرک، (١/ ٥٣٢)، انظر حديث رقم: (٤٥٨٤)، في صحيح الجامع.

تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»^(١).

٧- كِفَالَةُ اليَتِيمِ:

روى البيهقي وغيره عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، فَاطْعِمِ الْمَسَاكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ»^(٢).

٨- الاستفادة في علاج القلوب من حِكَمِ الحكماء؛ فإن ذلك مما يوقظ القلوب؛ لما جعل الله تعالى على ألسنتهم من الحِكَمِ:

قَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "دَوَاءُ الْقُلُوبِ خَمْسَةٌ أَشْيَاءُ: قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ، وَخَلَاءُ الْبَطْنِ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ، وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّحْرِ، وَمُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ"^(٣).

وَعِلَاجُ الْقَلْبِ مِنْ جَمِيعِ أَمْرَاضِهِ قَدْ تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، وقال اللهُ ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

وَعِلَاجُ الْقَلْبِ يَكُونُ بِأُمُورٍ أَرْبَعَةٍ:

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّهُ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنَ الشَّكِّ، وَيُزِيلُ مَا

(١) الترمذي، ٢٣٠٥، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم (٩٣٠).

(٢) شعب الإيمان، (١٠٥٢٣)، حديث رقم: ١٤١٠ في صحيح الجامع.

(٣) الخشوع في الصلاة لابن رجب، (ص-٣٥).

فِيهَا مِنَ الشَّرْكِ، وَدَنَسِ الْكُفْرِ، وَأَمْرَاضِ الشُّبُهَاتِ، وَالشَّهَوَاتِ، وَهُوَ هُدًى لِمَنْ عَلِمَ بِالْحَقِّ، وَعَمِلَ بِهِ، وَرَحْمَةً لِمَا يَحْصُلُ بِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، قَالَ اللَّهُ - عز وجل - : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

الأمر الثاني: القلب يحتاج إلى ثلاثة أمور:

١ - ما يحفظ عليه قوته وذلك يكون بالإيمان، والعمل الصالح، وعمل أوراد الطاعات.

٢ - الحمية عن المضار، وذلك باجتنب جميع المعاصي، وأنواع المخالفات.

٣ - الاستفراغ من كل مادة مؤذية، وذلك بالتوبة والاستغفار.

الأمر الثالث: علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه:

له علاجان: مُحَاسَبَتُهَا، وَمُخَالَفَتُهَا، وَالْمُحَاسَبَةُ نَوْعَانِ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: قَبْلَ الْعَمَلِ، وَلَهُ أَرْبَعُ مَقَامَاتٍ:

١ - هَلْ هَذَا الْعَمَلُ مَقْدُورٌ لَهُ؟

٢ - هَلْ هَذَا الْعَمَلُ فِعْلُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ تَرْكِهِ؟

٣ - هَلْ هَذَا الْعَمَلُ يُفْصِدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ؟

٤ - هَلْ هَذَا الْعَمَلُ مُعَانٌ عَلَيْهِ، وَلَهُ أَعْوَانٌ يُسَاعِدُونَهُ، وَيَنْصُرُونَهُ إِذَا كَانَ

الْعَمَلُ يَحْتَاجُ إِلَى أَعْوَانٍ؟ فَإِذَا كَانَ الْجَوَابُ مَوْجُودًا أَقْدَمَ وَإِلَّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَبَدًا.

النَّوعُ الثَّانِي: بَعْدَ العَمَلِ وَهُوَ ثَلَاثَةٌ أَنْواعٍ:

١ - مُحَاسِبَةُ نَفْسِهِ عَلَى طَاعَةِ قَصْرَتْ فِيهَا مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ تُوقِعْهَا عَلَى الوَجْهِ المَطْلُوبِ، وَمِنْ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى: الإِخْلَاصُ، وَالنَّصِيحَةُ، وَالْمُتَابَعَةُ، وَشُهُودُ مَشْهَدِ الإِحْسَانِ، وَشُهُودُ مِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ، وَشُهُودُ التَّقْصِيرِ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ.

٢ - مُحَاسِبَةُ نَفْسِهِ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ كَانَ تَرْكُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ فِعْلِهِ.

٣ - مُحَاسِبَةُ نَفْسِهِ عَلَى أَمْرٍ مُبَاحٍ، أَوْ مُعْتَادٍ لَمْ يَفْعَلْهُ، وَهَلْ أَرَادَ بِهِ اللَّهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، فَيَكُونُ رَاحِحًا؟ أَوْ أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا فَيَكُونُ خَاسِرًا؟

وَجَمَاعُ ذَلِكَ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ أَوَّلًا عَلَى الفَرَائِضِ، ثُمَّ يُكَمِّلُهَا إِنْ كَانَتْ نَاقِصَةً، ثُمَّ يُحَاسِبُهَا عَلَى المَنَاهِي، فَإِنْ عَرَفَ أَنَّهُ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْهَا تَدَارَكَهُ بِالتَّوْبَةِ وَالاِسْتِغْفَارِ، ثُمَّ عَلَى مَا عَمِلَتْ بِهِ جَوَارِحُهُ، ثُمَّ عَلَى الغَفْلَةِ (١).

الأمر الرابع: علاج مرض القلب من استيلاء الشيطان عليه:

الشَّيْطَانُ عَدُوُّ الإِنْسَانِ، وَالفِكَالُ مِنْهُ هُوَ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ مِنَ الاستِعَاذَةِ، وَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الاستِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ النَّفْسِ، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَه، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا، أَوْ أَجْرَهُ إِلى مُسْلِمٍ، قُلُهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ،

(١) انظر: إغاثة اللفهان، (١/٨٣).

وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ» (١).

وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالِإِحْلَاصُ، يَمْنَعُ سُلْطَانَ الشَّيْطَانِ (٢).

■ السبب الثالث: الابتعاد عن الوسوسة؛ فإنها أعظم موانع الخشوع في

الصلاة

الْوَسْوَسَةُ وَالْوَسْوَسَاتُ لُغَةً: الصَّوْتُ الْخَفِيُّ مِنْ رِيحٍ وَنَحْوِهِ.

وَالْوَسْوَسَةُ وَالْوَسْوَسَاتُ - بِالْكَسْرِ - حَدِيثُ النَّفْسِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمَهُ مَا نُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسَهُ﴾ [ق: ١٦]. وَحَدِيثُ الرَّجُلِ صَاحِبِهِ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: وَسْوَسَ الرَّجُلُ إِذَا اخْتَلَطَ كَلَامُهُ وَدَهَشَ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْ عُمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ تُوْفِّي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَزِنُوا عَلَيْهِ، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يُوسْوِسُ، قَالَ عُمَانُ: وَكُنْتُ مِنْهُمْ" (٣) يُرِيدُ أَنَّهُ اخْتَلَطَ كَلَامُهُ وَدَهَشَ لِمَوْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَرَجُلٌ مُوسْوَسٌ إِذَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْوَسْوَسَةُ. وَالْوَسْوَسَاتُ - بِفَتْحِ الْوَاوِ - الشَّيْطَانُ يُوسْوِسُ بِصَدْرِ الرَّجُلِ، وَيُوسْوِسُ إِلَيْهِ (٤).

وروى أبو داود عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ، يُعْرِضُ بِالشَّيْءِ، لَأَنَّ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ

(١) الترمذي، (٣٣٩٢)، وأبو داود، برقم ٥٠٥٨، وانظر صحيح الترمذي، (١٤٢/٣).

(٢) انظر: إغاثة اللفهان، ١ / (٨٥-٩٠).

(٣) أُنْزِلَ عُمَانُ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ، (١ / ٦ - ط الميمنية)، وَفِي إِسْنَادِهِ جَهَالَةٌ.

(٤) لِسَانَ الْعَرَبِ، وَالْقَامُوسُ الْمُحِيط.

مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: « اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ » (١).

نقل الخطابي المراد بصريح الإيمان هو الذي يعظم في نفوسهم إن تكلموا به ويمنعهم من قبول ما يلقي الشيطان فلولا ذلك لم يتعاضم في أنفسهم حتى أنكروه وليس المراد أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان بل هي من قبل الشيطان وكيد (٢).

أسباب الوسوسة:

١ - قِلَّةُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ: أي بالكتاب والسنة، وما عليه الصحابة وأتباعهم

رضي الله عنهم.

٢ - ضَعْفُ الْإِيمَانِ؛ لأن الشيطان يتسلط على أهل المعاصي، بخلاف قوِّي الإيمان.

٣ - الْإِسْتِرْسَالُ مَعَ الْأَفْكَارِ؛ فإن هذا الاسترسال يجعل للشيطان مدخلا عليه.

٤ - الْغَفْلَةُ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فإن الذكر يطرد الشيطان ووساوسه.

٥ - ضَعْفُ الْعَقْلِ؛ فإن صاحب العقل الكامل المؤمن ينجو من الوسوسة بفضل الله تعالى.

٦ - عَدَمُ مَخَالَطَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ الْكَامِلِ.

(١) أبو داود، (٥١١٢)، وصححه ابن حبان، (١٤٧)، وانظر صحيح أبي داود، (٣/٢٦٥).

(٢) معالم السنن للخطابي، وهو شرح سنن أبي داود (٤/١٤٧).

٧ - عدم اتباع الرسول ﷺ؛ فإن الشيطان يدخل من هذا المدخل (١).

مظاهر الوسوسة عند الموسوسين:

١ - التأخر في حال الاستنجاء، أو الوضوء والاعتسال، وهذه أغلب حالات الوسواس.

٢ - تكرار الوضوء، أو الطهارة، أو الصلاة، والإسراف في ماء الطهارة، وإعادة هذه العبادات؛ لأنه يظن أنها فاسدة.

٣ - تكرير الحرف في ألفاظ القراءة، أو أذكار الصلاة وغيرها، كما ذكر ابن قدامة رحمه الله في ذم الموسوسين، وابن القيم في إغاثة اللهفان رحمه الله.

٤ - إبدال الملابس؛ لأنه يتوهم أنه أصابها نجاسة.

٥ - وسوستهم في العقيدة، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلِيَّتِهِ»، وفي لفظ لمسلم: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ»، وفي رواية لمسلم: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ مَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ»، ثُمَّ ذَكَرَ بِمِثْلِهِ وَزَادَ: «وَرُسُلِهِ» (٢).

(١) تحفة المؤمنين في ذم الوسوسة وعلاج الموسوسين؛ لعبد الله بن سليمان العتيق، [ص ٥ - ٧].

(٢) البخاري، (٣٢٧٦)، ومسلم، (١٣٤).

وعن زُمَيْلٍ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَاللَّهِ مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ! قَالَ: فَقَالَ لِي أَشْيَاءٌ مِنْ شَكِّ؟ قَالَ وَصَحِكَ. قَالَ: مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ... «الخبر، وفي آخره قال ابن عباس: إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٣﴾» [الحديد: ٣] (١).

وروى مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظِمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» (٢).

قال النووي: قوله ﷺ ذلك صريح الإيمان ومحض الإيمان معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلا عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك (٣).

وسئل الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ:

يخطر ببال الإنسان وساوس وخواطر وخصوصاً في مجال التوحيد والإيمان، فهل المسلم يؤخذ بهذا الأمر؟. فأجاب:

قد ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيحين وغيرهما أنه قال: " إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم " - متفق عليه - وثبت أن

(١) أبو داود، (٥١١٠)، وحسن إسناده الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٣/ ٢٦٥).

(٢) مسلم (١٣٢).

(٣) شرح النووي، (٢/ ١٥٤).

الصحابه رضي الله عنهم سألوه رضي الله عنه عما يخطر لهم من هذه الوسوس والمشار إليها في السؤال، فأجابهم رضي الله عنه بقوله: "ذاك صريح الإيمان" - رواه مسلم - وقال عليه الصلاة والسلام: "لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ورسله" - متفق عليه -، وفي رواية أخرى "فليستعذ بالله ولينته" رواه مسلم في صحيحه (١).

قال ابن كثير رحمته الله:

في قوله ﴿ وَإِن تَبَدُّواْ مَا فِىْ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ﴾ أي: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها: فهذا لا يكلف به الإنسان، وكرهية الوسوسة السيئة من الإيمان (٢).

وقال العز بن عبد السلام: دواء الوسوسة أن يعتقد أن ذلك خاطر شيطاني، وأن إبليس هو الذي أورده عليه وأنه يقاتله، فيكون له ثواب المجاهد: لأنه يحارب عدو الله، فإذا استشعر ذلك فر عنه، وأنه مما ابتلي به نوع الإنسان من أول الزمان وسلطه الله عليه محنة له، ليحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وَالْوَسْوَسَاتُ يَعْرِضُ لِكُلِّ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِذِكْرِ أَوْ غَيْرِهِ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثْبُتَ وَيَصْبِرَ، وَيُلَازِمَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ، وَلَا يَضْجُرْ، فَإِنَّهُ بِمُلَازِمَةِ ذَلِكَ يَنْصَرِفُ عَنْهُ كَيْدُ

(١) تحفة الإخوان بأجوبة مهمة تتعلق بأركان الإسلام، (السؤال العاشر).

(٢) تفسير ابن كثير، (١/٣٤٣).

الشَّيْطَانِ ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦]. وَكَلَّمَا أَرَادَ الْعَبْدُ تَوَجُّهًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَلْبِهِ جَاءَ مِنَ الْوَسْوَاسِ أُمُورٌ أُخْرَى، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ بِمَنْزِلَةِ قَاطِعِ الطَّرِيقِ، كَلَّمَا أَرَادَ الْعَبْدُ يَسِيرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَرَادَ قَطْعَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قِيلَ لِبَعْضِ السَّلَفِ: إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ: لَا نُؤَسَّسُ، فَقَالَ: صَدَقُوا، وَمَا يَصْنَعُ الشَّيْطَانُ بِالْبَيْتِ الْخَرَابِ (١).

وعلاج الوسوسة على النحو الآتي:

- ١ - طلب العلم الشرعي.
- ٢ - تقوية الإيمان بالطاعات والنوافل.
- ٣ - مداومة ذكر الله تعالى على كل حال؛ فهي حصن حصين من الوسوسة، ومن كل شرٍّ.
- ٤ - مجالسة الصالحين، ومخالطة الناس الذين يستفيد منهم.
- ٥ - معرفة أن الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ.
- ٦ - الاعتراف بأن الوسوسة من أبطل الباطل.
- ٧ - الاستعاذة بالله من الشيطان كما ثبت في الأدلة.
- ٨ - لا يطيل الجلوس والمكث في الحمام أو الخلاء فوق حاجته؛ لأن في ذلك كشفًا للعودة بلا حاجة؛ ولأن الحشوش والمراحيض مأوى الشياطين، والنفوس الخبيثة (٢).

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، (٢/ ٢٢٤).

(٢) صلاة المؤمن (ص-٣٥) - د/ سعيد بن علي بن وهف القحطاني رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

٩ - ينضح فرجه وسراويله بالماء؛ فقد روى أبو داود بسند صحيح عَنْ سُفْيَانَ بْنِ الْحَكَمِ الثَّقَفِيِّ أَوْ الْحَكَمِ بْنِ سُفْيَانَ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَالَ يَتَوَضَّأُ وَيَتَنَضَّحُ^(١).

١٠ - إِذَا تَيَقَّنَ الطَّهَارَةَ ثُمَّ شَكَّ فِي الْحَدَثِ فَلَهُ أَنْ يَصَلِّيَ بِطَهَارَتِهِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى طَهَارَةٍ، وَإِذَا تَيَقَّنَ الْحَدَثَ ثُمَّ شَكَّ هَلْ تَطَهَّرَ أَمْ لَا فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَصَلِّيَ إِلَّا بَعْدَ الطَّهَارَةِ؛ وَإِذَا شَكَّ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْعِبَادَةِ، فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، إِلَّا إِذَا تَيَقَّنَ يَقِينًا لَا شَكَّ فِيهِ، وَإِذَا كَثُرَتِ الشُّكُوكُ فَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا^(٢).

■ السبب الرابع: ذكر الموت في الصلاة.

إذا كان المصلي سيموت ولا بد، فإن هناك صلاة ما هي آخر صلاة له فليخشع في صلاته التي هو فيها فإنه لا يدري لعلها تكون هذه هي ولذلك أمر النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ مُودِّعٍ؛ لِأَنَّهُ مَنْ اسْتَشْعَرَ أَنَّهُ مُودِّعٌ بِصَلَاتِهِ، أَتَقْنَهَا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهَا.

فقد روى أحمد وابن ماجه عَنْ عُثْمَانَ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: عِظْنِي وَأَوْجِزْ، فَقَالَ: " إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ، وَلَا تَكَلِّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَدِرُ مِنْهُ غَدًا، وَاجْمَعْ الْإِيَّاسَ مِمَّا فِي يَدَيْ النَّاسِ " ^(٣).

وعند ابن نصر المروزي عَنْ سَعِيدِ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ سَعْدِ بْنِ

(١) أبو داود، (١٦٦)، وصححه الحاكم، (٢٧٧/١)، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: تحفة المؤمنين في ذم الوسوسة وعلاج الموسوسين، [ص ١ - ٣٠].

(٣) أخرجه أحمد، (٢٣٤٩٨)، وابن ماجه، (٤١٧١)، وانظر الصحيحة ٤٠١.

عُمَارَةَ، أَخِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ أَنْ رَجُلًا، قَالَ لَهُ: «عِظْنِي فِي نَفْسِي رَحِمَكَ اللَّهُ إِذَا أَنْتَ قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الوُضُوءَ فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا وُضُوءَ لَهُ وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ، ثُمَّ إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ وَاتْرُكْ طَلَبَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَاجَاتِ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ وَأَجْمَعُ الْيَأْسَ مِمَّا عِنْدَ النَّاسِ فَإِنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ، وَانظُرْ إِلَى مَا تَعْتَدِرُ مِنْهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ فَاجْتَنِبْهُ» (١).

وفي الحلية لأبي نعيم: عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، قَالَ: قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِذَا صَلَّيْتَ صَلَاةَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ، لَا تَظُنَّ أَنَّكَ تَعُودُ إِلَيْهَا أَبَدًا، وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَمُوتُ بَيْنَ حَسَنَتَيْنِ: حَسَنَةً قَدَّمَهَا، وَحَسَنَةً آخَرَهَا " (٢).

وعنده أيضا عن عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ قَالَ: " أَوْصَى رَجُلٌ ابْنَهُ، قَالَ: يَا بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ الْيَوْمَ خَيْرًا مِنْكَ أَمْسٍ، وَغَدًا خَيْرًا مِنْكَ الْيَوْمَ فَافْعَلْ، وَإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ، وَإِيَّاكَ وَكَثْرَةَ طَلَبِ الْحَاجَاتِ؛ فَإِنَّهَا فَقْرٌ حَاضِرٌ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدِرُ مِنْهُ " (٣).

وعند ابن أبي شيبَةَ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ، قَالَ: " أَوْصَى رَجُلٌ ابْنَهُ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ أَظْهَرِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّهُ غَنِيٌّ، وَإِيَّاكَ وَطَلَبَ الْحَاجَاتِ فَإِنَّهُ فَقْدٌ حَاضِرٌ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدِرُ مِنْهُ بِالْقَوْلِ، وَإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ لَا تَرَى أَنَّكَ تَعُودُ " (٤). وفي رواية « وَأَنْتَ تَرَى أَنَّكَ لَنْ تُصَلِّيَ بَعْدَهَا أَبَدًا » (٥).

(١) تعظيم قدر الصلاة، (٩٤٦).

(٢) الحلية، (١/٢٣٣).

(٣) الحلية، (٤/٢٦٣).

(٤) ابن أبي شيبَةَ، (٣٥٥٩١).

(٥) المحتضرين لابن أبي الدنيا، (٣٢١).

قال المناوي: (إذا قمت في صلاتك) أي شرعت فيها (فصل صلاة مودع) أي إذا شرعت فيها فأقبل على الله وحده ودع غيره لمناجاة ربك (١).

وقال في موضع آخر: (وصل صلاة مودع) بأن تترك القوم وحديثهم بقلبك وترمي بالأشغال الدنيوية خلف ظهرك وتقبل على ربك بتخشع وتدبر، وتودع هواك ودنياك وكل ما سواه.

فهذه الوصايا الثلاث يا لها من وصايا، إذا أخذ بها العبد: تمت أموره وأفلح.

فالوصية الأولى: تتضمن تكميل الصلاة، والاجتهاد في إيقاعها على أحسن الأحوال. وذلك بأن يحاسب نفسه على كل صلاة يصلّيها، وأنه سيتم جميع ما فيها: من واجب، وفروض، وسنة، وأن يتحقق بمقام الإحسان الذي هو أعلى المقامات. وذلك بأن يقوم إليها مستحضراً وقوفه بين يدي ربه، وأنه يناجيه بما يقوله، من قراءة وذكر ودعاء ويخضع له في قيامه وركوعه، وسجوده وخفضه ورفع.

ويعينه على هذا المقصد الجليل: توطين نفسه على ذلك من غير تردد ولا كسل قلبي، ويستحضر في كل صلاة أنها صلاة مودع، كأنه لا يصلّي غيرها.

ومعلوم أن المودع، يجتهد اجتهاداً يبذل فيه كل وسعه. ولا يزال مستصبحاً لهذه المعاني النافعة، والأسباب القوية، حتى يسهل عليه الأمر، ويتعود ذلك.

والصلاة على هذا الوجه: تنهى صاحبها عن كل خلق رذيل، وتحثه على كل

(١) فيض القدير، (١/٤١٩).

خلق جميل؛ لما تؤثره في نفسه من زيادة الإيمان، ونور القلب وسروره، ورغبته التامة في الخير (١).

وقال القاري: أَي: مُودِّعٌ لِمَا سِوَى اللَّهِ بِالإِسْتِغْرَاقِ فِي مُنَاجَاةِ مَوْلَاكَ، أَوْ المَعْنَى صَلَّ صَلَاةً مَنْ يُودِّعُ الصَّلَاةَ، وَمِنْهُ حَجَّةُ الوَدَاعِ أَي: اجْعَلْ صَلَاتَكَ آخِرَ الصَّلَاةِ فَرَضًا فَحَسِّنْ خَاتِمَةَ عَمَلِكَ، وَأَقْصِرْ طُولَ أَمَلِكَ لِإِحْتِمَالِ قُرْبِ أَجَلِكَ. وَقَالَ الطَّبِيبِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَي: فَأَقْبِلْ عَلَيَّ اللهُ بِشِرَاشِرِكَ، وَوَدِّعْ غَيْرَكَ لِإِمْنَانِكَ رَبِّكَ (٢).

وأخرج أبو طاهر المخلص في المخلصيات، والبيهقي في الزهد، وابن عساكر في معجم شيوخه، وأبو حفص عمر بن الخضر في تاريخ ديسر عن ابن عمر قال: أتى رسول الله ﷺ رجلاً، فقال له: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنِي بِحَدِيثٍ وَاجْعَلْهُ مُوجِزًا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «صَلِّ صَلَاةً مُودِّعًا كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَإِنَّا سَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ تَعِشْ غَنِيًّا وَإِيَّاكَ وَمَا تَعْتَدِرُ مِنْهُ» (٣).

قال المناوي: أي مودع لهواه مودع لعمره وسائر إلى مولاه (كأنك تراه) عياناً (٤).

وَقَالَ بَكْرُ المَزْنِيِّ: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْفَعَكَ صَلَاتُكَ فَقُلْ: لَعَلِّي لَا أَصَلِّي غَيْرَهَا» (٥).

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرّة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، (١٦٨/).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٣٢٧٠/٨).

(٣) المخلصيات، (٣٠٧٣)، والبيهقي في الزهد (٥٢٨)، معجم شيوخ ابن عساكر، (٣٢٣)، تاريخ ديسر، (ص ٤٦-٤٧)، وصححه الألباني في الصحيحة، (١٩١٤).

(٤) فيض القدير، (٤/١٩٧).

(٥) قصر الأمل لابن أبي الدنيا، (١٠٤).

وَأَقَامَ مَعْرُوفٌ الْكَرْحِيَّ الصَّلَاةَ، ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ: تَقَدَّمَ فَصَلِّ بِنَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي إِنْ صَلَّيْتُ بِكُمْ هَذِهِ الصَّلَاةَ، لَمْ أَصَلِّ بِكُمْ غَيْرَهَا، فَقَالَ مَعْرُوفٌ: وَأَنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ أَنَّكَ تُصَلِّي صَلَاةً أُخْرَى؟ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ طُولِ الْأَمَلِ، فَإِنَّهُ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ (١).

قال بعضهم من [الوافر] (٢):

وَمَا أَدْرِي وَإِنْ أَمَلْتُ عُمْرًا لَعَلِّي حِينَ أَصْبِحُ لَسْتُ أُمْسِي
أَلَمْ تَرَ أَنَّ كُلَّ صَبَاحٍ يَوْمٍ وَعُمْرُكَ فِيهِ أَقْصَرُ مِنْهُ أُمْسٍ
قِيلَ لِابْنِ الرَّقَاشِيِّ: كَانَ أَبُوكَ يَتَمَثَّلُ مِنَ الشَّعْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: كَانَ يَتَمَثَّلُ:

[البسيط] (٣):

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ نَقَطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُجْتَهِدًا فَإِنَّمَا الرَّبْحُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْعَمَلِ
قَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّ مِنْ أَنْفَعِ أَيَّامِ الْمُؤْمِنِ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَا ظَنَّ أَنَّهُ لَا يُدْرِكُ
آخِرَهُ (٤).

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ لِأَهْلِهِ: أَسْتُودِعُكُمْ اللَّهَ، فَلَعَلَّهَا أَنْ
تَكُونَ مَنِيَّتِي الَّتِي لَا أَقُومُ مِنْهَا فَكَانَ هَذَا دَأْبَهُ إِذَا أَرَادَ النَّوْمَ (٥).

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي، (١/٤٦٩).

(٢) ديوان أبي العتاهية، (٦٧).

(٣) الزهد لابن أبي الدنيا، (٤٣٩).

(٤) جامع العلوم والحكم، (٣/١١٣٥).

(٥) قصر الأمل، (٢٢٧).

وَقَالَ بَكْرُ المُرْنَبِيِّ: إِنِ اسْتَطَاعَ أَحَدُكُمْ أَنْ لَا يَبِيتَ إِلَّا وَعَهْدُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ مَكْتُوبٌ، فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ أَنْ يَبِيتَ فِي أَهْلِ الدُّنْيَا، وَيُصْبِحُ فِي أَهْلِ الآخِرَةِ (١).

قَالَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ: سَأَلْتُ عَطْوَانَ بْنَ عُمَرَ التَّيْمِيِّ، قُلْتُ: مَا قِصْرُ الأَمَلِ؟
قَالَ: مَا بَيْنَ تَرْدُدِ النَّفْسِ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ الفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ، فَبَكَى، وَقَالَ:
يَقُولُ: يَتَنَفَّسُ فَيَخَافُ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَنْقَطِعَ نَفْسُهُ، لَقَدْ كَانَ عَطْوَانٌ مِنَ المَوْتِ
عَلَى حَذَرٍ (٢).

وَكَتَبَ الأَوْزَاعِيُّ إِلَى أَخٍ لَهُ: أَمَّا بَعْدُ، فَقدَ أَحِيطَ بِكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَاعْلَمْ
أَنَّهُ يَسَارٌ بِكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَكَيْلَةٍ، فَاحْذَرِ اللهَ وَالمَقَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنْ يَكُونَ آخِرَ
عَهْدِكَ بِهِ، وَالسَّلَامُ (٣).

قال ابن المعتز (٤):

نَسِيرٌ إِلَى الأَجَالِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ
وَلَمْ أَرْ مِثْلَ المَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصَّبَا
تَرَحَّلَ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى
وَأَيَّامَنَا تُطْوَى وَهِنَّ مَرَا حِلُّ
إِذَا مَا نَحَطَّتْهُ الأَمَانِيُّ بَاطِلٌ
فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَامِلٌ
فَعُمُرُكَ أَيَّامٌ وَهِنَّ قَلَائِلٌ

(١) جامع العلوم والحكم، (٣/ ١١٣٥).

(٢) قصر الأمل، (٣٤).

(٣) البداية والنهاية، (١٠/ ١٢٧).

(٤) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، (٢/ ١٨٢).

قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: بِأَيِّ شَيْءٍ نَسْتَعِينُ عَلَى قَصْرِ الْأَمَلِ؟ قَالَ: مَا نَدْرِي إِنَّمَا هُوَ تَوْفِيقٌ (١).

قَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يَزَلِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ سَرِيعَيْنِ فِي نَقْصِ الْأَعْمَارِ، وَتَقْرِيبِ الْأَجَالِ، هَيْهَاتَ قَدْ صَحَبَا نُوحًا وَعَادًا وَثَمُودًا وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، فَأَصْبَحُوا أَقْدَمُوا عَلَى رَبِّهِمْ، وَوَرَدُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَصْبَحَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ غَضَّيْنِ جَدِيدَيْنِ، لَمْ يُبْلِهَمَا مَا مَرَّ بِهِ، مُسْتَعِدِّينَ لِمَنْ بَقِيَ بِمِثْلِ مَا أَصَابَا بِهِ مَنْ مَضَى (٢).

وقال محمد بن فتح الأندلسي [الطويل] (٣):

أَيَا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ نَهَارٍ يَقُودُهَا إِلَى عَسْكَرِ الْمَوْتَى وَلَيْلٍ يَذُودُهَا وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ لِرَجُلٍ: كَمْ أَتَتْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: سِتُونَ سَنَةً، قَالَ: فَأَنْتَ مُنْذُ سِتِينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ يُوْشِكُ أَنْ تَبْلُغَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَقَالَ الْفُضَيْلُ: أَتَعْرِفُ تَفْسِيرَهُ تَقُولُ: أَنَا لِلَّهِ عَبْدٌ وَإِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لِلَّهِ عَبْدٌ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَسْئُولٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ، فَلْيَعْدِدْ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَمَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ يَسِيرَةٌ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: تُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ يُغْفَرُ لَكَ مَا مَضَى، فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ، أُخِذْتَ بِمَا مَضَى وَبِمَا بَقِيَ (٤).

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ يَحْيَى بْنِ مُعَاذِ الرَّازِيِّ: الدُّنْيَا خَمْرُ الشَّيْطَانِ، مَنْ سَكَرَ مِنْهَا

(١) جامع العلوم والحكم، (٣/ ١١٣٤).

(٢) جامع العلوم والحكم، (٣/ ١١٣٣).

(٣) تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي، (٢/ ٧٣).

(٤) الحلية، (٨/ ١١٣).

لَمْ يَفُقْ إِلَّا فِي عَسْكَرِ المَوْتَى نَادِمًا مَعَ الخَاسِرِينَ (١).

ولِهَذَا أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ أَنْ يَكُونَ بِلَاغُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّايِبِ (٢).

وقال بعضهم [الطويل] (٣):

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِرٍ وَلَا بُدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرٍ
وَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَمَلِ عُدَّةٍ وَلَا سِيِّمًا إِنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرٍ
وأخرج الديلمي عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " اذْكُرْ

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، (١٨٦)..

(٢) *فعن يحيى بن جعدة قال: «عاد حباباً ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: أنشراً يا أبا عبد الله، ترد على محمد ﷺ الحوض؛ فقال: فكيف بهذا! وأشار إلى أعلى البيت وأسفله، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما يكفي أحدكم من الدنيا كزاد الراكب». قال الهيثمي في المجمع: (١٠/٢٥٤)، رواه أبو يعلى (٧٢١٤) والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

*وروى ابن حبان في صحيحه، (٧٠٦)، عن عامر بن عبد الله، أن سلمان الخير حين حضره الموت عرفوا منه بعض الجزع، قالوا: ما يجزئك يا أبا عبد الله، وقد كانت لك سابقة في الخير، شهدت مع رسول الله ﷺ، معازي حسنة وفتوحاً عظيماً؟ قال: يجزني أن حبسنا ﷺ حين فارقتنا عهد إلينا، قال: «ليكيف اليوم منكم كزاد الراكب» فهذا الذي أجزعني، فجمع ما ل سلمان، فكان قيمته خمسة عشر درهماً. - وانظر «الصحيحة» (١٧١٦).

* وروى الترمذي (٢٣٢٧)، والنسائي (٢١٨/٨)، عن أبي وإيل، قال: جاء معاوية إلى أبي هاشم بن عتبة، وهو مريض يعوده، فقال: يا خال ما يبكيك أو جمع يشترك أم حرص على الدنيا؟ قال: كل لا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً لم أخذ به، قال: إنما يكفيك من جمع المال خادم ومركب في سبيل الله وأجدني اليوم قد جمعت. حسنة الألباني - المشكاة (٥١٨٥).

* وروى الدارمي (٢٧٦٠) في سننه عن عبد الله بن مولة، عن بريدة الأسلمي، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُكْفِي أَحَدَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا خَادِمٌ وَمَرْكَبٌ» وصححه محققه رحمه الله.

(٣) جامع العلوم والحكم، (٣/١١٣٢).

الْمَوْتِ فِي صَلَاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلَّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَدَرُ مِنْهُ" (١).

السبب الخامس: تدبر القرآن، وفهم وتدبر معاني أقوال الصلاة.

حث الله تعالى على تدبر القرآن كله ولم يستثن شيئاً منه، ووبخ من لم يتدبره، وبين أن الحكمة من إنزاله أن يتدبره الذين أنزل إليهم ويتعظ به أصحاب العقول، ولولا أن له معنى يعلم بالتدبر لكان الحث على تدبره من لغو القول، ولكان الاشتغال بتدبره من إضاعة الوقت، ولفاتت الحكمة من إنزاله، ولما حسن التويخ على تركه.

والحث على تدبر القرآن شامل لتدبر جميع آياته الخبرية العلمية والحكمية العملية، فكما أننا مأمورون بتدبر آيات الأحكام لفهم معناها والعمل بمقتضاها، إذ لا يمكن العمل بها بدون فهم معناها - فكذلك نحن مأمورون بتدبر آيات الأخبار لفهم معناها، واعتقاد مقتضاها، والثناء على الله تعالى بها، إذ لا يمكن اعتقاد ما لم نفهمه، أو الثناء على الله تعالى به - (٢).

فمن تدبر القرآن طالباً للهدى تبيين له طريق الحق"، لكن هذا مسبوق بأمرين: التدبر، وحسن النية.

(١) أخرجه الديلمي، (١/ ٤٣١)، رقم (١٧٥٥)، انظر صحيح الجامع: ٨٤٩، الصحيح: ٢٨٣٩.

(٢) تقريب التدمرية، للعثيمين رَحِمَهُمُ اللهُ، (٧٠).

والدليل على ذلك عدة آيات؛ منها:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٣٢].

أما من تدبر القرآن ليضرب بعضه ببعض وليجادل بالباطل ولينصر قوله كما يوجد عند أهل البدع وأهل الزيغ فإنه يعمى عن الحق والعياذ بالله (١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: الْمَطْلُوبُ شَرْعًا إِنَّمَا هُوَ التَّحْسِينُ بِالصَّوْتِ الْبَاعِثِ عَلَى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَفْهَمِهِ وَالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالْإِنْقِيَادِ لِلطَّاعَةِ

وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فَنُونًا ظَاهِرَةً وَخَفِيَّةً مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ نُزُّهُ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَيِّرٍ﴾ [هُود: ١]

فَأَحْكَمَتْ أَلْفَاظُهُ وَفَصَّلَتْ مَعَانِيَهُ، فَكُلُّ مَنْ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ فَصِيحٌ لَا يُجَارَى وَلَا يُدَانَى، فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ مَغِيبَاتٍ مَاضِيَةٍ وَأَتِيَةٍ كَانَتْ وَوَقَعَتْ طَبَقَ مَا أَخْبَرَ سَوَاءً

(١) شرح العقيدة الواسطية، (١/٤٦٠).

بِسَوَاءٍ، وَأَمَرَ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَنَهَى عَنْ كُلِّ شَرٍّ كَمَا قَالَ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] أَي: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ، فَكُلُّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَعَدْلٌ وَهُدًى لَيْسَ فِيهِ مُجَازَفَةٌ وَلَا كَذِبٌ وَلَا افْتِرَاءٌ كَمَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَكْذَابِ وَالْمُجَازَفَاتِ

فَإِنَّهُ إِنْ تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَهُ وَجَدْتَهَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ، لَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَمَلُّ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَإِنْ أَخَذَ فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ جَاءَ مِنْهُ مَا تَقْشَعُرُّ مِنْهُ الْجِبَالُ الصُّمُّ الرَّاسِيَاتُ، فَمَا ظَنَّكَ بِالْقُلُوبِ الْفَاهِمَاتِ، وَإِنْ وَعَدَ آتَى بِمَا يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْأَذَانَ، وَيَشْوِقُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَمُجَاوَرَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، كَمَا قَالَ فِي التَّرْغِيبِ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ فُرْقَةِ أَعْيُنِ جَزَاءٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿ السَّجْدَةِ: ١٧ ﴾ [١٧] وَقَالَ: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ [الزُّخْرُفِ: ٧١]، وَقَالَ فِي التَّرْهِيْبِ: ﴿ أَقَامْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ [الإِسْرَاءِ: ٦٨]، ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ ﴿١٦﴾ أَمْرٌ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿٧٧﴾ [المُلْكِ: ١٦، ١٧] وَقَالَ فِي الزُّجْرِ: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وَقَالَ فِي الْوَعْظِ: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٧٦﴾ مَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٧٧﴾ [الشُّعْرَاءِ: ٢٠٥ - ٢٠٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْحَلَاوَةِ، وَإِنْ جَاءَتِ الْآيَاتُ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَمْرِ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ حَسَنٍ نَافِعٍ طَيِّبٍ مَحْبُوبٍ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ رَذِيلٍ دَنِيٍّ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فَأَوْعَهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مَّا يُأْمُرُ بِهِ

أَوْ شَرُّ يُنْهَى عَنْهُ.

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْجَبَّيْتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿الْأَعْرَافِ: ١٥٧﴾، وَإِنْ جَاءَتِ الْآيَاتُ فِي وَصْفِ الْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَفِي وَصْفِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِمَا لِأَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ وَالْمَلَاذِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، بَشَّرَتْ بِهِ وَحَدَّرَتْ وَأَنْذَرَتْ؛ وَدَعَتْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ، وَزَهَّدَتْ فِي الدُّنْيَا وَرَغَبَتْ فِي الْآخِرَى، وَثَبَّتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى، وَهَدَتْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ وَشَرَعِهِ الْقَوِيمِ، وَنَفَتْ عَنِ الْقُلُوبِ رِجْسَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (١).

وَلِهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ" لَفْظُ مُسْلِمٍ (٢).

قَوْلُهُ: "وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا" أَي: الَّذِي اخْتَصَصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُعْجِزَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُعَارِضُوهُ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مُعْجِزَةً عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال السعدي: وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى، وهو متناول لمن ترك

(١) تفسير القرآن العظيم، (١/١٩٩-٢٠٠).

(٢) البخاري، (٤٩٨١)، ومسلم، (١٥٢).

تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه (١).

قال تعالى: ﴿ أَقَلَّ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ أي أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه أي فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان ولمنعهم من الكفر ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أفعالها (٢).

وقال تعالى: ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود (٣).

واعْلَمْ أَنَّكَ كُلَّمَا أَمَعَنْتَ وَتَعَمَّقْتَ فِي تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ فَتَحَ اللَّهُ لَكَ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعْرِفَةِ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ، وَصِرْتَ تَسْتَنْبِطُ مِنَ الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا لَا يَسْتَنْبِطُهُ غَيْرُكَ، فَاحْرِصُوا عَلَى هَذَا التَّدْبِيرِ (٤).

علامات التدبر:

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم علامات وصفات تصف حقيقة تدبر القرآن:

- (١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٥٦).
- (٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٥٥٤).
- (٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٧١٢).
- (٤) تفسير القرآن الكريم «سورة الزخرف» للعثيمين، رَحِمَهُ اللهُ، (٣٦).

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٨٣]، وقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَايَةً إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِعَايَةِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [سورة الفرقان: ٧٣]، وقال: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّآ كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [سورة القصص: ٥٣]، قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ [سورة الزمر: ٢٣]

فتحصّل من الآيات السابقة سبع علامات هي:

١- اجتماع القلب والفكر حين القراءة

٢- البكاء من خشية الله

٣- زيادة الخشوع

٤- زيادة الإيمان

٥- الفرح والاستبشار

٦- القشعريرة خوفا من الله تعالى ثم غلبة الرجاء والسكينة

٧- السجود تعظيما لله عز وجل.

فمن وجد واحدة من هذه الصفات أو أكثر فقد وصل إلى حالة التدبر والتفكير، أما من لم يحصل أيا من هذه العلامات فهو محروم من تدبر القرآن ولم يصل بعد إلى شئ من كنوزه وذخائره (١).

في الزهد لابن المبارك عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى التَّمِيمِيِّ قَالَ: " مَنْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يُبْكِيهِ لَخَلِيقٍ إِلَّا يَكُونُ أُوتِيَ عِلْمًا يَنْفَعُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَعَتَ الْعُلَمَاءِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ١٠٧] إِلَى قَوْلِهِ: يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ " (٢).

وفي الزهد أيضا لابن المبارك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ جَدِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: قُلْتُ لَهَا: كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُونَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ؟ قَالَتْ: «كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللَّهُ، تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعُرُّ جُلُودُهُمْ» (٣).

مفهوم خاطئ لمعنى التدبر:

إن مما يصرف كثيرا من المسلمين عن تدبر القرآن والتفكير فيه وتذكر ما فيه

(١) مفاتيح تدبر القرآن، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، (ص-١٠).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك، (١٠١٦).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة، (٢/ ١٥٦).

من المعاني العظيمة اعتقادهم صعوبة فهم القرآن وهذا خطأ لمفهوم تدبر القرآن وانصراف عن الغاية التي من أجلها أنزل، فالقرآن أولاً كتاب تربية وتعليم، وكتاب هداية وبصائر لكل الناس، كتاب هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين، كتاب قد يسر الله تعالى فهمه وتدبره كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [سورة القمر: (١٧)]

قال ابن هبيرة: " ومن مكاييد الشيطان تنفيره عباد الله من تدبر القرآن لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر فيقول هذه مخاطرة حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلم في القرآن تورعا " (١)

قال الشاطبي: " فَمِنْ حَيْثُ كَانَ الْقُرْآنُ مُعْجِزًا أَفْحَمَ الْفُصْحَاءَ، وَأَعْجَزَ الْبُلْغَاءَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛ فَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ عَرَبِيًّا جَارِيًّا عَلَى أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ، مُيسِّرًا لِلْفَهْمِ فِيهِ عَنِ اللَّهِ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى " اهـ. (٢)

قال ابن القيم: " من قال إن له تأولا لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه ففي قلبه منه حرج " اهـ (٣).

فالقرآن معظمه واضح وبيّن وظاهر لكل الناس، كما قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهايته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله (٤).

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك، (١٠١٦).

(٢) الموافقات للشاطبي، (١٤٤ / ٤).

(٣) التبيان في أقسام القرآن، (١ / ٢٣٠ - ٢٣١).

(٤) شرح (مقدمة التفسير)، لابن تيمية، (١٥٠).

ومعظم القرآن من القسمين الأولين، فحينما سمع الأعرابي قول الله تعالى:
﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ بَأْسِ الْجَانِّ ﴾ [سورة الذاريات: ٢٣]
قال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى أقسم (١).

والقلب بيد الله وحده لا شريك له يفتحه متى شاء ويغلقه متى شاء بحكمته
وعلمه سبحانه ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [سورة الأنفال: ٢٤]،
وقد جعل لذلك أسبابا ووسائل من سلكها وفق ومن تخلف عنها خذل، فالفتح
من الله وحده، وما يحصل لك من التدبر فهو نعمة عظيمة من الله تعالى
تستوجب الشكر لا الفخر فمتى أعطاك الله فهم القرآن وفتح لك معانيه فاحمد
الله تعالى واسأله المزيد، وانسب هذه النعمة إليه وحده، اعترف بها ظاهرا
وباطنا (٢).

علامات حب القلب للقرآن:

- ١- الفرح بلقائه والجلوس معه أوقاتا طويلة دون ملل.
- ٢- الشوق إلى لقائه متى بعد العهد عنه وحال دون ذلك بعض لموانع،
وتمني ذلك والتطلع إليه ومحاولة إزالة العقبات التي تحول دونه.
- ٣- كثرة مشاورته والثقة بتوجيهاته والرجوع إليه فيما يشكل من أمور الحياة
صغيرها وكبيرها.
- ٤- طاعته، أمرا ونهيا.

(١) شعب الإيمان، (٢/ ٤٨٠).

(٢) مفاتيح تدبر القرآن، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، (ص-١٣).

فلا شك أن من أحبَّ القرآن تدبَّره، وأقبل على التلذذ بتلاوته، وهذا دليل على محبته للمتكلِّم به سبحانه؛

ففي مسند ابن الجعد عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «لَا يَسْأَلُ عَبْدٌ عَنِ نَفْسِهِ إِلَّا الْقُرْآنَ فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ وَيَعْجِبُهُ فَهُوَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» (١).

وسائل تحصيل حب القلب للقرآن وسيلتان:

الوسيلة الأولى: التوكل على الله تعالى والاستعانة به، وسؤاله سبحانه أن يرزقك (حب القرآن)

أخرج الإمام أحمد وصححه ابن حبان عن الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أُمَّتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَا ضَى فِي حُكْمِكَ، عَدَلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا "، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: " أَجَلٌ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ " (٢)

ومن الاستعانة بالله في حصول تدبر القرآن ما شرع لقارئ القرآن من

(١) مسند ابن الجعد، برقم، (١٩٥٦).

(٢) مسند أحمد، (٤٣١٨) وابن حبان (٩٧٢)، وانظر الصحيحة (١٩٩).

الاستعاذة بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ومن البسملة في أوائل السور ففيها طلب العون من الله تعالى على تدبر القرآن عامة والسورة التي يريد قراءتها خاصة (١).

الوسيلة الثانية: فعل الأسباب:

وخير الأسباب وأنفعها في هذا المقام العلم ووسيلته: القراءة أو السماع: أي القراءة عن عظمة القرآن مما ورد في القرآن والسنة، وأقوال السلف في تعظيمهم للقرآن وحبهم له. وينبغي أن نعلم أن عدم حبا للقرآن وتعظيمنا له سببه الجهل بقيمته، فمن لا يعرف قيمة القرآن يزهده فيه ويهجره ويشغل بما هو أدنى منه.

أهداف قراءة القرآن:

الغالب على القارئ اليوم أنه يقصر نفسه على هدف ومقصد الثواب فحسب أما المقاصد والأهداف الأخرى فيغفل عنها. مثل المناجاة-المسألة-الشفاء-العلم-العمل. ولكل امرئ ما نوى.

قال القرطبي: " فَإِذَا اسْتَمَعَ الْعَبْدُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ عَلَى مَا يُحِبُّ اللَّهُ أَفْهَمَهُ كَمَا يُحِبُّ، وَجَعَلَ لَهُ فِي قَلْبِهِ نورا." (٢)

(١) مفاتيح تدبر القرآن، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، (ص-١٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، (١١/١٧٦).

روى أبو عبيد و ابن أبي شيبة والطبراني عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (١). وفي رواية «فَأَثِرُوا» (٢).

ما معنى (ثوير القرآن)؟!

الثوير في اللسان العربي: التقليب والنظر في الوجوه، ومنه ﴿وَأَثَرُوا الْأَرْضَ﴾ [الرُّوم: ٩] أي قلبوها بالحرث والزراعة (٣).

وثوير القرآن: «مناقشته ومدارسته والبحث فيه، وهو ما يعرف به» (٤).

«قراءته ومفاتشة العلماء به» (٥)

«أن يستوضح كل آية ما يليق بها، إذ القرآن مشتمل على ذكر صفات الله تعالى، وذكر أفعاله، وذكر أحوال أنبيائه عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين، وكيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار» (٦)

«لَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تَفْسِيرِ الظَّاهِرِ» (٧)

فعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من

(١) مفاتيح تدبر القرآن، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، (ص-١٥).

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، (٩٦) وابن أبي شيبة، (٣٠٠١٨)، و فضائل القرآن للفريابي (٧٠)، قال الهيثمي: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِأَسَانِيدٍ، وَرِجَالُ أَحَدِهَا رِجَالُ الصَّحِيحِ.

(٣) تفسير القرطبي، (١/٤٥٣).

(٤) المحرر الوجيز، (١/٣).

(٥) تفسير القرطبي، (١/٤٤٦).

(٦) إحياء علوم الدين، (١/٢٨٢).

(٧) البرهان في علوم القرآن، (٢/١٥٤).

رهبم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار (١).

وَعَنْ مَسْرُوقِ بْنِ الْأَجْدَعِ، قَالَ: «مَا نَسَأَلُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَعِلْمُهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ عَلِمْنَا قَصَرَ عَنْهُ» (٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَتَعَلَّمُوهُ، وَعَلِّمُوهُ أَبْنَاءَكُمْ، فَإِنَّكُمْ عَنْهُ تُسْأَلُونَ، وَبِهِ تُجْزَوْنَ، وَكَفَى بِهِ وَاعِظًا لِمَنْ عَقَلَ» (٣).

وأخرج أبو عبيد عن الحسن قال: " قُرَاءُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ أَصْنَافٍ: فَصَنَّفُ اتَّخَذُوهُ بِضَاعَةً يَأْكُلُونَ بِهِ، وَصَنَّفُ أَقَامُوا حُرُوفَهُ وَضَيَّعُوا حُدُودَهُ، وَاسْتَطَالُوا بِهِ عَلَى أَهْلِ بِلَادِهِمْ، وَاسْتَدْرُوا بِهِ الْوَلَاةَ كَثُرَ هَذَا الضَّرْبُ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ، لَا كَثُرَهُمُ اللَّهُ، وَصَنَّفُ عَمَدُوا إِلَى دَوَاءِ الْقُرْآنِ فَوَضَعُوهُ عَلَى دَاءِ قُلُوبِهِمْ فَوَكَّدُوا بِهِ فِي مَحَارِبِهِمْ وَحَنُّوا بِهِ فِي بَرَانِسِهِمْ، وَاسْتَشْعَرُوا الْخَوْفَ، وَارْتَدُّوا الْحُزْنَ، فَأَوْلَيْكَ الَّذِينَ يَسْقِي اللَّهُ بِهِمُ الْغَيْثَ، وَيَنْصُرُ بِهِمُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَاللَّهُ لَهَذَا الضَّرْبُ فِي حَمَلَةِ الْقُرْآنِ أَعَزُّ مِنْ الْكَبْرِيتِ الْأَحْمَرِ " (٤)

ما هو العلم الذي نريده من القرآن:

قال ابن القيم: (٥)

والعلم أقسام ثلاث ما لها من رابع والحق ذو تبيان

(١) التبيان في آداب حملة القرآن (٥٤).

(٢) الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة، لابن القيم، (٣/ ٩٢٥).

(٣) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، (٥٢).

(٤) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، (١٢٧).

(٥) متن القصيدة النونية، (٢٦٦).

علم بأوصاف الإله وفعله وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي جاءت عن المبعوث بالقرآن

يعني: العلم بالله تعالى والعلم باليوم الآخر، وعلم الأمر والنهي

ثانيا: قراءة القرآن بقصد العمل به:

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ: «حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرَأُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا
يَسْتَقْرَأُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَخْلُفُوهَا حَتَّى يَعْمَلُوا
بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَمَلِ، فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا» (١).

فَإِذَا دَرَسَ الْقُرْآنَ فَبِحُضُورِ فَهْمٍ وَعَقْلِ، هِمَّتُهُ إِيقَاعُ الْفَهْمِ لِمَا أَلَزَمَهُ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ مِنْ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ، وَالْإِنْتِهَاءِ عَمَّا نَهَى، لَيْسَ هِمَّتُهُ مَتَى أَخْتِمُ السُّورَةَ، هِمَّتُهُ
مَتَى اسْتَعْنِي بِاللَّهِ عَنِ غَيْرِهِ، مَتَى أَكُونُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، مَتَى أَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ،
مَتَى أَكُونُ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ، مَتَى أَكُونُ مِنَ الْخَاشِعِينَ، مَتَى أَكُونُ مِنَ الصَّابِرِينَ،
مَتَى أَكُونُ مِنَ الصَّادِقِينَ، مَتَى أَكُونُ مِنَ الْخَائِفِينَ، مَتَى أَكُونُ مِنَ الرَّاجِينَ؟.

مَتَى أَرْهَدُ فِي الدُّنْيَا، مَتَى أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، مَتَى أَتُوبُ مِنَ الذُّنُوبِ، مَتَى
أَعْرِفُ النِّعَمَ الْمُتَوَاتِرَةَ، مَتَى أَشْكُرُ عَلَيْهَا، مَتَى أَعْقِلُ عَنِ اللَّهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، (١/ ٨٠)، وصححه العلامة أحمد شاكر محقق تفسير الطبري
وقال: أبو عبد الرحمن: هو السلمى، واسمه عبد الله بن حبيب، وهو من كبار التابعين. وقد
صرح بأنه حدثه الذين كانوا يقرئونه، وأنهم "كانوا يستقرون من النبي ﷺ"، فهم الصحابة.
وإبهام الصحابي لا يضر، بل يكون حديثه مسندا متصلا.

الخطاب، متى أفقه ما أتلو، متى أغلب نفسي على هواها، متى أجاهد في الله عز وجل حق الجهاد، متى أحفظ لسانِي، متى أغض طرفي، متى أحفظ فرجي، متى استحي من الله عز وجل حق الحياء، متى اشتغل بعبي، متى أصلح ما فسد من أمري، متى أحاسب نفسي؟.

متى أتزود ليوم معادي، متى أكون عن الله راضيًا، متى أكون بالله واثقًا، متى أكون بزجر القرآن متعظًا، متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلًا، متى أحب ما أحب، متى أبغض ما أبغض، متى أنصح لله، متى أخلص له عملي؟.

متى أقصر أملي، متى أتأهب ليوم موتي، وقد غيب عني أجلي، متى أعمر قبري، متى أفكر في الموقف وشديته، متى أفكر في خلوتي مع ربي، متى أفكر في المنقلب؟.

متى أحذر ما حذرني منه ربي، من نار حرها شديد، وقعرها بعيد، وعمها طويل، لا يموت أهلها فيستريحوا، ولا تقال عثرتهم، ولا ترحم عبرتهم، طعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم، كلما نصبت جلودهم بدلوا غيرها ليدوقوا العذاب، ندموا حيث لا ينفعهم الندم، وعضوا على الأيدي أسفًا على تقصيرهم في طاعة الله عز وجل، وركوبهم لمعاصي الله تعالى، فقال منهم قائل « يقول يا ليتني قدمت لحياتي » (الفجر / ٢٤)، وقال قائل « رب ارجعون. لعلي أعمل صالحًا فيما تركت » (المؤمنون / ١٠٠، ٩٩)، وقال قائل « يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » (الكهف / ٤٩)، وقال قائل « يا ليتني كنتي لمن أتخذ فلانًا خليلاً » (الفرقان / ٢٨)، وقالت فرقة منهم، ووجوههم تتقلب في أنواع من العذاب، فقالوا « يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا

الرَّسُولَا) (الْأَحْزَابُ / ٦٦) (١).

أخرج ابن المبارك في الزهد عن الحسن قال: « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ قَرَأَهُ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ، وَلَمْ يَتَأَوَّلُوا الْأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَوْلِهِ، وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾، وَمَا تَدَبَّرُوا آيَاتِهِ اتَّبَاعَهُ، وَاللَّهُ بِعِلْمِهِ، أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّى إِنْ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: لَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللَّهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ مَا يَرَى لَهُ الْقُرْآنُ فِي خُلُقِي، وَلَا عَمَلٍ، حَتَّى إِنْ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَفْرَأُ السُّورَةَ فِي نَفْسِي، وَاللَّهُ مَا هُوَ إِلَّا بِالْقُرَّاءِ، وَلَا الْعُلَمَاءِ، وَلَا الْحُكَمَاءِ، وَلَا الْوَرَعَةِ، مَتَى كَانَتِ الْقُرَّاءُ مِثْلَ هَذَا؟ لَا كَثُرَ اللَّهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ (٢) »

وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن قال: «... وَإِنَّمَا أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَنْ اتَّبَعَهُ بِعَمَلِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَقْرُؤُهُ» (٣).

وأخرج الطبراني في الأوسط وحسنه الحافظ ابن حجر عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، يَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، وَيَرْضَى لِرِضَاهُ» (٤).

وأخرج أبو عبيد في الفضائل عن أبي الزاهرية، أَنَّ رَجُلًا أَتَى أَبَا الدَّرْدَاءِ بِابْنِهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ إِنَّ ابْنِي هَذَا قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ. فَقَالَ: «اللَّهُمَّ غَفْرًا، إِنَّمَا جَمَعَ

(١) أَخْلَاقُ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ لِلْأَجْرِيِّ، (ص-٢٧).

(٢) الزهد لابن المبارك، (٧٩٣).

(٣) الزهد لأحمد، (١٦٦٠).

(٤) الأوسط (٧٢)، وحسنه ابن حجر في الفتح، (٥٧٥/٦).

الْقُرْآنَ مَنْ سَمِعَ لَهُ وَأَطَاعَ» (١).

وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ مِنْ طَرِيقِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... اقْرَأِ الْقُرْآنَ مَا نَهَاكَ، فَإِنْ لَمْ يَنْهَكَ فَلَسْتَ تَقْرُؤُهُ» (٢).

قَالَ الْحَسَنُ: «نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا» (٣).

وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَالِمُونَ بِهِ، وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ (٤).

قراءة القرآن بقصد مناجاة الله:

رَوَى الْمَرْوَزِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، قَالَ: سَأَلْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ قُلْتُ: الرَّجُلُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، أَيُّ شَيْءٍ يَنْوِي بِقِرَاءَتِهِ وَصَلَاتِهِ؟ قَالَ: «يَنْوِي أَنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ» (٥).

(١) فضائل القرآن للقاسم بن سلام، (١٣٢).

(٢) ذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١/١٨٤)، وقال: «رواه الطبراني في "الكبير" (١٤٥٤٣)، وفيه شهر بن حوشب؛ وهو ضعيف، وقد وثق» لكنه عند أحمد في الزهد (١٦٤٤) من قول الحسن.

(٣) مفتاح دار السعادة - ابن قيم الجوزية، (١/١٨٧).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، (١/٣٢٧).

(٥) تعظيم قدر الصلاة، (١٥٩).

وروى الحاكم وقال على شرط مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الظُّهْرَ، فَلَمَّا سَلَّمَ نَادَى رَجُلًا كَانَ فِي آخِرِ الصُّفُوفِ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ، أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ؟ أَلَا تَنْظُرُ كَيْفَ تُصَلِّي؟ إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي إِنْمَا يَقُومُ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِيهِ» (١).

وعند مسلم عن حُدَيْفَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ البَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رُكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ... (الحديث) (٢).

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:

[٦٩-٧٠]

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] (٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: إِذَا أَرَدْتَ الِانْتِفَاعَ بِالقُرْآنِ فَاجْمَعْ قَلْبَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ وَسَمَاعِهِ وَأَلْقِ سَمْعَكَ وَاحْضِرْ حُضُورَ مَنْ يُخَاطِبُهُ بِهِ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ خِطَابٌ مِنْهُ لِكَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ (٤).

(١) المستدرک، (١/ ٣٦١) وقال الذهبي: على شرط مسلم.

(٢) صحيح مسلم، (٧٧٢).

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٢٢).

(٤) الفوائد، (ص ٣-).

قراءة القرآن بقصد الثواب:

روى مسلم عن عائشة، قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَفْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعُّعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^(١).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: " الصَّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ، يَقُولُ الصَّيَامُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، فَيُشَفِّعَانِ " ^(٢)

والنصوص هنا كثيرة لا يتحملها المقام.

قال ابن القيم: [فَصَلِّ فَوَائِدُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَتَأَمُّلِ مَعَانِيهِ]

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَى مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطَلِّعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَا فِيرَهُمَا، وَعَلَى طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَعَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَالَ أَهْلِهِمَا، وَتَتَلُّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُبَيِّنُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُيُنَانَهُ وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعَبْرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوَصِّلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ

(١) صحيح مسلم، (٧٩٨).

(٢) رواه أحمد، (٦٦٢٦)، والطبراني في الكبير، (٨٨)، ورجال الطبراني رجال الصحيح، مجمع

الزوائد (٣/١٨١).

وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعِ الطَّرِيقِ وَأَفَاتِهَا، وَتَعَرُّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ
الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتَعَرُّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ
وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامِ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا
يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَبِالْجُمْلَةِ تَعَرُّفُهُ الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ
إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ.

وَتَعَرُّفُهُ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ ثَلَاثَةٌ أُخْرَى: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَالطَّرِيقَ
الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ، وَمَا لِلْمُسْتَجِيبِ لِدَعْوَتِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أُمُورٍ ضَرُورِيٌّ لِلْعَبْدِ مَعْرِفَتُهَا، وَمُشَاهَدَتُهَا وَمُطَالَعَتُهَا، فَتَشْهَدُهُ
الْآخِرَةَ حَتَّى كَانَتْ فِيهَا، وَتَعْيِيهِ عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى كَانَتْ لَيْسَ فِيهَا، وَتُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ
وَالْبَاطِلِ فِي كُلِّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعَالَمُ. فَتَرِيهِ الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَتُعْطِيهِ
فُرْقَانًا وَنُورًا يَفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ،
وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَأَنْشِرَاحًا وَبَهْجَةً وَسُرُورًا، فَيَصِيرُ فِي شَأْنِ النَّاسِ فِي شَأْنٍ آخَرَ.

فَإِنَّ مَعَانِي الْقُرْآنِ دَائِرَةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ وَبَرَاهِينِهِ، وَالْعِلْمِ بِاللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْ
أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَمَا يَنْزِعُهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النِّقْصِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ، وَذِكْرِ
بَرَاهِينِ صِدْقِهِمْ، وَأَدْلَةِ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِمْ، وَالتَّعْرِيفِ بِحُقُوقِهِمْ، وَحُقُوقِ مُرْسَلِهِمْ،
وَعَلَى الْإِيمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهُمْ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَتَدْبِيرِهِمُ الْأُمُورَ بِإِذْنِهِ
وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا جُعِلُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا يَخْتَصُّ بِالنَّوعِ
الْإِنْسَانِيِّ مِنْهُمْ، مِنْ حِينِ يَسْتَقَرُّ فِي رَحِمِ أُمِّهِ إِلَى يَوْمِ يُوَافِي رَبَّهُ وَيَقْدَمُ عَلَيْهِ،
وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ دَارِ النِّعَمِ الْمُطْلَقِ الَّتِي

لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِالْمِ وَلَا نَكَدٍ وَتَنْغِيصٍ، وَمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنْ دَارِ الْعِقَابِ الْوَبِيلِ
الَّتِي لَا يُخَالِطُهَا سُرُورٌ وَلَا رَخَاءٌ وَلَا رَاحَةٌ وَلَا فَرَحٌ. وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ أَتَمَّ تَفْصِيلٍ
وَأَبْيَنُهُ، وَعَلَى تَفَاصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالشَّرْعِ وَالْقَدْرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ،
وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَسْبَابِ وَالْحِكْمِ، وَالْمَبَادِيِ
وَالْغَايَاتِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهَضُ الْعَبْدَ إِلَى رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ
بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحْتُهُ عَلَى التَّصَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ،
وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْأَرَءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ
الْبِدْعِ وَالْأَضَالِيلِ وَتَبْعَتُهُ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبْصِرُهُ
بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا لئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعِنَاءِ الطَّوِيلِ،
وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصَّعَابَ
وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ وَوَنَى فِي سَيْرِهِ تَقَدَّمَ
الرَّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَاللِّحَاقَ اللَّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، وَتَحْدُو بِهِ وَتَسِيرُ
أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَاثِنِ الْعَدُوِّ، أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَاعِ
الطَّرِيقِ نَادَتْهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ! فَاعْتَصِمَ بِاللَّهِ، وَاسْتَعْنِ بِهِ، وَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأْمُلِ الْقُرْآنِ وَتَدْبِيرِهِ، وَتَفْهَمِهِ، أَضْعَافٌ أَضْعَافٍ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكْمِ
وَالْفَوَائِدِ (١).

(١) مدارج السالكين، (١/٤٤٩-٤٥١).

وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ، طَلَسَّمُهُ الْغَوْصُ بِالْفِكْرِ إِلَى قَرَارِ مَعَانِيهِ.
 نَزَّهُ فُوَادَكَ عَنْ سِوَى رَوْضَاتِهِ فَرِيَاضُهُ حِلٌّ لِكُلِّ مُتَزَّرِهِ
 وَالْفَهْمُ طَلَسَّمٌ لِكُنُوزِ عُلُومِهِ فَأَقْصِدْ إِلَى الطَّلَسَّمِ تَحْظَ بِكُنُوزِهِ
 لَا تَخْشَ مِنْ بَدَعٍ لَهُمْ وَحَوَادِثٍ مَا دُمْتَ فِي كَنْفِ الْكِتَابِ وَحِرْزِهِ
 مَنْ كَانَ حَارِسَهُ الْكِتَابُ وَدِرْعَهُ لَمْ يَخْشَ مِنْ طَعْنِ الْعَدُوِّ وَوَحْزِهِ
 لَا تَخْشَ مِنْ شُبُهَاتِهِمْ وَاحْمِلْ إِذَا مَا قَابَلَتْكَ بِنَصْرِهِ وَبِعِزِّهِ
 وَاللَّهُ مَا هَابَ امْرُؤٌ شُبُهَاتِهِمْ إِلَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ مِنْهُ وَعَجْزِهِ
 يَا وَيْحَ تَيْسٍ ظَالِعٍ يَبْغِي مُسَا بَقَّةَ الْهَزْبِ بِعَدُوِّهِ وَبِجَمْرِهِ
 وَدُخَانَ زَبَلٍ يَرْتَقِي لِلشَّمْسِ يَسُ تُرْ عَيْنَهَا لِمَا سَرَى فِي أَرْزِهِ
 وَجَبَانَ قَلْبٍ أَعْزَلَ قَدْ رَامَ يَأْسُ رُفَارِسًا شَاكِي السَّلَاحِ بِهَزِّهِ
 وَأَعْلَى الْفِكْرِ وَأَجْلَهَا وَأَنْفَعَهَا: مَا كَانَ لِلَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ، فَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
 أَنْوَاعٌ:

أَحَدُهَا: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةِ وَتَعَقُّلُهَا، وَفَهْمُهَا وَفَهْمُ مُرَادِهِ مِنْهَا، وَلِذَلِكَ
 أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى، لَا لِمُجَرَّدِ تِلَاوَتِهَا، بَلِ التَّلَاوَةُ وَسِيلَةٌ.

الثَّانِي: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ وَالْإِعْتِبَارُ بِهَا، وَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى
 أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَحِكْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَبِرِّهِ وَجُودِهِ، وَقَدْ حَصَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ
 عَلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَتَدَبُّرِهَا وَتَعَقُّلِهَا، وَذَمَّ الْغَافِلَ عَنْ ذَلِكَ.

الثَّلَاثُ: الْفِكْرَةُ فِي آيَاتِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِنْعَامِهِ عَلَى خَلْقِهِ بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، وَسَعَةِ

رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَحِلْمِهِ (١).

فَلَا شَيْءَ أَنْفَعَ لِلْقَلْبِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ فَإِنَّهُ جَامِعٌ لِجَمِيعِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ وَأَحْوَالِ الْعَامِلِينَ وَمَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ وَهُوَ الَّذِي يُورِثُ الْمَحَبَّةَ وَالشُّوقَ وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ وَالْإِنَابَةَ وَالتَّوَكُّلَ وَالرِّضَا وَالتَّفْوِيزَ وَالشُّكْرَ وَالصَّبْرَ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَكَمَالُهُ وَكَذَلِكَ يَزْجُرُ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ وَالَّتِي بِهَا فَسَادُ الْقَلْبِ وَهَلَاكُهُ.

فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ لَاشْتَغَلُوا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، فَإِذَا قَرَأَهُ بَتَفَكَّرَ حَتَّى مَرَّ بِآيَةٍ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ كَرَّرَهَا وَلَوْ مِائَةَ مَرَّةٍ وَلَوْ لَيْلَةً فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بَتَفَكَّرَ وَتَفَهَّمَ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خْتَمَةٍ بِغَيْرِ تَدْبِيرٍ وَتَفَهَّمَ وَأَنْفَعٌ لِلْقَلْبِ وَأَدْعَى إِلَى حُصُولِ الْإِيمَانِ وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَةً السَّلَفِ يَرُدُّ أَحَدَهُمُ الْآيَةَ إِلَى الصَّبَاحِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَامَ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّى الصَّبَاحِ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٧٨) ﴿١﴾.

فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب

أَخْرَجَ الْأَجْرِيُّ فِي حَمَلَةِ الْقُرْآنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: لَا تَشْرُوهُ نَشْرَ الدَّقْلِ (أَيِ التَّمْرِ) وَلَا تَهْدُوهُ كَهَذَا الشُّعْرِ، قَفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُونُ هُمْ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ (٢).

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، (١٥٦).

(٢) أخلاق حملة القرآن للأجري، (١).

وروى البيهقي في سننه عَنْ أَبِي يُونُسَ، عَنْ أَبِي حَمَزَةَ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، إِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ قَالَ: لِأَنَّ أَقْرَأَ الْبَقْرَةَ فِي لَيْلَةٍ فَاتَّذَّرَهَا وَأَرْتُلُّهَا أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَقْرَأَهَا كَمَا تَقْرَأُ" (١).

والتفكر في القرآن نَوْعَانِ: تفكر فيه ليقع على مُرَادِ الرَّبِّ تَعَالَى مِنْهُ،

وتفكر في معاني ما دَعَا عِبَادَهُ إِلَى التَّفَكُّرِ فِيهِ

فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني تفكر في الدليل العياني

الأول تفكر في آياته المسموعة، والثاني تفكر في آياته المشهودة

وَلِهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ لِيُتَدَبَّرَ وَيَتَفَكَّرَ فِيهِ وَيَعْمَلَ بِهِ لَا لِمُجَرَّدِ تِلَاوَتِهِ مَعَ

الْأَعْرَاضِ عَنْهُ (٢).

من فوائد التدبر:

١ - يفضي إلى رسوخ الإيمان في القلب.

٢ - يجعل الإنسان راغبا راهبا.

٣ - النجاة من الغرور.

٤ - الحزم والفتنة من ثمراته.

٥ - دقة التمييز بين الطيب والخبيث والفاقد والصحيح (٣).

(١) السنن الكبرى، (٢/٥٥٥)، قال محقق أخلاق أهل القرآن (١٧٠): إسناده صحيح ورجال ثقات.

(٢) مفتاح دار السعادة - ابن قيم الجوزية، (١/١٨٧).

(٣) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ (٣/٩١٤).

■ السبب السادس: الاجتهاد في الدعاء قبل الصلاة وفي مواضعه في الصلاة.

مَعْنَى الدُّعَاءِ وَحَقِيقَتِهِ:

قال ابن منظور الدُّعَاءُ: هو الرَّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١).

وقال ابن القيم الدُّعَاءُ هو: طَلَبُ مَا يَنْفَعُ الدَّاعِيَ، وَطَلَبُ كَشْفِ مَا يَضُرُّهُ أَوْ دَفْعِهِ. (٢)

وقال الخطَّابي: معنى الدُّعَاءِ اسْتِدْعَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعِنَايَةَ، وَاسْتِمْدَادَهُ مِنْهُ الْمَعُونَةَ.

وحقيقته: إِظْهَارُ الْاِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَهُوَ سِمَةٌ الْعِبُودِيَّةِ، وَاسْتِشْعَارُ الذَّلَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِيهِ مَعْنَى الشَّائِءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِضَافَةُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ إِلَيْهِ (٣).

فَضْلُ الدُّعَاءِ وَبَيَانُ أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ
فَضْلُ الدُّعَاءِ:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ (البقرة)

قال ابن كثير في تفسيره على الآية: المراد أنه تعالى لا يُخَيِّبُ دُعَاءَ دَاعٍ وَلَا

(١) لسان العرب ج ١، ص ٩٨٦، مادة دعا.

(٢) بدائع الفوائد، (٣/٢).

(٣) شأن الدعاء، للخطابي، (ص-٤).

يُشْغَلُهُ عَنْهُ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، فِيهِ تَرْغِيبٌ فِي الدُّعَاءِ وَأَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ سُبْحَانَهُ.

وَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ يُنْعِمُ عَلَى مَنْ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ، يُنْعِمُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةِ الإِجَابَةِ وَلَا يَرُدُّهُ خَائِبًا فَقَالَ ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

قال الرازي: هذه اللفظة العظيمة ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ تدل على أن الإجابة من النعم العظيمة، فسبحانه عبّر عن ذاته بصيغة الجَمْعِ فقال ﴿نَادَيْنَا﴾ والقَادِرُ العَظِيمُ لَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا الإِحْسَانُ العَظِيمُ، وَسَبْحَانَهُ أَعَادَ صِيغَةَ الجَمْعِ فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ لِيَدُلَّ عَلَى تَعْظِيمِ تِلْكَ النِّعْمَةِ، لَا سِوَمَا وَقَدْ وُصِفَتْ تِلْكَ الإِجَابَةُ بِأَنَّهَا نِعْمَةٌ الإِجَابَةُ، وَالْفَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حُصُولَ هَذِهِ الإِجَابَةِ مُتَرْتِبٌ عَلَى ذَلِكَ الدُّعَاءِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ بِالإِخْلَاصِ سَبَبٌ لِحُصُولِ الإِجَابَةِ (١).

وعن سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ» (٢).

قال العلماء: لَا يَخْفَى أَنَّ الكَرَمَ وَالْحَيَاءَ إِذَا اجْتَمَعَا يَكُونُ صَاحِبَهُمَا كَمَنْ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَتْرَكَ العَطَاءَ مِنَ السَّائِلِينَ وَالضُّعْفَاءِ (٣).

(١) تفسير الرازي على الآية، [الصافات: ٧٥].

(٢) أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي، (٣٥٦٦)، وصححه ابن حبان، (٨٧٦)، وقال ابن حجر: سنده جيد، الفتح، (١١/١٤٣).

(٣) شرح سنن ابن ماجه للسندي، حديث رقم: (٣٨٥٥).

وقال رسول الله ﷺ: «لا يُغْنِي حَذْرٌ مِنْ قَدْرِ، وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ، فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ، فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». (١)

قال ابن القيم: الدُّعَاءُ من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يُدَافِعُهُ وَيُعَالِجُهُ وَيَمْنَعُ نَزْوَلَهُ وَيَرْفَعُهُ أَوْ يُخَفِّفُهُ إِذَا نَزَلَ، وَهُوَ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ (٢).

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ الدُّعَاءِ» (٣).

وقال العلماء: اِحْتَلَّ الدعاء تلك المنزلة العظيمة والمكانة الكريمة لِذَلَالَتِهِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْغَيْبِيِّ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ وَعَجَزِ الدَّاعِي الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

الدُّعَاءُ مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ:

قال الفخر الرازي: لا مَقْصُودَ مِنْ جَمِيعِ التَّكَالِيفِ إِلَّا مَعْرِفَةُ ذُلِّ الْعِبُودِيَّةِ وَعِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ، فَإِذَا كَانَ الدُّعَاءُ مُسْتَجْمِعًا لِهَذَيْنِ الْمَقَامَيْنِ، لَا جَرَمَ كَانَ الدُّعَاءُ أَعْظَمَ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ. (٤)

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيِّ: شُرُوطُ الدُّعَاءِ سَبْعَةٌ: أَوَّلُهَا التَّضَرُّعُ

(١) رواه الحاكم، (١/٦٦٩)، وحسنه الألباني حديث رقم: ٧٧٣٩ في صحيح الجامع.

(٢) الداء والدواء، (١٠).

(٣) رواه الترمذي، (٣٣٧٠)، والحاكم، (١/٦٦٦)، وقال: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ، يَقُولُ: إِذَا رَوَيْنَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَلَالِ، وَالْحَرَامِ، وَالْأَحْكَامِ، شَدَّدْنَا فِي الْأَسَانِيدِ، وَأَنْتَقَدْنَا الرِّجَالَ، وَإِذَا رَوَيْنَا فِي فَصَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالْثَوَابِ، وَالْعِقَابِ، وَالْمُبَاحَاتِ، وَالِدَّعَوَاتِ تَسَاهَلْنَا فِي الْأَسَانِيدِ"، وحسنه الألباني رحمه الله في «المشكاة»، (٢٢٣٢).

(٤) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، (٤/٢٨٠).

وَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالْمُدَاوَمَةُ وَالْخُشُوعُ وَالْعُمُومُ وَأَكْلُ الْحَلَالِ. (١)

وقد شرع الله تعالى الدعاء في الصلاة في مواضع ومواطن أثناء أداء المسلم للصلاة، ومن أعظم هذه المواضع:

**عند إقامة الصلاة

عَنْ مَكْحُولٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «اطْلُبُوا اسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ عِنْدَ التَّقَاءِ الْجُبُوشِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَنُزُولِ الْغَيْثِ» (٢).

- قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَقَدْ حَفِظْتُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، طَلَبَ الْإِجَابَةَ عِنْدَ نُزُولِ الْغَيْثِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ (٣).

(فائدة) قال المقرئ في تذكرته: يستجاب الدعاء في أوقات منها عند القيام إلى الصلاة (٤).

وأخرج الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَسْتَجَابُ الدُّعَاءُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ التَّقَاءِ الصُّفُوفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعِنْدَ نُزُولِ الْغَيْثِ وَعِنْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَعِنْدَ رُؤْيَةِ الْكَعْبَةِ" (٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، (٢/٣١١).

(٢) رواه البيهقي في معرفة السنن والآثار، (٧٢٣٦)، وهو مرسل أو معضل، لأن جَلَّ رواية مكحول عن التابعين، قال الحافظ في تخريج الأذكار وله شاهد عن عطاء بن أبي رباح قال: تفتح السماء عند ثلاث خلال فتحروا فيهن الدعاء، فذكر مثل مرسل مكحول أخرجه سعيد بن منصور في سننه، وهو مقطوع جيد، له حكم المرسل، لأن مثله لا يقال بالرأي.

(٣) الأم للشافعي، (١/٢٨٩).

(٤) فيض القدير، (٣/٣٠١).

(٥) الطبراني، (٧٧١٣)، والبيهقي، (٨/١٦٩)، وفيه عَفِيرُ بْنُ مَعْدَانَ، وَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَى ضَعْفِهِ، المجمع، (١٠/١٥٥).

****وعند الرفع من الركوع**

عَنْ أَبِي مُوسَى، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، يَسْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، قَضَى عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » (١).

****والدعاء في السجود، فينبغي أن يجتهد المسلم في الدعاء في السجود؛**
لقول النبي ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» (٢)،
وقوله ﷺ: «... وَأَمَا الرُّكُوعُ فَعِظَمُوا فِيهِ الرَّبَّ» (٣).

تكثر من الدعاء بما شئت من أمور الدين ومن أمور الدنيا، لأن النبي ﷺ يقول: " وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ " وقال عليه الصلاة والسلام: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" فأكثر من الدعاء بما شئت، من سؤال الجنة، والتعوذ من النار، وسؤال علم نافع، وعمل صالح، وإيمان راسخ، وهكذا. وسؤال بيت جميل، وامرأة سالحة، وولد صالح، وسيارة، وما شئت من خير الدين والدنيا، لأن الدعاء عبادة ولو في أمور الدنيا، قال الله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] وفي هذه الآية العظيمة ينبغي أن نطيل السجود، وأن نكثر من الدعاء بأن يأخذ الله علي أيدي الظالمين المعتدين، ونلح ولا نستبطئ الإجابة، لأن الله حكيم قد لا

(١) رواه مسلم، (٤٠٤).

(٢) رواه مسلم، (٣٥٥٠).

(٣) رواه مسلم، (٤٧٩).

يستجيب الدعوة بأول مرة أو ثانية أو ثالثة، من اجل أن يعرف الناس شدة افتقارهم إلى الله فيزدادوا دعاء، والله - سبحانه وتعالى - أحكم الحاكمين - حكمته بالغة لا نستطيع أن نصل إلى معرفتها، ولكن علينا أن نفعل ما أمرنا به من كثرة الدعاء (١).

**الدعاء في الجلسة بين السجدين

الدعاء قبل السلام

ثم شرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته والدعاء في هذا المحل قبل السلام أفضل من الدعاء بعد السلام وأنفع للداعي

وعلم الصديق دعاء يدعو به في صلاته، وعلم الحسن بن علي دعاء يدعو به في قنوت الوتر، وكان إذا دعا لقوم أو على قوم جعله في الصلاة بعد الركوع ومن ذلك أن المصلي قبل سلامه في محل المناجاة والقربة بين يدي ربه، فسؤاله في هذه الحال أقرب إلى الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يديه.

وينبغي أن يكون المسلم قبل دعائه متطهراً من الذنوب بالتوبة، ويكون زاهداً ورعاً

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وَسَمِعْتُ شَيْخَ الإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ - قَدَسَ اللهُ رَوْحَهُ - يَقُولُ: الزُّهْدُ تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الآخِرَةِ. وَالْوَرَعُ تَرْكُ مَا تَخَافُ ضَرْرَهُ فِي الآخِرَةِ. (٢).

(١) شرح رياض الصالحين، (١/٣٩٤).

(٢) مدارج السالكين، (٢/١٢).

ومن الأسباب العظيمة التي تجلب الخشوع في الصلاة أن يسأل العبد ربه، ويتضرع إليه بسؤاله التوفيق للخشوع الذي يحبه الله سبحانه في الصلاة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» (١).

§ السبب السابع: فهم وتدبر معاني أفعال الصلاة.

١- فهم وتدبر معنى القيام في الصلاة، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ ﴾ [البقرة، الآية: ٢٣٨]، فإذا انتصب العبد قائماً لله في صلاته بين يديه سبحانه فليشاهد بقلبه قيوميته تعالى (٢).

ويذكر أنه إذا أحسن هذا الوقوف في الصلاة في الدنيا سهل عليه الوقوف أمام الله يوم القيامة، وإذا استهان بهذا الوقوف، ولم يؤفّه حقه شدد عليه الوقوف يوم القيامة (٣).

ومن مقتضى هذا القيام أن يقبل على الله بقلبه وجسده، فلا يلتفت: لا بقلبه، ولا ببصره، ولا بجسده.

٢- فهم وتدبر معنى رفع الأيدي في الصلاة حذو المنكبين أو حذو الأذنين في أربعة مواضع: إذا كبر تكبيرة الإحرام، وإذا كبر للركوع، وإذا رفع من الركوع، وإذا قام من الركعتين - أي من التشهد الأول - يرفعهما كما صنع عند الافتتاح،

(١). رواه الترمذي، (٣٣٧٣)، وانظر الصحيحة، (٢٦٥٤).

(٢) كتاب الصلاة لابن القيم، (ص-١١٧).

(٣) الفوائد لابن القيم، (ص-٢٠٠).

وهذا هو السنة.

والحكمة في ذلك: اتباع النبي ﷺ، ويضاف إلى ذلك من الحكم:

أن رفع اليدين في تكبيرة الإحرام فيه الإشارة إلى رفع حجاب الغفلة بينك وبين الله، وفي غير تكبيرة الإحرام إعظاماً لله.

وقال بعضهم: إنها استسلام لله وانقياد له تعالى، كالأسير المستسلم.

وقال بعضهم: نفي الكبرياء عن غير الله.

وقال بعضهم: زينة للصلاة، وعلى كل حال: فهو اتباع للسنة الثابتة عن

النبي - ﷺ (١).

لحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ « كَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ حَذْوَ مَنْكِبَيْهِ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ، وَإِذَا كَبَّرَ لِلرُّكُوعِ، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، رَفَعَهُمَا كَذَلِكَ أَيْضًا، وَقَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، وَكَانَ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي السُّجُودِ » (٢)، وفي حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا كَبَّرَ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَازِيَ بِهِمَا أُذُنَيْهِ، وَإِذَا رَكَعَ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَازِيَ بِهِمَا أُذُنَيْهِ، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ » فقال: « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » (٣) فَعَلَّ مِثْلَ ذَلِكَ

لكن هنا سؤال: متى يكون الرفع، هل هو مع ابتداء التكبير، أو بعد التكبير،

(١) الشرح الممتع لابن عثيمين، (٣/ ٣٤)، وحاشية الروض المربع، لابن قاسم، (٢/ ١١).

(٢) مسلم، (٣٩١).

(٣) البخاري، (٧٣٥)، ومسلم، (٣٩٠).

أو قبل التكبير؟

فالجواب: أن كله سنة، ورد عن النبي ﷺ أنه إذا كَبَّرَ رَفَعَ، وورد أنه يرفع ثم يكبر، وورد أنه يرفع مع التكبير.

جاء في حديث أبي حميد يقول: "يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم يكبر"، فيكون الرفع قبل التكبير.

وفي حديث ابن عمر: "يرفع يديه حذو منكبيه إذا افتتح الصلاة"، فيكون الرفع بعد التكبير؛ لأنه لا يعد مفتحاً للصلاة إلا إذا كبر.

كما جاء أيضاً في الحديث: "أنه يكبر مع الرفع"، فيكون هذا مما اختلفت فيه السنة: كبر أولاً ثم ارفع، ارفع أولاً ثم كبر، اجعل التكبير مع الرفع (١).

والأمر أيضاً في هذا واسع، يعني سواء رَفَعَتْ ثم كَبَّرَتْ، أو كَبَّرَتْ ثم رَفَعَتْ، أو رَفَعَتْ مع التَّكْبِيرِ، فَإِنْ فَعَلْتَ أَيَّ صِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ فَأَنْتَ مُصِيبٌ لِلسَّنَةِ.

٣- فهم وتدبر معنى وضع اليدين على الصدر حال القيام.

ومما يظهر فيه الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة: وضع اليدين إحداهما على الأخرى في حال القيام، وقد روي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ الْمَرَادِ بِذَلِكَ فَقَالَ: هُوَ ذَلْ بَيْنَ يَدَيْ عَزِيزٍ (٢).

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، (٢/٦٤)، بتحقيق المؤلف وزوجته عفا الله عنهم.

(٢) الخشوع في الصلاة لابن رجب، (ص-٢١).

وروى المروزي قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ غَيْلَانَ، ثنا أَبُو النَّضْرِ، ثنا أَبُو سَعِيدِ الْمُؤَدَّبِ، عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ صَنِيعِهِمْ فِي الصَّلَاةِ»، وَقَبَضَ أَبُو النَّضْرِ شِمَالَهُ بِيَمِينِهِ، وَأَنْحَنَى هَكَذَا (١).

٤- فهم وتدبر معنى الركوع

وتمام الخضوع في الركوع أن يخضع القلب لله، ويذل له، فيتّم بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله - عز وجل - (٢)

قال العلامة الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: «الركوع: الانحناء، فتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارة في التواضع والتذلل: إما في العبادة، وإما في غيرها» (٣).

٥- فهم وتدبر معنى السجود

وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه فيجعل العبد أشرف أعضائه وأعزّها عليه، وأعلاها عليه، حقيقة أوضع ما يمكنه، فيضعه في التراب مُتَعَفِّراً، ويتبع ذلك انكسار القلب، وتواضعه، وخشوعه لله - عز وجل -؛ ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يقربه الله - عز وجل - إليه ففي الحديث «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» (٤).

(١) تعظيم قدر الصلاة، (٣٣١).

(٢) الخشوع في الصلاة لابن رجب، (ص-٢٥).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن، (١/٤١٤).

(٤) مسلم، (٤٨٢).

وإبليس إنما طرده الله لما استكبر عن السجود، لمن أمره الله بالسجود له
والسجود أيضاً مما كان يأنفه المشركون المستكبرون عن عبادة الله - عز
وجل -، وكان بعضهم يأخذ كفاً من حصى فيرفعه إلى جبهته، ويكتفي بذلك
عن السجود، ففي البخاري عن عبد الله رضي الله عنه: " أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ سُورَةَ النَّجْمِ،
فَسَجَدَ بِهَا فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا سَجَدَ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَفًّا مِنْ حَصَى
- أَوْ تُرَابٍ - فَرَفَعَهُ إِلَى وَجْهِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا "، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ
بَعْدُ قَتَلَ كَافِرًا (١).

قال الراغب: السجود أصله: التطامن (التطامن: الانحناء) والتذلل، وجعل
ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته، وهو عام في الإنسان، والحيوانات،
والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه
يستحق الثواب، نحو قوله: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم/ ٦٢]، أي: تذللوا
له، وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنبات، وعلى ذلك قوله:
﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [الرعد/ ١٥]،
وقوله: ﴿ يَتَفَيْتُوا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ [النحل/ ٤٨]، فهذا سجود
تسخير (٢).

(١) البخاري، (١٠٧٠).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، (١/ ٤٥٨).

■ السبب الثامن: فهم وتدبر معاني أقوال الصلاة:

١- فهم وتدبر معنى تكبيرة الإحرام: «الله أكبر»

أي: الله تعالى أكبر من كل شيء: في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وحُذِفَ المفضل عليه ليتناول اللفظ كل شيء، فتكبيره سبحانه جامع لإثبات كل كمال له، وتنزيهه عن كل نقص وعيب، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله.

وأكثر من أن يُذكر بغير المدح والتمجيد والثناء الحسن.

وحكمة الاستفتاح بها: ليستحضر المصلي عظمة من يقف بين يديه، فيخضع له، ويستحي أن يشتغل بغيره؛ ولهذا أجمع العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضر قلبه، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ١ - ٢]، والخشوع إنما يحصل لمن استحضر عظمة ملك الملوك، وأنه يناجيه، ويخشى أن يردها عليه، فيفرغ قلبه لها، ويشتغل بها عمًّا عداها، ويؤثرها على ما سواها، فتكون راحته وقرّة عينه، فإذا استشعر العبد بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال استحيا منه أن يُشغل قلبه في الصلاة بغيره، فلا يكون موفياً لمعنى «الله أكبر»، ولا مؤدباً لحق هذا اللفظ، فقبيح بالمصلي أن يقول بلسانه: «الله أكبر»

وقد امتلأ قلبه بغير الله، فلو قضى حق هذا اللفظ لدخل وانصرف بأنواع التحف والخيرات^(١).

(١) حاشية الروض المربع، (١١ / ٢).

٢- فهم وتدبر معاني دعاء الاستفتاح.

أ- رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ" (١).
وَعَمِلَ بِهِ عُمَرُ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلِذَلِكَ اخْتَارَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَجُوزَ الْإِسْتِفْتَاخُ بِغَيْرِهِ مِمَّا وَرَدَ (٢).

قَوْلُهُ: "سُبْحَانَكَ" أَي تَنْزِيهًا لَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ مِنَ النَّقَائِصِ وَالرَّذَائِلِ (٣)،
"وَبِحَمْدِكَ" أَي بِحَمْدِكَ سَبَّحْتِكَ "وَتَبَارَكَ اسْمُكَ" أَي كَثُرَتْ بَرَكَاتُهُ، وَهُوَ مُخْتَصٌّ بِهِ تَعَالَى، "وَتَعَالَى جَدُّكَ" أَي ارْتَفَعَ قَدْرُكَ وَعَظُمَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْجَدُّ الْغَنَى.

فَالْمَعْنَى: ارْتَفَعَ غِنَاكَ عَنَّا أَنْ يُسَاوِيَهُ غِنَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ "وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ"
أَي لَا إِلَهَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَتُرْجَى رَحْمَتُهُ وَتُخَافَ سَطْوَتُهُ غَيْرُكَ (٤).

وقال العلامة العثيمين: «الحمد» فهو: وصفُ المحمود بالكمال، الكمال الذَّاتي والفعلي، فالله سبحانه وتعالى كاملٌ في ذاته، ومن لازم كماله في ذاته أن يكون كاملاً في صفاته.

(١) رواه مسلم، (٣٩٩)، واختار الإمام أحمد الاستفتاح بحديث عمر؛ لعشرة أوجه ذكرها ابن القيم في زاد المعاد، (١/٢٠٥).

(٢) كشف القناع عن متن الإقناع، (٢/٤٧٨).

(٣) يُنَزَّهُ اللَّهُ عَنْ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: ١- عَنِ النَّقْصِ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ. ٢- عَنِ صِفَاتِ النَّقْصِ الْمَجْرَدَةِ عَنِ الْكَمَالِ. ٣- عَنِ مِمَّا ثَلَاثَةُ الْمَخْلُوقِينَ، الْمَمْتَعِ، (٣/٤١٥).

(٤) شرح منتهى الإرادات، (١/٤١٥).

كذلك في فعله، ففعله دائرٌ بين العدل والإحسان؛ لا يمكن أن يظلم، بل إما أن يعامل عباده بالعدل، وإما أن يعاملهم بالإحسان، فالمسيءُ يعامله بالعدل كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَأُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] لا يمكن أن يزيد. والمحسن يعامله بالفضل كما قال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ففعله عزٌّ وجلٌّ دائرٌ بين الأمرين، ومن كان فعله دائراً بين هذين الأمرين: العدل والفضل، فلا شك أنه محمودٌ على أفعاله، كما هو محمودٌ على صفاته (١).

والواو هنا «وبحمدك» تفيد معنى المعية، يعني: نزهتك تنزيهاً مقروناً بالحمد.

قوله: «وتبارك اسمك» أي: كَمَلٌ، وَتَعَاظَمَ، وَتَقَدَّسَ، وكثرت بركته في السموات والأرض، وإذا كان اسم المسمّى بركة، فالمسمّى أعظم بركة وأولى، وجاء بناؤها على السعة والمبالغة، فدل على كمال بركتها وعظمتها وسعتها، ولا يقال إلا له - سبحانه وتعالى -؛ فإن «تبارك» من باب «مَجَدَّ»، والمجد كثرة صفات الجلال والكمال والسعة، والفضل، فاسم الله نفسه كله بركة، ومثاله: إذا سمّيت على الطعام لم يشاركك الشيطان فيه، وإن لم تسمِّ شاركك، ولو ذبحت ذبيحة بدون تسمية لكانت ميتة نجسة حراماً، ولو سمّيت الله عليها لكانت ذكية طيبة حلالاً، وكل أمر لا يُبدأ بسم الله فهو أبتَر.

قوله: «وتعالى جدك» تعالى: أي: ارتفع ارتفاعاً معنوياً، والجَدُّ: العظمة،

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/ ٤٤).

والمعنى: علت عظمتك وارتفعت بحيث لا يساويها أي عظمة من عظمة المخلوق.

«ولا إله غيرك» هذه كلمة التوحيد التي أرسل بها جميع الرسل عليهم السلام، ومعناها: لا معبود حق إلا الله، فيكون توحيد سبحانه بالألوهية مبنياً على كماله، فالسابق كالسبب الذي بُني عليه اللاحق، يعني أنه لكمال صفاتك لا معبود حق إلا أنت (١).

ب- وروى الشيخان عن أبي هريرة، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا كَبَّرَ فِي الصَّلَاةِ، سَكَتَ هُنَيْةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَرَأَيْتَ سُكُوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ " أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقِّي الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي بِالْثَلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرْدِ " (٢).

قوله: « اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ »: المباعدة بين المشرق والمغرب هي غاية ما يبلغ فيه الناس، والغرض من هذا التشبيه امتناع الاقتراب من الذنوب كامتناع اقتراب المشرق من المغرب، والمعنى: باعد بيني وبين فعل الخطايا بحيث لا أفعلها، وباعد بيني وبين عقوبتها إن فعلتها.

قوله: « اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقِّي الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ » المراد الخطايا والذنوب التي فعلها فينقى منها، وهذا التشبيه لقوة التنقية، أي: اللهم

(١) الشرح الممتع على زاد المستنقع، (٤٧/٣)، والمنهل العذب المورود، (٥/١٨٧).

(٢) متفق عليه، البخاري، (٧٤٣)، ومسلم (٥٩٨).

طهرني من خطاياي طهارة كاملة، وأزلها عني كما يُطهَّر الثوب الأبيض من الوسخ، ووقع التشبيه بالثوب الأبيض؛ لأن ظهور النقاء فيه أشد وأكمل لصفائه، بخلاف غيره من الألوان، وبعد التنقية قال: «اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد»، وفي لفظ: «اللهم اغسلني من خطاياي: بالثلج، والماء، والبرد» أي طهرني من خطاياي بأنواع مغفرتك التي هي تمحيص الذنوب بمثابة هذه الأنواع الثلاثة في إزالة الأوساخ، وذكر أنواع المطهّرات المنزّلة من السماء التي لا يمكن حصول الطهارة الكاملة إلا بأحدها تبياناً لأنواع المغفرة التي لا يتخلص من الذنوب إلا بها، فبان أن المراد بالمباعدة أي: أن لا أفعل الخطايا، ثم إن فعلتها فنقني منها، ثم أزل آثارها بزيادة التطهير بالماء والثلج والبرد، وكأنه جعل الخطايا بمنزلة جهنم لكونها مسببة عنها، فعبر عن إطفاء حرارتها بالغسل، وبالغ فيه باستعمال المبردات، ترقياً عن الماء إلى أبرد منه (١).

ج- روى مسلم عن أنس، أَنَّ رَجُلًا جَاءَ فَدَخَلَ الصَّفَّ وَقَدْ حَفَزَهُ النَّفْسُ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاتَهُ قَالَ: «أَيُّكُمْ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟» فَأَرَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا» فَقَالَ رَجُلٌ: جِئْتُ وَقَدْ حَفَزَنِي النَّفْسُ فَقُلْتُهَا، فَقَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَتَدَرُونَهَا، أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا» (٢).

«الْحَمْدُ»: هو الوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، والألف واللام في «الْحَمْدُ» لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى.

(١) المنهل العذب، (٥/ ١٩٤-١٩٥).

(٢) مسلم، (٦٠٠).

«طيباً» أي: خالصاً لوجهه تعالى. «مباركاً فيه» أي: كثير الخير، يعني كثيراً غاية الكثرة (١).

د- روى مسلم عن ابن عمر، قال: بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنَ الْقَائِلِ كَلِمَةٌ كَذَا وَكَذَا؟» قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «عَجِبْتُ لَهَا، فَتَحَتْ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ» قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «فَمَا تَرَكَتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ» (٢).

قوله: «الله أكبر كبيراً»، أي: الله تعالى أكبر من كل شيء في ذاته وأسمائه وصفاته، و«كبيراً» أي: أكبر كبيراً، أو تكبيراً كبيراً.

قوله: «والحمد لله كثيراً» أي حمداً كثيراً.

قوله: «وسبحان الله بكرة وأصيلاً» أي أول النهار وآخره، وخص هذين الوقتين بالذكر لاجتماع ملائكة الليل والنهار فيهما، أو لتزويه الله تعالى عن التغيير في أوقات تغير الكون (٣).

ه- روى مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا

(١) المنهل العذب، (٥/١٧٣).

(٢) مسلم، (٦٠١).

(٣) المنهل العذب، (٥/١٧٥).

كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (١).

قوله: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ»، خصَّ هؤلاء الثلاثة من الملائكة بالذكر تشريفاً لهم وتعظيماً، إذ بهم تنظم أمور العباد، فجبرائيل عليه السلام كان موكلاً بالوحي وإنزال الكتب السماوية على الأنبياء عليهم السلام، وتعليم الشرائع، وأحكام الدين، وميكائيل عليه السلام موكلاً بجميع القطر والنبات وأرزاق بني آدم وغيرهم، وإسرافيل عليه السلام موكلاً باللوح المحفوظ، وهو الذي ينفخ في الصور.

قوله: «عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أي: ما غاب عن العباد، وما شاهدوه وظهر لهم.

قوله: «فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»: في الدنيا من أمر دينهم، فتعذب العاصي إن شئت، وتثيب الطائعين.

قوله: «اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ»: أي: دلني على الحق الذي اختلفوا فيه، ولم يقبلوه.

قوله: «بِإِذْنِكَ»: أي: بإرادتك وتوفيقك.

قوله: «إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ»: هنا إشارة إلى أن الهداية والإضلال ليسا من فعل الإنسان، بل بخلق الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

قوله: «إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»: أي طريق الحق، وسمي صراطاً؛ لأنه موصل للمقصود، كما أن الطريق الحسي كذلك (١).

و- روى مسلم عن علي بن أبي طالب، عن رسول الله ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي، فَاعْفُرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» (٢).

قوله: «وَجَّهْتُ وَجْهِي»: أي توجَّهْتُ بذاتي، وأخلصت عبادتي لله تعالى، فالمراد بالوجه هنا الذات، ويحتمل أن يراد بوجه الإنسان هنا القلب: أي وجهت قلبي لعبادة الله تعالى، ويؤخذ منه أنه ينبغي للمصلي عند قراءة هذا الدعاء أن يكون على غاية من الحضور والإخلاص، وإلا كان كاذباً، وأقبح الكذب ما يكون والإنسان واقف بين يدي من لا تخفى عليه خافية.

قوله: «لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»: أي خلقهما وأوجدهما على غير مثال سابق، والمراد بالسموات ما علا فيشمل العرش، وبالأرض ما سفلى،

(١) المنهل العذب، (٥/١٧٨).

(٢) مسلم، (٧٧١).

فيشمل ما تحتها، والعلم عند الله تعالى، وقدم السموات؛ لأنها أشرف من الأرض؛ لكونها مسكن الملائكة المطهرين لا غير، والأرض وإن كان فيها الأنبياء لكنها احتوت على المفسدين، وجمع السموات لاختلاف أجناسها، وأفرد الأرض وهي سبع أرضين؛ لأنها من جنس واحد.

قوله: « حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »: أي وجهت وجهي حال كوني مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق ثابتاً عليه، منقاداً مطيعاً لأمره تعالى ومجتنباً لنهيه، وما أنا من المشركين: أي الكافرين، فيشمل عبداً لوثن وغيره.

قوله: « إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي »: أي عباداتي من حج وغيره، فعطف النسك على الصلاة من عطف العام على الخاص ويدخل في النسك: الذبح.

قوله: « وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »: أي حياتي، وموتي وما آتاه في حياتي، وأحوز عليه من الإيمان والعمل الصالح، «لله رب العالمين» خالصاً لوجهه - عز وجل -.

قوله: « لَا شَرِيكَ لَهُ »: أي: في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وربوبيته وألوهيته. قوله: « وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ »: أي بالتوحيد الكامل، والطاعات الخالصة، أُمِرْتُ وأنا من المنقادين المستسلمين، المطيعين لله تعالى، ولا فرق بين الرجل والمرأة في هذا الدعاء، وكل ما ورد من الأذكار والأدعية.

قوله: « اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ »: أي المتصرف في جميع المخلوقات بدون معارض، وأنت مربيني على موائد كرمك، وهو تخصيص بعد تعميم.

قوله: « ظَلَمْتُ نَفْسِي »: اعتراف بالتقصير، وبما يوجب نقص حظ النفس من ملابسة المعاصي، أما بالنسبة لنا فظاهر، وأما بالنسبة للنبي ﷺ فهو من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين، أو قال ذلك تواضعاً وتعليماً للأمة، وقدمه على سؤال المغفرة تادباً كما وقع لآدم وحواء في قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]

قوله: « إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ »: وهذا بمنزلة التعليل لطلب المغفرة، فكأنه قال: اغفر لي ذنوبي؛ لأن مغفرة الذنوب بيدك لا يتولاها غيرك، ولا يقدر عليها أحد إلا أنت.

قوله: « وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ »: أي أرشدني لأكمل الأخلاق، ووفقني للتحلي بها.

قوله: « وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا »: أي: أبعده عني قبيح الأخلاق.

قوله: « لَبِّيكَ وَسَعْدَيْكَ »: أي: أجيبك إجابة بعد إجابة، وأسعد بإقامتي على طاعتك، وإجابتي لدعوتك سعادة بعد سعادة.

قوله: « وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ »: أي: جميع الخير حسيماً ومعنوباً بيدي الله تعالى.

قوله: « وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ »: أي: لا يتقرب به إليك، ولا يضاف إليك، وهذا تادباً، بل يضاف إلى من فعله، والله تعالى هو خالق كل شيء، ولكن لا يأتي منه إلا الخير؛ لأن الشر يضاف إلى المفعولات، وخلق الله تعالى ذلك لا يأتي إلا بخير.

قوله: «أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ»: أي: أستعين بك، وألتجئ إليك، أو بك ووجدت، وإليك ينتهي أمري.

قوله: « تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ »: أي: تكاثر خيرك، وتزايد برك، وتنزهت عن النقائص، واتصفت بالكمالات المطلقة.

قوله: « أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ »: أي أطلب منك المغفرة لما مضى، وأرجع عن فعل الذنب فيما بقي متوجِّهاً إليك بالتوفيق والثبات إلى الممات (١).

ز- روى الشيخان عن ابن عباس: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قِيَمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَالْجَنَّةُ حَقُّ، وَالنَّارُ حَقُّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقُّ، وَالسَّاعَةُ حَقُّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفُرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» (٢).

قوله: «أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»: أي: أن كل شيء استنار منها واستضاء فبقدرتك، وأضاف النور إلى السموات والأرض للدلالة على سعة إشراقه، وفضو ضيائه، وعلى هذا فسر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

(١) العلم الهيب في شرح الكلم الطيب للعيني (ص ٢٦٥-٢٦٨)، والمنهل العذب، (٥/١٦٨-١٧٠).

(٢) البخاري (٦٣١٧)، ومسلم، (٧٦٩).

قوله: «أَنْتَ قِيَمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»: أي: الذي يقوم بحفظها ومراعاتها، وحفظ من أحاطت به، واشتملت عليه، يؤتي كل شيء ما به قوامه، ويقوم على كل شيء من خلقه مما يراه من تدبيره.

قوله: «أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»: أي: أنت مالك السماوات والأرض «وَمَنْ فِيهِنَّ»، والرب يأتي بمعنى المالك والسيد والمطاع والمصلح.
قوله: «أَنْتَ الْحَقُّ»: الحق اسم من أسماء الله - تعالى -؛ ومعناه: الموجود حقيقة، المتحقق وجوده وإلهيته.

قوله: «وَوَعْدُكَ الْحَقُّ»: أي: الثابت غير الباطل؛ قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ۝﴾ [آل عمران: ٩]

قوله: « وَقَوْلِكَ الْحَقُّ»: أي: غير كذب، بل هو صدق حقاً وجزماً.

قوله: « وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ»: أي: واقع كائن لا محالة (١).

قوله: « وَالْجَنَّةُ حَقٌّ»: أي: موجودة مُعدَّة للمؤمنين.

قوله: « وَالنَّارُ حَقٌّ»: موجودة مُعدَّة للكافرين.

قوله: «وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ»: أي: حق في أنهم من عند الله - تعالى - وأنهم أنبياء

(١) قال ابن تيمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف بما يتضمن المعاينة والمشاهدة بعد السلوك والمسير، وقال: إن لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى... كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِسْنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلْفِيهِ ۝﴾ [الانشقاق: ٦] فذكر أنه يكدر إلى الله فيلاقيه، والكدر إليه: يتضمن السلوك والسير إليه، واللقاء يعقبهما». مجموع الفتاوى، (٦/٤٦١-٤٧٥).

الله تعالى وعبيده.

قوله: « ومحمد حق »: أي: حق نبوته ورسالته، وأنه عبد الله ورسوله إلى العرب والعجم والإنس والجن، ولا نبي بعده، وإنما أفرد نفسه بالذكر، وإن كان داخلاً في النبيين، تنبيهاً على شرفه وفضله.

قوله: « وَالسَّاعَةُ حَقٌّ »: أي: واقعة كائنة لا محالة، والمراد من الساعة هو الحشر والنشر.

قوله: « اللّٰهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ »: أي: انقدت وأطعت.

قوله: « وَبِكَ آمَنْتُ »: أي: صدقت بك وبكل ما أخبرت وأمرت ونهيت.

قوله: « وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ »: أي: فوّضت أمري إليك، واعتمدت في كل شأني عليك.

قوله: « وَإِلَيْكَ أَنْبَتُ »: أي: رجعت وأقبلت بهمتي وطاعتي إليك، وأعرضت عما سواك.

قوله: « وَبِكَ خَاصَمْتُ »: أي: بك أحتج وأدافع، وأقاتل من عاند فيك، وكفر بك، وأقمعه بالحجة وبالسيف.

قوله: « وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ »: أي: رفعت محاكمتي إليك في كل من جحد الحق، وجعلتك الحكم بيني وبينه، لا غيرك مما كانت تحاكم إليه الجاهلية وغيرهم، من صنم وكاهن ونار وشيطان.. وغيرها، فلا أَرْضى إلا بحكمك، ولا أَعتمد على غيرك.

قوله: « فَأَغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ »: أي: من الذنوب.

قوله: « وَمَا أَسْرَرْتُ » بها، « وَمَا أَعْلَنْتُ »: منها؛ أي: من المعاصي

والذنوب (١).

٣- فهم وتدبر معاني الاستعاذة:

أ- «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

قوله: «أعوذ»، أي: ألتجئ وأعتصم به، فالله سبحانه هو الملاذ، وهو المعاذ، فاللياذ: لطلب الخير، والعياذ: للفرار من الشر.

قوله: « من الشيطان »: اسم: جنس يشمل الشيطان الأول الذي أمر بالسجود لأبينا آدم ﷺ فلم يسجد، ويشمل ذريته أيضاً، وهو من "شطن" إذا بُعد، لبُعدته من رحمة الله؛ فإن الله لعنه أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: « الرجيم »: فعيل بمعنى: راجم، وبمعنى: مرجوم. فهو راجم، أي: يرجم غيره بالإغواء، فهو يؤز أهل المعاصي إلى المعاصي أزاً، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكُفْرِينَ تُوْزُهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. وهو مرجوم: بلعنة الله، وطرده، وإبعاده عن رحمته، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٥﴾ [الحجر: ٣٤ - ٣٥]

(١) العلم الهيب في شرح الكلم الطيب للعيني (ص-٢٧١-٢٧٦)، هناك نوع آخر من أنواع الاستفتاح، ولفظه: عن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بِمَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَفْتِحُ قِيَامَ اللَّيْلِ؟ قَالَتْ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ أَحَدٌ قَبْلَكَ، كَانَ إِذَا قَامَ: «كَبَّرَ عَشْرًا، وَحَمَدَ عَشْرًا، وَسَبَّحَ عَشْرًا، وَهَلَّلَ عَشْرًا، وَاسْتَغْفَرَ عَشْرًا، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي. وَفِي رِوَايَةٍ «وَاجْبُرْنِي»، وَعَافِنِي، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ضَيْقِ الْمَقَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».. أَبُو دَاوُدَ، بَرَقْم ٧٦٦، وَالنَّسَائِيُّ، بَرَقْم ١٦١٧، وَأَحْمَدُ، ١٤٣ / ٦، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صِفَةِ صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، (ص-٨٩).

وفائدة الاستعاذة هنا: ليكون الشيطان بعيداً عن قلب المرء، وهو يتلو كتاب الله ﷻ حتى يحصل له بذلك تدبّر القرآن، وتفهم معانيه، والانتفاع به^(١).

ومن لطائف الاستعاذة: أنها طهارة للضم، مما كان يتعاطاه: من اللغو، والرفث، وتطيب له، وتهيؤاً لتلاوة كلام الله، وهي استعانة بالله، واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف، والعجز عن مقاومة العدو المبين، الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، الذي يراه وهو لا يراه، فهو في مقابل ذلك يستعين بالذي يرى الشيطان، ولا يراه الشيطان، فالمسلم يلجأ إلى الله من الشيطان أن يضربه في دينه أو دنياه، بصدّه عن فعل ما أمر به، أو بحثه على فعل ما نُهي عنه

ب- روى أهل السنن عن أبي سعيد الخدري، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ بِاللَّيْلِ كَبَّرَ، ثُمَّ يَقُولُ: « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، ثُمَّ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْسِهِ »^(٢).

قوله: « مِنْ هَمَزِهِ »: فسره بعض الرواة بالمؤتة، بضم الميم، وفتح التاء: نوع من الجنون والصرع يعتري الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه عقله.

قوله: « وَنَفْخِهِ »: فسره الراوي بالكبر، وكان الكبر من نفخ الشيطان؛ لأنه ينفخ في الشخص بالوسوسة، فيعتقد عظم نفسه، وحقارة غيره.

(١) تفسير القرآن العظيم، (١/١١٥)، والشرح الممتع، (٣/٧١-٧٣).

(٢) أبو داود، (٧٧٥)، والترمذي، (٢٤٢)، قال محقق أبي يعلى رَحِمَهُ اللهُ، (١١٠٨): إسناده جيد.

قوله: «وَنَفَّخِهِ»: فسره الراوي بالشعر، والمراد: الشعر المذموم كالهجاء^(١)؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمًا»^(٢).

٤- فهم وتدبر معنى البسملة:

قوله: «بِسْمِ اللَّهِ»: بمعنى أقرأ باسم الله^(٣).

٥- فهم وتدبر معاني الفاتحة أم القرآن:

قوله **عَلَّمَ**: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» الحمد: هو الوصف بصفات الكمال، مع كمال المحبة والتعظيم، والألف واللام في «الْحَمْدُ»: لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى.

قوله **عَلَّمَ**: «رَبِّ الْعَالَمِينَ»: الرب: هو الخالق، المالك، المتصرف، ولا يستعمل لغير الله إلا بالإضافة؛ كقولك: رب الدار، و«الْعَالَمِينَ»: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله - عز وجل - من أصناف المخلوقات: في السموات، والبر، والبحر، والعالم مشتق من العلامة؛ لأنه علم دال على وجود خالقه سبحانه.

قوله **عَلَّمَ**: «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»: اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والأول أبلغ لعمومه في الدارين لجميع خلقه، أما الثاني فخاص بالمؤمنين.

قوله **عَلَّمَ**: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»: لا يملك مع الله سبحانه أحد في هذا اليوم حكماً كملكهم في الدنيا، وهو يوم القيامة، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن

(١) سبل السلام، (١/٢٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٨٤٥)، وحسنه.

(٣) تفسير الطبري، (١/١١٥).

شراً فشر، إلا من عفا عنه سبحانه؛ قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال النبي ﷺ: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيَنْ مَلُوكِ الْأَرْضِ؟» (١) و «الدين»: الجزاء والحساب لله.

قوله ﷺ: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»: هذان مرجع الدين، وقُدِّم المفعول للاهتمام والحصر، والمعنى: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين، ونتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة؛ فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة، وتحوُّل الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب؛ لأن القارئ كأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: «إياك»، وهذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة، وإرشاده لعباده أن يثنوا عليه بذلك.

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ» أي: نُوحِّدُ ونخاف ونرجو، «وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» على طاعتك، وعلى أمورنا كُلِّهَا، وقُدِّم العبادة له؛ لأنها هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، وللاهتمام والحزم يقدم الأهم فالأهم.

قوله ﷺ: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»: بعد تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يُعقَّب بالسؤال وهو الهداية، والهداية هاهنا هي هداية الإرشاد، أي: العلم، وهداية التوفيق، أي العمل، والصراط أي الطريق الواضح المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، الذي نصبه الله لأهل نعمته، وهو العبادة، فالصراط هاهنا: المتابعة لله تعالى وللرسول ﷺ، والمؤمن يسأل الله تعالى في

(١) رواه مسلم، (٢٧٨٧).

كل صلاة الهداية؛ وذلك لأن العبد مفتقر كل ساعة، وحالة إلى الله تعالى، في تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فمعنى «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» أي. استمر بنا عليه، ولا تعدل بنا إلى غيره.

قوله ﷺ: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: المنعم عليهم هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠]، أي أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك، وأنبيائك، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

قوله ﷺ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»: هم اليهود، وكل من علم الحق ولم يعمل به. و «الضَّالِّينَ»: هم النصارى، وكل من جهل الحق، وقدم اليهود على النصارى في الذكر؛ لأنهم كانوا هم الذين يلون النبي ﷺ، حيث كانوا جيرانه في المدينة بخلاف النصارى فإن ديارهم كانت نائية؛ ولذا نجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارى (١).

قوله: «آمِينَ»: بتخفيف الميم، أي: اللهم استجب لنا ما سألناك، قال الفقهاء: من شدد الميم بطلت صلاته؛ لأنَّ معناها حيثئذ: قاصدين، وهذا من جنس كلام المخلوقين (٢).

وفي التأمين فضل عظيم، فمع كونه قولاً يسيراً لا كلفة فيه، يترتب عليه

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم، (٣٢/٢)، تفسير القرآن العظيم، ص (١/١٤٠).

(٢) الشرح الممتع، (٣/٩٦).

المغفرة؛ لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ آمِينَ، وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿عَبَّرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» (٢).

٦- فَهْمٌ وَتَدَبُّرٌ مَعَانِي أَذْكَارِ الرُّكُوعِ:

أ- روى ابن ماجه عن حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا رَكَعَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ "ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» وأخرجه مسلم مطولا (٣).

معنى التسييح: التنزيه، والذي يُنَزَّه الله عنه أمور:

أحدها: مطلق النقص.

والثاني: النقص في كماله.

والثالث: وقد يكون من الثاني - مماثلة المخلوقين. فهذه ثلاثة أشياء يُنَزَّه الله

عنها.

أما الأول: فيُنَزَّه عن الجهل، والعجز، والضعف، والموت، والنوم وما أشبه

ذلك.

(١) البخاري، (٧٨١)، ومسلم، (٤١٠).

(٢) البخاري، (٧٨٢)، ومسلم، (٤١٠).

(٣) ابن ماجه، (٨٨٨)، ومسلم، (٧٧٢).

أَمَّا الثَّانِي: فَيُنزَّهَ عَنِ التَّعَبِ فِيمَا يَفْعَلُهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾، [ق: ٣٨]

وَأَمَّا الثَّلَاثُ: مِمَّا ثَلَّةَ الْمَخْلُوقِينَ، فَإِنَّ مِمَّا ثَلَّةَ الْمَخْلُوقِينَ نَقْصٌ؛ لِأَنَّ الْإِحَاقَ الْكَامِلَ بِالنَّاقِصِ يَجْعَلُهُ نَاقِصًا، بَلْ مِقَارَنَةُ الْكَامِلِ بِالنَّاقِصِ يَجْعَلُهُ نَاقِصًا كَمَا قِيلَ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ إِذَا قِيلَ: إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا وَقَوْلُهُ: «رَبِّي الْعَظِيمُ». الْعَظِيمُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَأَمَّا عِظَمُ صِفَاتِهِ فَلَا تَسْأَلُ عَنْهَا، مَا مِنْ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ إِلَّا وَهِيَ عَظْمَى كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [النحل: ٦٠]

وَالتَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمُ بِاللِّسَانِ تَعْظِيمٌ قَوْلِيٌّ، وَبِالرُّكُوعِ تَعْظِيمٌ فِعْلِيٌّ، فَيَكُونُ الرَّكَعُ جَامِعًا بَيْنَ التَّعْظِيمَيْنِ: الْقَوْلِيَّ وَالْفِعْلِيَّ (١).

وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ» (٢).

ب- رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبُوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» (٣).

قَوْلُهُ: «سُبُوحٌ قُدُّوسٌ»، الْمَبْرَأُ مِنَ النَّقَائِصِ وَالشَّرِيكَ، وَكُلُّ مَا لَا يَلِيقُ

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/٩٣).

(٢) رواه مسلم، (٤٧٩).

(٣) رواه مسلم، (٤٨٩).

بالإلهية، وقُدُّوس: المطهَّر من كل ما لا يليق بالخالق.

وقال الهروي: قيل: القُدُّوس المبارك، قال القاضي عياض: وقيل فيه: سُبُّوحًا قُدُّوسًا على تقدير: أُسْبِحُ سُبُّوحًا، أو أذكر، أو أعظم، أو أعبد..

والفرق بين التسبيح والتقدیس أن التسبيح للأسماء والتقدیس للآلاء وكلاهما يؤدي إلى العظمة (١).

قوله: «رَبُّ الْمَلَائِكَةِ»: أَي الَّذِينَ هُمْ أَعْظَمُ الْعَوَالِمِ وَأَطْوَعُهُمْ لِلَّهِ، وَأَدْوَمُهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ أُضِيفَتِ التَّرْبِيَةُ إِلَيْهِمْ بِخُصُوصِهِمْ، وَفِي حَدِيثٍ عِنْدَ أَبِي الشَّيْخِ: " لَيْسَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مَا مِنْ شَيْءٍ يَنْبُتُ إِلَّا وَمَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ " (٢).

قوله: «والروح»: قيل: مَلَكٌ عَظِيمٌ، وقيل: يحتمل أن يكون جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: خلق لا تراهم الملائكة، كما لا نرى نحن الملائكة، والله - سبحانه وتعالى أعلم (٣).

ج- وروى الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» (٤).

قوله: «سُبْحَانَكَ» التسبيح التنزيه وقولهم سبحانه الله منصوب على المصدر

(١) فيض القدير، (٤/ ٣٥٥).

(٢) العظمة لأبي الشيخ، (٢/ ٧٤٤)، وانظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٢/ ٧٠٩).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (٤/ ٢٠٥).

(٤) البخاري، (٧٩٤) مسلم، (٤٨٤).

يقال سبحت الله تسبيحا وسبحانا فسبحان الله معناه براءة وتنزيها له من كل نقص.

قوله: «وبحمدك»: أي وبحمدك سبحتك ومعناه بتوفيقك لي وهدايتك وفضلك علي سبحتك لا بحولي وقوتي ففيه شكر الله تعالى علي هذه النعمة والاعتراف بها والتفويض إلى الله تعالى وأن كل الأفعال له والله أعلم^(١).

د- روى مسلم عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصْرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصْبِي»^(٢).

الخُشُوع: الخضوع والتواضع. وَالْمَعْنَى أَنَّ جَوَارِحِي ذَلِيلَةٌ مُنْقَادَةٌ لِأَمْرِكَ^(٣).

قوله: «خشع لك سمعي وبصري»: أي: خضع لك، فلا يسمع إلا ما أذنت في سماعه، وخضع بصري، فلا يبصر إلا ما أذنت في إبصاره، وخصَّ السمع والبصر بالذكر من بين الحواس؛ لأن أكثر الآفات منهما، فإذا خشعا قلت الوسواس؛ ولأن تحصيل العلم النقلية والعقلية بهما.

قوله: «مخي، وعظمي، وعصبي»: المراد خضع لك جسمي باطنًا، كما خضع لك ظاهراً، وكنتي بهذه الثلاثة عن الجسم؛ لأن مدار قوامه عليها،

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (٤/٢٠٢).

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي، (١/٢٠٧).

(٣) مسلم، (٧٧١).

والغرض من هذا كله المبالغة في الانقياد والخضوع لله جل وعلا (١).

هـ- وروى أبو داود عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبْرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ» (٢).

قوله: «ذي الجبروت» فَعَلُوت: من الجبر، وهو القهر، وهو صفة من صفات الله تعالى، ومنه الجَبَّار، ومعناه: الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونهي، وكل شيء يريد.

قوله: «والملكوت»: والملك، وهو التصرف، أي صاحب القهر والتصرف البالغ كل منهما غاية (٣).

قوله: «والكبرياء»: أي: سبحان ذي الكبرياء: أي العظمة، والملك، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات، وكمال الوجود، ولا يوصف بها إلا الله - سبحانه وتعالى - (٤).

وقيل: الكبرياء عبارة عن كمال الذات، والعظمة عن كمال الصفات. وقيل: الكبرياء الترفع والتنزه عن كل نقص، والعظمة تجاوز القدر عن الإحاطة. ويدل على الفرق بينهما الحديث القدسي في الصحيح: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي» (٥).

(١) العلم الهيب في شرح الكلم الطيب للعيني، (ص-٢٨٠).

(٢) أبو داود، (٨٧٣)، والنسائي، (٢/١٩١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للرحماني المباركفوري، (٣/١٩٨).

(٤) العلم الهيب في شرح الكلم الطيب للعيني، (ص-٢٨٦).

(٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، (٣/٩٨)، وانظر صحيح الجامع.

٧- فَهَمْ وَتَدَبَّرَ مَعَانِي أَذْكَارِ الرَّفْعِ مِنَ الرَّكْعَةِ.

أ- رَوَى الشَّيْخَانُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «..... كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكَبِّرُ حِينَ يَرْكَعُ، ثُمَّ يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، حِينَ يَرْفَعُ» (١).

قول المصلي: (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده فأثابه (٢).

قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَى سَمِعَ هُنَا أَجَابَ وَمَعْنَاهُ أَنْ مِنْ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مُتَعَرِّضًا لِثَوَابِهِ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ وَأَعْطَاهُ مَا تَعَرَّضَ لَهُ (٣).

ب- رَوَى الشَّيْخَانُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يُكَبِّرُ حِينَ يَقُومُ، ثُمَّ يُكَبِّرُ حِينَ يَرْكَعُ، ثُمَّ يَقُولُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، حِينَ يَرْفَعُ صُلْبَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ، ثُمَّ يَقُولُ وَهُوَ قَائِمٌ: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ» (٤).

قوله: «ربنا»: أي: أنت الرب الملك القيوم، الذي بيده الأمور، ثم عطف على هذا المعنى قوله: «ولك الحمد» فجمع بين الدعاء والاعتراف، أي: ربنا تقبل منا، ولك الحمد على هدايتك إيانا لما يرضيك عنا،

والحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة، والتعظيم (٥).

(١) البخاري، (٧٩٨)، ومسلم (٣٩٢).

(٢) تفسير سورة الحجرات للعثيمين، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، (١٤).

(٣) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، (١/٧٤).

(٤) البخاري، (٧٨٩) مسلم، (٣٩٢). وقال ابن القيم: كَانَ إِذَا اسْتَوَى قَائِمًا قَالَ: (رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) وَرَبِّمَا قَالَ: (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ) وَرَبِّمَا قَالَ: (اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ) صَحَّ ذَلِكَ عَنْهُ. وَأَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ "اللَّهُمَّ" وَ"الْوَاوِ" فَلَمْ يَصِحَّ. زاد المعاد، (١/٢١٢).

(٥) بدائع الفوائد، (٢/٩٣)، وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ: ومعلوم أن القيام بعد الركوع ليس فيه ذكر واجب إلا قول: "ربنا لك الحمد" للإمام والمنفرد، أما المأموم فإنه يقول: "ربنا ولك الحمد"، في حال نهوضه من الركوع. -فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام،

قوله: «طيباً» أي: خالصاً من الرياء والشبهة.

قوله: «مباركاً» أي: متزايداً كثير الخير (١).

ج- روى مسلم عن أَبِي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: « رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِْلءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلْنَا لَكَ عَبْدًا: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ » (٢).

قوله: «ملء السموات، وملء الأرض»: الله سبحانه محمود على كل شيء؛ على كل مخلوق يخلقه، وعلى كل فعل يفعله؛ ولأن المخلوقات تملأ السموات والأرض، فيكون الحمد حينئذ مائلاً للسموات والأرض، فالمُصَلِّي يستحضر بهذا الذكر أن الله محمود على كل فعل فعله، وعلى كل خلق خلقه.

وقوله: «وَمِْلءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ» أي: بعد السموات والأرضين: كالكرسي، والعرش، وما تحت الأرضين مما لا يعلمه إلا الله، ولا يحيط به سواه، والمراد الاعتناء في تكثير الحمد، وفي هذا اللفظ إشارة إلى الاعتراف بالعجز عن أداء حق الحمد بعد استفراغ المجهود فيه، وأنه ﷺ حَمَدَهُ مِْلءَ السموات والأرض، وملء ما بينهما، ثم ارتفع فأحال الأمر فيه على المشيئة، وليس وراء ذلك الحمد منتهى (٣).

(٢/١٣) بتحقيق المؤلف.

(١) اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، (٤/١٥٨).

(٢) مسلم، (٤٧٧).

(٣) المنهل العذب، (٥/١٧٠) والعلم الهيب، (ص-٢٨٨).

قوله (أهل الشاء والمجد) على تقدير أنت أهل الشاء والوصف الجميل والمدح والمجد العظمة ونهاية الشرف.

قوله: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»: الْمَشْهُورُ فَتَحُ الْجِيمِ، بِمَعْنَى الْعِظَمَةِ أَوْ الْحِظِّ أَوْ الْغِنَى أَوْ النَّسَبِ.

قَالَ التَّوْرِبِشْتِيُّ: أَيُّ لَا يَنْفَعُ ذَا الْغِنَى مِنْكَ غِنَاهُ، وَرَبَّمَا يَنْفَعُهُ الْعَمَلُ بِطَاعَتِكَ، فَمَعْنَى مِنْكَ: عِنْدَكَ، وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا آخَرَ: أَيُّ لَا يُسْلِمُهُ مِنْ عَذَابِكَ غِنَاهُ، قَالَ الْمُظْهَرُ: أَيُّ لَا يَمْنَعُ عِظَمَةَ الرَّجُلِ وَغِنَاهُ عَذَابَكَ عَنْهُ إِنْ شِئْتَ عَذَابَهُ، وَقِيلَ: لَا يَنْفَعُ ذَا الْحِظِّ، وَالْإِقْبَالِ بِذَلِكَ، أَيُّ: بَدَلَ طَاعَتِكَ، وَقِيلَ: (لَا يَنْفَعُ) مَعْطُوفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، أَيُّ: وَلَا يَنْفَعُ عَطَاؤُهُ كَمَا لَا يَضُرُّ مَنَعُهُ وَذَا الْجَدِّ مُنَادَى، أَيُّ: يَا ذَا الْجَدِّ يَعْنِي يَا ذَا الْغِنَى وَالْعِظَمَةَ وَالْحِظِّ، مِنْكَ الْجَدُّ لَا مِنْ غَيْرِكَ، وَقِيلَ: الْجَدُّ أَبُو الْأَبِ وَأَبُو الْأُمِّ، أَيُّ: لَا يَنْفَعُ ذَا النَّسَبِ الشَّرِيفِ نَسَبُهُ مِنْكَ، وَقَالَ الرَّاعِبُ: الْمَعْنَى لَا يُتَوَصَّلُ إِلَى ثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ بِالْجَدِّ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالْجَدِّ بِالطَّاعَةِ (١).

قوله: "أحق ما قال العبد" تقديره: أحق قول العبد: لا مانع لما أعطيت...

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للقاري، (٢/٧١٢)، فبين النبي ﷺ أنه من كان له في الدنيا رئاسة ومال لم ينجه ذلك، ولم يخلصه من الله؛ وإنما ينجيه من عذابه إيمانه وتقواه، فها هنا أصلان عظيمان: أحدهما: توحيد الربوبية، وهو أن لا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ اللَّهُ، ولا مانع لما أعطاه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يُسأل إلا هو. والثاني: توحيد الألوهية، وهو بيان ما ينفع، وما لا ينفع، وأنه ليس كل من أعطي مالا أو دنيا أو رئاسة كان ذلك نافعاً له عند الله، منجياً له من عذابه؛ فإن الله يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب - فتاوى شيخ الإسلام، (٢٢/٤٤٧).

إلخ، واعترض بينهما: «وكلنا لك عبد» للاهتمام به، وارتباطه بالكلام السابق، وتقديره: أحق قول العبد: لا مانع لما أعطيت، وكلنا لك عبد، فينبغي لنا أن نقوله.

وفي هذا الكلام دليل ظاهر على فضيلة هذا اللفظ؛ فقد أخبر النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أن هذا أحق ما قاله العبد، فينبغي أن نحافظ عليه، ولا نهمله؛ لأن كلنا عبد، وإنما كان أحق ما قاله العبد؛ لما فيه من التفويض إلى الله تعالى، والإذعان له، والاعتراف بوحدانيته، والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به، وأن الخير والشر منه، والحث على الزهادة في الدنيا، والإقبال على الأعمال الصالحة.

قوله: «لا مانع لما أعطيت» أي: لا مانع لما أردت إعطائه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]

قوله: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد»: أي لا ينفع صاحب الغنى من عذابك غناه، ويحتمل أن تكون «منك» بمعنى عندك، أي: لا ينفع صاحب الغنى عندك غناه، وإنما ينفعه العمل بطاعتك^(١).

د- روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى، يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ طَهِّرْني بِالثلجِ وَالبَرْدِ، وَالماءِ البَارِدِ اللَّهُمَّ طَهِّرْني مِنَ الذُّنُوبِ

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، (٤/ ١٩٤-١٩٦)، والمنهل العذب، (٥/ ٢٨٨-٢٨٩).

وَالْخَطَايَا، كَمَا يُنْقَى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ»^(١).

قوله: «اللهم طهرني من الذنوب والخطايا» الذنب: الإثم بين العبد وبين الأدمي، والخطيئة: المعصية بين العبد وبين الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: ١١٢].

قوله: «كما ينقى الثوب الأبيض من الوسخ» معناه: نقني نقاء كاملاً، كما يُنْقَى الثوب الأبيض من الدنس^(٢).

٨- فَهْمٌ وَتَدَبُّرٌ مَعَانِي أَذْكَارِ السُّجُودِ:

أ- روى مسلم عن حذيفة، قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ... ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»^(٣). وعند ابن ماجه «وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: "سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(٤).

قوله: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»: أي: تنزيهاً لك يا رب عن كل نقص في الكمال، وعن مماثلة المخلوقين، و «الأعلى»: ثناء على الله سبحانه بالعلو، فالمُصَلِّي نزل للسجود، والنزول نقص، فكان الثناء على الله بالعلو أولى؛ لتنزيهه تعالى عن النقص الذي حصل للساجد، والمراد بالعلو: علو المكان، وعلو الصفة، فهو سبحانه عليٌّ في ذاته، وعليٌّ في صفاته، بل هو أعلى من كل

(١) مسلم، (٤٧٦).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، (٤/١٩٣-١٩٤).

(٣) مسلم، (٧٧٢).

(٤) ابن ماجه، (٨٨٨)، وانظر حديث رقم: ٤٧٣٤ في صحيح الجامع.

شيء - سبحانه وتعالى -، وله سبحانه الكمال المطلق: في علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر (١).

ب- «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ والرُّوحِ» (٢).

ج- «سَبِّحانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغفر لي» (٣).

د- «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ» (٤).

قوله: «وشقَّ سمعه» أي: طريق سمعه؛ إذ السمع ليس في الأذنين، بل في مقعد الصماخ، (٥) «أحسن الخالقين» أي: أحسن المصورين والموجدين؛ فإنه سبحانه الخالق الحقيقي، المنفرد بالإيجاد والإمداد وغيره (٦).

هـ- «سَبِّحانِ ذِي الجَبْرُوتِ، وَالْمَلَكُوتِ، وَالكِبْرِيَاءِ، وَالْعِظْمَةِ» (٧).

و- «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره».

قوله: «دقة»: بالكسر أي دقيقته وصغيره «وجلّه»: بكسر الجيم، وقد تضمَّ

(١) الشرح الممتع، (٣/ ١٧١-١٧٢).

(٢) رواه مسلم (٤٨٧)، وشرح في "فهم وتدبر معاني أذكار الركوع".

(٣) البخاري، (٧٩٤)، ومسلم، (٤٨٤).

(٤) مسلم، (٧٧١).

(٥) بذل المجهود في حل سنن أبي داود، (٤/ ١٢٥)..

(٦) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٣/ ٩٢)، قال الليث: الصماخ: خرقة الأذن إلى

الدماغ، والسماخ لغة فيه، والصاد تميمية. «تهذيب اللغة (٧/ ٧٣)».

(٧) رواه مسلم، (٤٨٧)، وشرح في أذكار الركوع.

أَيَّ جَلِيلَةٍ وَكَبِيرَةٍ، قِيلَ: إِنَّمَا قُدِّمَ الدُّقُّ عَلَى الْجِلِّ؛ لِأَنَّ السَّائِلَ يَتَّصَعَدُ فِي مَسْأَلَتِهِ، أَيُّ: يَتَرَقَّى؛ وَلِأَنَّ الْكَبَائِرَ تَنْشَأُ غَالِبًا مِنَ الْإِضْرَارِ عَلَى الصَّغَائِرِ وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِهَا، فَكَانَتْهَا وَسَائِلٌ إِلَى الْكَبَائِرِ، وَمِنْ حَقِّ الْوَسِيلَةِ أَنْ تُقَدَّمَ إِثْبَاتًا وَرَفْعًا^(١). وهو تناول جميع ذنوبه مجملًا، ثم فصله بقوله: «دقه وجله»، وفائدته: أن التفصيل بعد الإجمال أوقع، وفيه علمان، والعلمان خير من علم واحد، وهو أعظم بالاعتراف والإقرار بما اقترف من الذنب.

قوله: «وَأَوَّلُهُ وَآخِرُهُ»: الْمَقْصُودُ الْإِحَاطَةُ.

قوله: «وَعَلَانِيَتُهُ وَسِرُّهُ»: أَيُّ: عِنْدَ غَيْرِهِ تَعَالَى، وَإِلَّا فَهَمَّا سَوَاءٌ عِنْدَهُ تَعَالَى:

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]

والغرض من هذا كمال التواضع والإذعان من النبي ﷺ؛ لامثال أمر الله - سبحانه وتعالى -، والتشريع للأمة، وإلا فهو ﷺ معصوم من الذنوب.

وفي هذا اللفظ تأكيد الدعاء، وتكثير ألفاظه، وإن أغنى بعضه عن بعض، إلا أن إطالة الدعاء تدل على محبة الداعي؛ لأن الإنسان إذا أحب شيئاً أحب طول مناجاته، تكثير ألفاظ الدعاء يظهر فيه من التفصيل ما يدل على شدة افتقار الإنسان إلى ربه في كل حال، فالله الغني ونحن الفقراء، واستحضار الإنسان لذنوبه؛ لأن للذنوب أنواعاً، فإذا زيد في الدعاء استحضرت^(٢).

ح- «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٢/ ٧٢١).

(٢) العلم الهيب، (ص ٢٩٤)، و الشرح الممتع، (٣/ ١٨٣).

بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ» (١).

«اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك» أي بما يرضيك عما يسخطك فقد خرج العبد هنا عن حظ نفسه بإقامة حرمة محبوبة فهذا الله ثم الذي لنفسه من هذا الباب

قوله: «وبمعافاتك من عقوبتك» استعاذ بمعافاته بعد استعاذته برضاه لأنه يحتمل أن يرضى عنه من جهة حقوقه ويعاقبه على حقوق غيره

قوله: «وأعوذ بك منك» أي برحمتك من عقوبتك فإن ما يستعاذ منه صادر عن مشيئته وخلقته بإذنه وقضائه فهو الذي سبب الأسباب الذي يستفاد به منها خلقا وكونا وهو الذي يعيد منها ويدفع شرها خلقا وكونا فمنه السبب والمسبب وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاهما قوى التأثير وهو الذي أوجدها وأعددها وأمددها وهو الذي يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها فتأمل ما تحت قوله أعوذ بك منك من محضر التوحيد وقطع الالتفات إلى غيره وتكميل التوكل عليه وإفراده بالاستعانة وغيرها

قوله: «لا أحصي ثناء عليك» في مقابلة نعمة واحدة من نعمك ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ والغرض منه الاعتراف بتقصيره عن أداء ما أوجب عليه من حق الثناء عليه تعالى

قوله: «أنت كما أثنت على نفسك» بقولك

وهذا اعتراف بالعجز عن التفصيل وأنه غير مقدور فوكله إليه سبحانه وكما أنه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه إذ الثناء تابع للمثنى عليه فكل ثناء أثنى عليه به وإن كثر وطال وبولغ فيه فقدّر الله أعظم وسلطانه أعز وصفاته أجل ذكره القاضي (١).

٩- روى أبو داود عن ابن عباس، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي» (٢).

وفي رواية «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي» (٣).

أ- «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي»

المغفرة: هي سَتْرُ الذَّنْبِ والتجاوز عنه، مأخوذة من المِغْفَر الذي يُوضَع على الرأس عند القتال لتوقِّي السَّهَامِ، وفي هذا المِغْفَر سِتْرٌ ووقاية، فالمغفرة ليست مجرد سِتْرُ الذُّنُوبِ، ولا هي العفو عنها فقط، بل هي: السَّتْرُ مع العفو (٤)، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى إذا خلا بعبده يوم القيامة وقرّره بذنوبه: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم» (٥).

«وارحمني»: طلب رحمة الله ﷻ التي بها حصول المطلوب، وبالمغفرة

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٢/١٣٩)، والمنهل العذب، (٥/٣٢٧).

(٢) أبو داود، (٨٥٠)، وصححه الحاكم، (١/٣٩٣) ووافقه الذهبي.

(٣) أبو داود، (٨٧٤)، والنسائي (٢/٢٣١)، وابن ماجه، (٨٩٧)، وصححه الألباني في الإرواء، (٤١/٢).

(٤) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/٣٢١).

(٥) البخاري، (٢٤٤١)؛ ومسلم، (٢٧٦٨).

زوال المرهوب، هذا إذا جمع بينهما؛ فإن الرحمة إذا قرنت بالمغفرة: فالمغفرة لما مضى، والرحمة سؤال الله تعالى السلامة من ضرر الذنوب وشرها في المستقبل، وأما إذا أُفرد الدعاء بالرحمة: فهو طلب المغفرة لما مضى، والتوفيق والعصمة فيما يستقبل (١).

قوله: «وعافني» أي: أعطني العافية من كل مرضٍ ديني أو بدني، ثم إن كان متّصفاً بهذا المرض؛ فهو دعاء برّفعه، وإن كان غير متّصف فهو دعاء بدّفعه، بحيث لا يتعرّض له في المستقبل.

والأمراض نوعان: مرض قلبي كما قال تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾.

ومرض جسمي في الأعضاء والبدن (٢).

قوله: «واهدني»: يعني هداية الإرشاد، وهداية التوفيق، فهداية الإرشاد: التي ضدها الضلال، وهداية التوفيق: التي ضدها الغي، فأنت إذا قلت: «واهدني» تسأل الله سبحانه الهديتين: هداية الإرشاد، وذلك بالعلم النافع، وهداية التوفيق، وذلك بالعمل الصالح، فينبغي للإنسان أن يستحضر أنه يسأل ربه العلم النافع، والعمل الصالح، وذلك لأن الهداية التامة النافعة هي التي يجمع الله فيها للعبد بين العلم والعمل؛ لأن الهداية بدون عمل لا تنفع، بل هي ضرر؛ لأن الإنسان إذا لم يعمل بما علم صار علمه وبالاً عليه، ومثال الهداية العلمية بدون

(١) الشرح الممتع على زاد المستنقع، (٣/ ٣٢١).

(٢) إيقاظ الأفهام في شرح عمدة الأحكام، (٤/ ٥٩).

عمل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، معنى «هَدَيْنَاهُمْ» أي: بينا لهم الطريق، وأبلغناهم العلم، ولكنهم - والعياذ بالله - ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (١).

قوله: «ارزقني» فهو طلب الرزق، وهو ما يقوم به البدن، وما يقوم به الدين.
قوله: «واجبرني» قال في النهاية: واجبرني أي أغني، من جبر الله مصيبته أي رد عليه ما ذهب عنه أو عوضه عنه وأصله من جبر الكسر.
فإن قال قائل: أليس يغني عن ذلك كله أن يقول: «اللَّهُمَّ ارحمني»؟ لأنَّ الرحمة عند الإطلاق: بها حصولُ المحبوب وزوال المكروه؟

فالجواب: بلى، لكن مقام الدعاء ينبغي فيه البسط، لكن على حسب ما جاءت به السُّنَّة، وليس البسط بالأدعية المسجوعة التي ليس لها معنى، أو يكون لها معنى غير صحيح (٢).

قوله: «وارفعني» (٣): عندك منزلة أي ارفعني في الدارين: بالعلم النافع،

(١) قال ابن رجب:، «وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ لِي الْهُدَىٰ لِي» إِيَّارَةً إِلَىٰ أَنَّ التَّوْفِيقَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَنْ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْهُدَىٰ اهْتَدَىٰ، وَمَنْ لَمْ يُيسِّرْهُ عَلَيْهِ، لَمْ يُيسِّرْ لَهُ ذَلِكَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿١٠٠﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿١٠١﴾ فَسَنبَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠٢﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿١٠٣﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿١٠٤﴾ فَسَنبَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠٥﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، «وَقَالَ ﷺ: اَعْمَلُوا فِكْلٌ مُّيسِّرٌ لِّمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيَسِّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ تَلَا ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ». «جامع العلوم والحكم (٢/١٣٧)».

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/١٣٢).

(٣) وردت هذه اللفظة عند ابن ماجه، (٨٩٨)، وحسنها محقق ابن ماجه.

والعمل الصالح، وازرقني درجة عالية في الجنة (١).

١٠ - فهم وتدبر معاني التشهد:

أ- روي الشيخان عن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «...إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» (٢).

قوله: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ». جَمْعُ تَحِيَّةٍ، وَمَعْنَاهَا: البَقَاءُ وَالدَّوَامُ، أَوْ العِظَمَةُ أَوْ السَّلَامَةُ مِنَ الآفَاتِ، أَوْ كُلُّ أنواعِ التَّعْظِيمِ لِلَّهِ

قوله: «وَالصَّلَوَاتُ»: قِيلَ: الخَمْسُ، أَوْ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ الفَرَضِ وَالنَّفْلِ، أَوْ العِبَادَاتُ كُلُّهَا، أَوْ الدَّعَوَاتُ، أَوْ الرَّحْمَةُ وَقِيلَ التَّحِيَّاتُ: العِبَادَاتُ القَوْلِيَّةُ، وَالصَّلَوَاتُ العِبَادَاتُ الفِعْلِيَّةُ

قوله: «وَالطَّيِّبَاتُ» أَيُّ مَا طَابَ مِنَ الكَلَامِ، وَحَسُنَ أَنْ يُثْنِيَ بِهِ عَلَى اللَّهِ، أَوْ الأَقْوَالُ الصَّالِحَةُ، أَوْ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، أَوْ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ذَلِكَ، وَطَيِّبُهَا كَوْنُهَا كَامِلَةً خَالِصَةً مِنَ الشَّوَابِ (٣). قال في الفتح: أي: الأعمال الصالحة.

وقد فسرت بالأقوال، قال: ولعل تفسيرها بما هو أعم أولى؛ فيشمل الأفعال

(١) المنهل العذب المورود، (٥/٢٩٢)، «مرشد ذوي الحجا والحاجة إلى سنن ابن ماجه والقول المكتفى على سنن المصطفى، (٦/٧٨)».

(٢) البخاري، (٨٣١)؛ ومسلم، (٤٠٢).

(٣) سبل السلام، (١/٢٨٤).

والأقوال والأوطان، وطبيها: كونها كاملة خالصة عن الشوائب (١).

وقال ابن القيم: الطيبات: صفة لموصوف محذوف، أي: الطيبات من الكلمات والأفعال والصفات والأسماء لله وحده؛ فهو طيب، وكلامه طيب، وأفعاله طيبة، وصفاته أطيب شيء، وأسماءه أطيب الأسماء، فاسمه: الطيب، ولا يصدر عنه إلا طيب، ولا يصعد إليه إلا طيب، وإليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الطيب يعرج إليه، فالطيبات كلها له، ومضافة إليه، وصادرة عنه، ومنتية إليه، قال النبي ﷺ: "إن الله طيب، لا يقبل إلا طيباً" (٢). وقد حكم سبحانه بشرعه وقدره أن الطيبات للطيبين، فإذا كان هو سبحانه الطيب على الإطلاق؛ فالكلمات الطيبات، والأفعال الطيبات، والصفات الطيبات، والأسماء الطيبات، كلها له - سبحانه وتعالى -، لا يستحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلا بطيبه، وطيب كل ما سواه من آثار طيبه، ولا تصح هذه التحية الطيبة إلا له، انتهى (٣).

قوله: «السلام عليك» المراد بالسلام: اسم الله ﷻ؛ لأن النبي ﷺ قال: «إن الله هو السلام» (٤)، وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ لِكُ الْقُدُّوسُ أَلْسَلَمٌ ﴾ [الحشر: ٢٣]، ومعنى سلام الله على الرسول، أي بالحفظ، والكلاءة، والعناية، فكأننا نقول: الله عليك، أي: رقيب حافظ معتن بك، حافظ لك من الآفات، وما أشبه ذلك.

(١) "فتح الباري" لابن حجر (٢/ ٣١٣)، وكشف اللثام شرح عمدة الأحكام، (٢/ ٥٧١).

(٢) رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) "صفة صلاة النبي ﷺ" لابن القيم (ص: ٢١٤ - ٢١٥).

(٤) البخاري، (٨٣١)، ومسلم، (٤٠٢).

وقيل: السلام بمعنى التسليم، أي: ندعو له بالسلامة من كل آفة، وإن قال قائل: يكون هذا الدعاء في حياته عليه الصلاة والسلام واضحاً، لكن بعد مماته، كيف يناسب أن ندعو له بالسلامة؟ والجواب ليس الدعاء بالسلامة مقصوراً في حال الحياة، فهناك أهوال يوم القيامة؛ ولهذا كان دعاء الرسل أثناء عبور الناس الصراط: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١)، فالمرء لا ينتهي من المخاوف والآفات بمجرد موته.

كما قد يكون السلام بمعنى أعم؛ وهو السلام على شرعه وستته وسلامتها من أن تنالها أيدي العابثين^(٢).

قوله: «أَيُّهَا النَّبِيُّ»: منادى حُذفت منه «يا» النداء، والأصل: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ، وقيل في حكمة وصفه ﷺ هنا بالنبوة؛ ليجتمع له الوصفان؛ فإنه وُصف بالرسالة في آخر التشهد، وإن كانت الرسالة تستلزم النبوة، فالتصريح بها أبلغ.

قوله: «وَرَحْمَةُ اللَّهِ» أي: ورحمة الله عليك، والرحمة إذا قُرنت بالمغفرة، أو بالسلام، صار المراد بها: ما يحصل به المطلوب، والمغفرة والسلام: ما يزول به المرهوب، وإن أفردت شملت الأمرين جميعاً، فأنت بعد أن دعوت لرسول الله ﷺ بالسلام، دعوت له بالرحمة؛ ليزول المرهوب، ويحصل له المطلوب.

قوله: «وَبَرَكَاتِهِ»: جمع بَرَكَةٍ: وهي الخير الكثير الثابت، فندعو لرسول الله ﷺ أن يبارك فيه بكثرة أتباعه، وكثرة عمل أتباعه؛ لأن كل عمل صالح يفعله

(١) البخاري، (٨٠٦)، ومسلم، (١٨٢).

(٢) الشرح الممتع على زاد المستنقع، (٣/١٥٠).

أتباع الرسول ﷺ فله مثل أجورهم إلى يوم القيامة، وبهذا يُردُّ على من يُهدون ثواب القُرب إلى رسول الله ﷺ؛ فإن هذا بدعة ضلالة.

قوله: «السلام علينا»: السلام هنا بنفس ما مضى في «السلام عليك»، ونون الجماعة في «علينا» يراد بها الشخص نفسه، وجميع الأمة المحمدية، واستدل به على استحباب البداءة بالنفس في الدعاء، ومنه قول نوح وإبراهيم عليهما السلام في القرآن.

قوله: «وعلى عباد الله الصالحين»: هذا تعميم بعد تخصيص؛ لأن عباد الله الصالحين هم: كل عبد صالح في السماء والأرض، حي أو ميت، من الآدميين والملائكة، والجن، وعباد الله هم الذين تعبّدوا لله: أي تذللوا له بالطاعة امتثالاً للأمر، واجتناباً للنهي، فالعبادة مبنية على أمرين: الحب، والتعظيم.

فبالحب يكون طلب الوصول إلى مرضاة المعبود، وبالتعظيم يكون الهرب من الوقوع في معصيته؛ لأنك تحبه فتطلبه، وتعظمه فتخافه. وأما شرطاً لقبول العبادة فهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف: ١١٠].

وعباد الله الصالحون هم الذين صلّحت سرائرهم وظواهرهم.

فصلاح السرائر: بإخلاص العبادة لله، والظواهر: بمتابعة رسول الله ﷺ.

هؤلاء هم الصّالحون، وصدُّ ذلك عباد الله الفاسدون، إما بالسرائر، وإما بالظواهر، فالمشركُ فاسدُ السريرة، والمبتدعُ فاسدُ الظاهر؛ لأنَّ بعض المبتدعة يريد الخير، لكنه فاسدُ الظاهر لم يمشِ على الطّريق الذي رَسَمَهُ رسولُ الله عليه

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (١).

قوله: «أشهد أن لا إله إلا الله»: أشهد، أبلغ من قول: أخبر؛ لأن الخبر قد يكون عن سماع، والشهادة لا تكون إلا عن قطع، كأنما يشاهد الإنسان بعينه. وهذه كلمة التوحيد التي أرسل بها جميع الرسل، ومعناها: لا معبود حق إلا الله.

قوله: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»: شهادة بأن المصطفى ﷺ عبد لله، لا شريك، فهو بشر مثلنا تميّز عنا بالوحي، وبما جبله الله عليه من العبادة والأخلاق، وبأنه رسولٌ أرسله الله جلّ وعلا، وجعله واسطة بينه وبين الخلق في تبليغ شرعه فقط (٢).

١١ - فهم وتدبر معاني الصلاة على النبي ﷺ:

روى الشيخان عن كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، فَقَالَ: سَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» (٣).

قوله: «اللهم» معناها: يا الله، لكن حُذفت «يا» النداء، وُعَوِّض عنها بالميم،

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/١٥٥).

(٢) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/١٥٧)، حاشية الروض المربع، (٢/٦٦-٦٩).

(٣) البخاري، (٣٣٧٠)، ومسلم، (٤٠٦).

وَجُعَلَتْ فِي الْآخِرِ تَيْمِنًا بِالْبَدَاءِ بِاسْمِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَكَانَتْ مِيمًا، وَلَمْ تَكُنْ جِيمًا، وَلَا حَاءً مِثْلًا؛ لِأَنَّ الْمِيمَ أَدْلُ عَلَى الْجَمْعِ؛ وَلِهَذَا تَجْتَمِعُ الشَّفَتَانِ فِيهَا، فَكَانَ الدَّاعِي جَمَعَ قَلْبَهُ عَلَى رَبِّهِ وَدَعَا.

و «اللهم» «الله» منادى مبني على الضم في محل نصب، ومعنى الله: أي: ذو الألوهية الذي يألؤه كل من تعبد له - سبحانه وتعالى -.

«صل على محمد» وأحسن ما قيل في معناها ما ذكره أبو العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه في الملاء الأعلى، أي: عند ملائكتك المقربين، وقيل: معناه عظمته في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دعوته وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وتضعيف أجره ومثوبته، وما ورد بصيغة الأمر موجهاً من المخلوق إلى الخالق، فهو دعاء؛ لأن المخلوق لا يأمر الخالق سبحانه.

قوله: «وعلى آل محمد» أي: وصل على آل محمد، وهم أتباعه على دينه، لكن لو قيل: وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه، صار المراد بآله: قرابته المؤمنون، وبأصحابه: من رآه مؤمناً به ومات على ذلك، وبأتباعه: أتباعه على دينه إلى يوم القيامة.

قوله: «كما صليت على إبراهيم»: الكاف هنا للتعليل، وهنا توسل بفعل الله السابق لتحقيق الفعل اللاحق؛ يعني: كما أنك سبحانه سبق الفضل منك إلى إبراهيم عليه السلام وأتباعه، فألحق الفضل منك على محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه، فأتباع إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في أتباع محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتباعه من الصلاة عليه مثل ما لإبراهيم وأتباعه، وفيهم الأنبياء حصل لأتباع محمد من ذلك ما يليق بهم؛ فإنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي

للأنبياء - وفيهم إبراهيم - لمحمد ﷺ، فيحصل له من المزية ما لا يحصل لغيره (١).

قوله: «إنك حميد مجيد»: حميد بمعنى فاعل، وبمعنى مفعول، فهو حامد ومحمود، حامد لعباده وأوليائه الذين قاموا بأمره، ومحمود يُحمد ﷺ على ما له من صفات الكمال في ذاته، وصفاته، وأفعاله بالسنة خلقه.

فهو حامد ومحمود، حامد لعباده وأوليائه الذين قاموا بأمره، ومحمود يُحمد ﷺ على ما له من صفات الكمال في ذاته، وصفاته، وأفعاله بالسنة خلقه.

وأما «مجيد» فهي: فعيل بمعنى فاعل، أي: ذو المجد، والمجد هو: العظمة وكمال السلطان، وهو كالتعليل لما قبله؛ لأن المطلوب تكريم الله لنبيه، وثناؤه عليه في الملأ الأعلى، والتنويه به، وزيادة تقريبه، وذلك مما يستلزم طلب الحمد والمجد.

قوله: "اللهم بارك على محمد" أي: أنزل البركة على محمد ﷺ، والبركة مأخوذة من البركة، وهو مجتمع الماء، ولا يكون إلا على وجه الكثرة، والقرار، والثبوت، وعليه: فالبركة هي كثرة الخيرات، ودوامها، واستمرارها في العمل، وفي الأثر: أما البركة في العمل: فبأن يوفق الله الإنسان لعمل لا يوفق له من نُزعت منه البركة.

وأما البركة في الأثر: فبأن يكون لعمله آثارٌ جليلة نافعة ينتفع بها الناس، ولا شك أن بركة النبي ﷺ لا نظير لها؛ وذلك لأن الله جعل أمته أكثر الأمم؛ ولأن

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، (٢/١٦٣).

اجتهادهم في الخير أكثر من اجتهاد غيرهم، فبورك له ﷺ فيمن اتبعه، وبورك له في عمل من اتبعه.

قوله: «وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم» توسل بفعل الله السابق إلى فعله اللاحق، كأنك تقول: كما أنك يا رب قد تفضلت على أتباع إبراهيم، وباركت عليهم، فبارك على محمد ﷺ وأتباعه (١).

١٢ - فهم وتدبر معاني الاستعاذة والدعاء قبل السلام من الصلاة:

روى الشيخان عن أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَعْرَمِ » (٢).

قوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ» أي: من العذاب الحاصل منها، وقد ورد في صفات جهنم، وصفات العذاب فيها في الكتاب والسنة ما تقشعر منه الجلود، نسأل الله السلامة منها، والاستعاذة هنا تشمل عذاب جهنم، ومن فعل الأسباب المؤدية إلى عذاب جهنم؛ لأن الإنسان بين أمرين: إما عصمة من الذنوب، فهنا إعادة الله من فعل السبب، وإما عفو عن الذنوب، وهنا إعادة الله من أثر السبب.

قوله: «عذاب القبر»: أي: من عذاب البرزخ الذي بين موت الداعي، وبين

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/ ٢٣٤)، المنهل العذب، (٦/ ٨٥-٨٦).

(٢) رواه البخاري، (٨٣٢)، مسلم، (٥٨٩).

قيام الساعة، فليس المراد بالقبر هنا مدفن الميت؛ لأن الإنسان حقيقة لا يدري هل يموت ويدفن؟ أو يموت وتأكله السباع، أو يحترق ويكون رماداً، فالداعي يستحضر بهذا القول: العذاب الذي يكون للإنسان بعد موته إلى قيام الساعة.

قوله: «ومن فتنه المحيا والممات»: أي: اختبار المرء في دينه في حياته، وفي مماته، وأصل الفتنه: الامتحان والاختبار، وفتنة المحيا ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا وشهواتها، والجهالات، أو الابتلاء مع زوال الصبر ونحو ذلك، وهي فتنة عظيمة وشديدة، وقلّ من يتخلّص منها إلا من شاء الله، وهي تدور على شيئين: شبهات، وشهوات.

أما الشبهات - ومنشؤها الجهل - فتعرض للإنسان يلتبس عليه الحق بالباطل، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وإذا رأى الحق باطلاً تجنبه، وإذا رأى الباطل حقاً فعله، وهذه فتنة عظيمة؛ فما أكثر الذين يرون الربا حقاً فينتهكونه، وما أكثر الذين يرون غش الناس في البيع والشراء شطارة وجودة، وما أكثر الذين يرون النظر إلى النساء تلذذاً وتمتعاً وحرية.

وأما الشهوات - ومنشؤها الهوى - فإن الإنسان يعرف الحق لكن لا يريده فله هوى مخالف لما جاء به النبي ﷺ، فأنت تسأل الله العافية من أمراض القلوب التي هي أمراض الشبهات، وأمراض الشهوات.

وأما فتنة الممات فيراد بها ما يكون عند الموت في آخر الحياة، وما يكون بعد الموت مباشرة من سؤال الملكين للميت في قبره عن ربه، ودينه، ونبئه، والإنسان عند موته ووداع العمل صائر إمّا إلى سعادة، وإمّا إلى شقاوة، ضعيف النفس، ضعيف الإرادة، ضيق الصدر، فيأتيه الشيطان ليغويه؛ لأن هذا وقت

المغنم للشيطان، حتى أنه - كما قال أهل العلم - قد يعرض للإنسان الأديان اليهودية والنصرانية بصورة أبيه وأمه، والعياذ بالله تعالى (١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وعرض الأديان عند الموت على العبد ليس أمراً عاماً لكل أحد، ولا هو أيضاً منفي عن كل أحد، بل من الناس من لا تُعرض عليه الأديان، ومنهم من تُعرض عليه، وذلك كله من فتنة المحيا التي أمرنا الرسول ﷺ أن نستعيد في صلاتنا منها، ووقت الموت يكون الشيطان أحرص ما يكون على إغواء بني آدم» (٢) قوله: «ومن شر فتنة المسيح الدجال»: المسيح الدجال أعظم فتنة في الدنيا على وجه الأرض منذ خلق آدم ﷺ إلى قيام الساعة، كما قال ذلك النبي ﷺ؛ ولهذا ما من نبي من نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم إلا أندر قومه منه، تنويهاً بشأنه، وتحذيراً منه.

وفتنة المسيح الدجال من فتن الدنيا؛ لأن الأموات قد سلموا من فتنته.

وهذه الفتن الأربع هي مجامع الشر كله؛ فإن الشر إما عذاب الآخرة، وإما سببه، والعذاب نوعان: عذاب في البرزخ، وعذاب في الآخرة، وأسبابه: الفتنة، وهي نوعان: كبرى وصغرى، فالكبرى فتنة الدجال وفتنة الممات، والصغرى فتنة الحياة التي يمكن تداركها بالتوبة، بخلاف فتنة الممات وفتنة الدجال؛ فإن المفتون فيهما لا يتداركها (٣).

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/١٨٧)، وحاشية الروض المربع، (٢/٧٤).

(٢) الاختيارات الفقهية، (ص-٨٥).

(٣) الشرح الممتع على زاد المستقنع، (٣/١٩١)، وحاشية الروض المربع، (٢/٧٤).

١٣- فهم وتدبر معاني الأذكار بعد السلام من الصلاة

أ- روى مسلم عن ثوبان، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، إِذَا أَنْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» قَالَ الْوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِأَوْزَاعِي: " كَيْفَ الاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، اسْتَغْفِرُ اللَّهَ (١).

قوله: «استغفر الله» السنة أن يستغفر المصلي بعد سلامه ثلاث مرات - والمغفرة هي ستر الذنب والعتو عنه - تحقيراً لعمله، وتعظيماً لجناب ربه جل وعلا، وكذلك ينبغي أن يكون حال العبد، فيلاحظ عظمة جلال ربه، وحقارة نفسه، وعمله لديه، فيزداد تضرعاً واستغفاراً، كلما يزداد عملاً، وقد مدح الله تعالى أهل الاستغفار بعد القيام بقوله: ﴿كَأَنُومًا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧ / ١٨].

قوله: «اللهم أنت السلام»: أي السالم من كل ما لا يليق بجلال الربوبية وكمال الألوهية .

قوله: (ومنك) لا من غيرك لأنك أنت السلام الذي تعطي السلامة لا غيرك وإليك يعود السلام وكل ما يشاهد من سلامة فإنها لم تظهر إلا منك ولا تضاف إلا إليك.

قوله: (السلام) أي منك يرجى ويستوهم ويستفاد السلامة (٢).

(١) رواه مسلم، (٥٩١).

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (١٤٢ / ٥).

قوله: «تباركت تفاعلت من البركة، وهي الكثرة والنماء، ومعناه تعاظمت؛ إذ كثرت صفات جلالك وكمالك» (١).

والمعنى: تعاليت، وتعاظمت، وكثرت خيراتك واتسعت، وتزايد برك.

قوله: «يا ذا الجلال والإكرام» "معناه ذو العظمة والكبرياء، والله له الإكرام من جميع خلقه" (٢).

والله هو المستحق لأن يهاب لسلطانه ويثني عليه بما يليق بعلو شأنه، وهو الرب الذي يستحق الإجلال والإكرام، وهذا الحق ليس إلا لمستحق واحد. وقيل: ذو الإكرام أي يكرم أنبياءه وأوليائه بلطفه مع جلاله وعظمته (٣). وورد في معنى ذي الجلال والإكرام ثلاثة أقوال:

قيل: أهل أن يجل وأن يكرم ولا يُجحد ولا يكفر به، كما يقال: إنه أهل التقوى: أي المستحق لأن يتقى.

وقيل: أهل أن يجل في نفسه، وأن يكرم أهل ولايته وطاعته، ويرفع درجاتهم بالتوفيق لطاعته في الدنيا، وبتقبلها في الآخرة.

وقيل: أهل أن يجل في نفسه، وأهل أن يكرم (٤).

وذكر ابن تيمية أن القول الأول هو أقربها إلى المراد، فالجلال ليس مصدر

(١) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي، (٢/٤٠٢).

(٢) جامع البيان، للطبري، (٢٧/١٦٥)، العظمة، لأبي الشيخ (١/٣٤٢). (٢/٤٠٢).

(٣) اشتقاق أسماء الله للزجاجي (٢٠١)، التوحيد لابن منده (٢/٢٠٢).

(٤) شأن الدعاء (٩١، ٩٢).

جَلَّ جَلالاً بل هو اسم مصدر أجل إجلالاً، وقد قرن بالإكرام وهو مصدر المتعدي فكذلك الإكرام.

وإذا كان الله مستحقاً للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفاً في نفسه بما يوجب ذلك (١).

وقيل بل المعنى أنه مستحق أن يجل، وهو يكرم عباده الصالحين بأن يحلهم دار كرامته فيكون الإكرام من قبله للعباد لا من العباد له (٢).

ب- روى الشيخان عن المُسَيَّبِ بْنِ رَافِعٍ، عَنْ وَرَّادٍ، مَوْلَى الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: كَتَبَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ، إِذَا فَرَّغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» (٣).

قوله: «له الملك، وله الحمد»: له الملك أي له سبحانه التصرف في السموات والأرض، ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، والحمد هو الوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم، والألف واللام في «الحمد» لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى.

قوله: «لا مانع لما أعطيت» أي: لا مانع لما أردت إعطاءه، مِنَ التَّوْفِيقِ عَلَى الطَّاعَةِ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾

(١) مجموع الفتاوى (١٦ / ٣١٧ - ٣١٩).

(٢) الحججة في بيان المحجة (١ / ١٥٠).

(٣) البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء، برقم (٦٦٣٠)، ومسلم (٥٩٣).

من بعده وهو العزيز الحكيم ﴿٢﴾ [فاطر: ٢]، فلا أحد يقدر على منع ما أعطيت أحداً من عبادك، فإذا أراد الله أن يعطي أحداً شيئاً، واجتمع الجن والإنس على منعه، فإنهم يعجزون عن ذلك.

قوله: «ولا معطي لما منعت» من العِصْمَةِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، أي: ولا أحد يقدر على إعطاء ما منعت.

قوله: «ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» بِالْفَتْحِ وَيُكْسَرُ، أي: صاحب الحظ في العبادة، أو صاحب الجَدِّ وَالْإِجْتِهَادِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَضْلاً عَنِ الْجَاهِ وَالْمَالِ، قوله: «مِنَكَ»، أي: من عذابك أو عندك أو بدل لطفك
قوله: «الجَدُّ»، أي: جدّه أو جدّه، بَلْ لَا يَنْفَعُهُ إِلَّا فَضْلُكَ وَكَرَمُكَ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْكَ إِلَّا رَحْمَتُكَ (١).

والمعنى: لا ينفع صاحب الغنى منك، ولا من عذابك غناه، وإنما ينفعه العمل الصالح بفضلك ورحمتك (٢).

ج- روى مسلم عن أبي الزبير، قال: كَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ، يَقُولُ: فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النُّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» وَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَهْلُلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ» (٣).

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٢/ ٧٦١).

(٢) سبل السلام، (١/ ٢٩٣).

(٣) مسلم، (٥٩٤).

قوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله»: الحول بمعنى التحول، أي لا حركة ولا قوة إلا بمشيئة الله تعالى (١)، والقوة: أخص من القدرة، والباء في قوله «إلا بالله» للاستعانة، والمعنى: لا أستطيع ولا أقوى على التحول إلا بمعونة الله، ولا يستطيع أحد أن يحول الرخاء إلى شدة والشدة إلى رخاء إلا الله عز وجل (٢).

قوله: «ولا نعبد إلا إياه» إذ لا يستحق العبادة سواه (٣).

قوله: «له النعمة»: أي النعمة الظاهرة والباطنة.

قوله: «وله الفضل»: أي التفضل على عباده والإحسان إليهم ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥]: وهو الإنعام والإكرام.

وقوله: «والثناء الحسن» أي الذكر الجميل، وهو تكرار الوصف بالكمال.

والثناء الحسن: يشمل أنواع الحمد، والمدح، والشكر، ولا نُحصي ثناء عليه كما أثنى على نفسه.

«مخلصين له الدين» أي العمل عن ملاحظة المخلوق، لا نشرك فيها غيره شركاً أصغر، ولا أكبر، ولو كره الكافرون الإخلاص في العبادة له جل وعلا.

قوله: «ولو كره الكافرون» أي وإن كره الكافرون، ومفعوله محذوف تقديره: ولو كرهوا كوننا مخلصين لله، وكوننا عابدين له (٤).

(١) النهاية في غريب الأثر - ابن الأثير، (١/١٠٨٨).

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام، (٦/٤٧٦).

(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٣/٣١٩).

(٤) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، (٨/٣١٣)، والعلم الهيب، (ص-٣١٨-٣١٩).

د- ثم شرع للمصلي أن يذكر الله تعالى بأحد الأنواع الآتية:

الأول- روى مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ: تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ» (١).

الثاني- روى مسلم عن كعب بن عجرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «مُعْتَبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أَوْ فَاعِلُهُنَّ - ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً، فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ» (٢).

الثالث- روى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ الْفُقَرَاءُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الْأَمْوَالِ بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَا، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ يَحْجُونَ بِهَا، وَيَعْمَرُونَ، وَيَجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، قَالَ: «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ إِنْ أَخَذْتُمْ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يَدْرِكْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَكُمْ، وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَهُ تُسَبِّحُونَ وَتَحْمَدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»، فَاخْتَلَفْنَا بَيْنَنَا، فَقَالَ بَعْضُنَا: نُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: تَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلُّهُنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» (٣).

(١) مسلم، (٥٩٧).

(٢) مسلم، (٥٩٦).

(٣) البخاري (٨٤٣)، ومسلم، (٥٩٥).

الرابع- روى الترمذي والنسائي عن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أُمِرْنَا أَنْ نُسَبِّحَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنَحْمَدَهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَنُكَبِّرَهُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، قَالَ: فَرَأَى رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ: أَمَرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُسَبِّحُوا فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدُوا اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرُوا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاجْعَلُوا خَمْسًا وَعِشْرِينَ، وَاجْعَلُوا التَّهْلِيلَ مَعَهُنَّ، فَغَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثَهُ، فَقَالَ: افْعَلُوا ^(١).

قَالَ أَبُو عَيْسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الخامس- روى مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ صَحْبُوكَ كَمَا صَحَبْنَاكَ وَيَجِدُونَ أَمْوَالًا يُنْفِقُونَهَا وَلَا نَجِدُهَا فَقَالَ «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ أَدْرَكْتُمْ بِهِ مِنْ قَبْلِكُمْ إِلَّا مَنْ قَالَ مِثْلَ مَا قُلْتُمْ تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَإِحْدَى عَشْرَةَ وَإِحْدَى عَشْرَةَ فَذَلِكَ كُلُّهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ» ^(٢).

السادس- روى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرَجَاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. قَالَ: «كَيْفَ ذَاكَ؟» قَالُوا: صَلَّوْا كَمَا صَلَّيْنَا، وَجَاهَدُوا كَمَا جَاهَدْنَا، وَأَنْفَقُوا مِنْ فُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، وَكَيْسَتْ لَنَا أَمْوَالٌ. قَالَ: «أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَمْرٍ تُدْرِكُونَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَتُسَبِّقُونَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَأْتِي أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلَّا مَنْ جَاءَ بِمِثْلِهِ؟ تُسَبِّحُونَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا،

(١) الترمذي، (٣٤١٣) والنسائي، (٧٦/٣)، وصححه الحاكم (١/٣٨٣)، ووافقه الذهبي.

(٢) مسلم، (٥٩٥).

وَتَحْمَدُونَ عَشْرًا، وَتُكَبَّرُونَ عَشْرًا» (١).

قال الحافظ ابن حجر: والأولى البداءة بالتسبيح؛ لأنه يتضمن نفي النقائص عن الله - سبحانه وتعالى -، ثم التحميد؛ لأنه يتضمن إثبات الكمال له، إذ لا يلزم من نفي النقائص إثبات الكمال، ثم التكبير، إذ لا يلزم من نفي النقائص وإثبات الكمال أن لا يكون هناك كبير آخر، ثم يختم بالتهليل الدال على انفراده - سبحانه وتعالى - بجميع ذلك (٢).

هـ- روى النسائي في الكبرى عن أبي أمامة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ» (٣).

قال التفتازاني: يعني لم يبق من شرائط دخول الجنة إلا الموت وكأن الموت يمنعه ويقول لا بد من حضوري أولاً لتدخل الجنة (٤).

فأخبر أنه ﴿اللَّهُ﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فألوهية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿الْحَيُّ﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

(١) البخاري، (٦٣٢٩).

(٢) فتح الباري، (٣٢٨/٢).

(٣) النسائي السنن الكبرى، (٩٨٤٨) وانظر حديث رقم: ٦٤٦٤ في صحيح الجامع.

(٤) فيض القدير، (١٩٧/٦).

كما أن ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها. ومن كمال حياته وقيوميته، أنه ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ ﴾ أي: نعاس ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتره الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض فكلهم عبيد لله ممالك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿ يَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴾ أحد ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له ممالك، لا يقدمون على شفاعته حتى يأذن لهم. ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضى إلا توحيد، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعه نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلية، التي لا نهاية لها ﴿ وَمَا خَلَفَهُمْ ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدا

مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك ف ﴿وَلَا يَوَدُّهُ﴾ أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.

﴿الْعَظِيمِ﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبرا متفهما، أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظا بذلك من شرور الشيطان^(١).

و- قراءة سورة الإخلاص: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٩٥٣-٩٥٤).

اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿١﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

﴿ قُلْ ﴾ قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثل.

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كَمَلَ في علمه، الحليم الذي قد كَمَلَ في حلمه، الرحيم الذي كَمَلَ في رحمته الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لكمال غناه ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات (١).

ز-قراءة سورة الفلق: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ قُلْ ﴾ متعوذاً ﴿ أَعُوذُ ﴾ أي: ألاجأ وألوذ، وأعتصم ﴿ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾ أي: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح.

﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٩٣٧).

وحیوانات، فيستعاذ بخالقها، من الشر الذي فيها، ثم خص بعد ما عم، فقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ عَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية.

﴿وَمِنْ شَرِّ أَلْفَقَاتٍ فِي الْعُقَدِ﴾ أي: ومن شر السواحر، اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد، التي يعقدنها على السحر.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد، هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عموماً وخصوصاً.

ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله (١).

ح- قراءة سورة الناس: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ
 ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي
 يُؤَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب، عز وجل؛ الربوبية، والملك، والإلهية: فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، (٩٣٧).

وَهُوَ الشَّيْطَانُ المُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزِينُ لَهُ
الْفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوهُ جُهْدًا فِي الخَبَالِ.

وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
قَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ». قَالُوا: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، إِلَّا أَنْ اللهُ أَعَانَنِي عَلَيْهِ،
فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» (١) وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ أَنَسٍ فِي قِصَّةِ زِيَارَةِ
صَفِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، وَخُرُوجِهِ مَعَهَا لَيْلًا لِيُرِدَّهَا إِلَى مَنْزِلِهَا، فَلَقِيَهُ
رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللهِ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «عَلَى
رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْبٍ». فَقَالَا سُبْحَانَ اللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: «إِنَّ
الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْدِفَ فِي قُلُوبِكُمَا
شَيْئًا، أَوْ قَالَ: شَرًّا» (٢).

وَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَاصِمِ،
سَمِعْتُ أَبَا تَمِيمَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَدِيفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: عَثَرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ حِمَارَهُ،
فَقُلْتُ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُلْ: تَعَسَّ الشَّيْطَانُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ:
تَعَسَّ الشَّيْطَانُ، تَعَازَمَ، وَقَالَ: بِقُوَّتِي صَرَغْتُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: بِسْمِ اللهِ، تَصَاغَرَ حَتَّى
يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ» (٣).

وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ القَلْبَ مَتَى ذَكَرَ اللهُ تَصَاغَرَ الشَّيْطَانُ وَغَلِبَ، وَإِنْ لَمْ يُذَكَّرْ

(١) صحيح مسلم، (٢٨١٤).

(٢) البخاري، (٢٠٣٥)، مسلم، (٢١٧٥).

(٣) أخرجه ابو داود (٤٩٨٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٢)، وأحمد، (٢٠٥٩١)، وصححه
الحاكم، (٣٢٤/٤)، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي، (١٠/١٣٢): رَوَاهُ أَحْمَدُ بِأَسَانِيدَ،
وَرَجَالُهَا كُلُّهَا رِجَالُ الصَّحِيحِ.

اللَّهُ تَعَاظَمَ وَغَلَبَ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْوَسْوَسِ الْخَنَاسِ﴾ قَالَ: الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَعَفَلَ وَسَوَسَ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ خَسَنَ.. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ هَلْ يَخْتَصُّ هَذَا بِنَبِيِّ آدَمَ - كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ - أَوْ يَعُمُّ بَنِي آدَمَ وَالْجِنَّ؟ فِيهِ قَوْلَانِ، وَيَكُونُونَ قَدْ دَخَلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ تَغْلِيْبًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هَلْ هُوَ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ثُمَّ بَيَّنَّهُمْ فَقَالَ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وَهَذَا يُقَوِّي الْقَوْلَ الثَّانِي. وَقِيلَ قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تَفْسِيرٌ لِلَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]،

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا وَكَيْعٌ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ ذَرِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْهَمْدَانِي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَحَدْتُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ لِأَنَّ آخِرَ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ" (١).

■ السبب التاسع من أسباب الخشوع: إحسان الطهور، وإكماله.

قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: نقطة مهمة، عندما نتوضأ للصلاة - وأكثر الناس

(١) تفسير القرآن العظيم، (٨/ ٥٣٩-٥٤١).

لا يشعرون إلا أنهم يؤدون شرطاً من شروط الصلاة - ينبغي أن نشعر أولاً بأننا نمثل أمر الله عز وجل حيث قال ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ... الآية، هذه واحدة.

ثانياً: أن نشعر باتباع النبي ﷺ لأننا توضحاً نحو وضوئه.

ثالثاً: أن نحسب الأجر لأن هذا الوضوء يُكفر الله سبحانه وتعالى به كل خطيئة حصلت من هذه الأعضاء. فالوجه إذا غسلته آخر قطرة يُكفر بها عن الإنسان، وكذلك بقية الأعضاء. هذه ثلاثة أمور غالباً لا نشعر بها وإنما نتوضأ كأنما نؤدي شرطاً من شروط الصلاة (١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ فِي موضعٍ آخَرَ: نحن نعلم أن من شروط الوضوء النية، لكن النية قد يراد بها نية العمل إذاً نتنبه لهذا الأمر العظيم، وهي أن نستحضر ونحن نقوم بالعبادة أن نمثل أمر الله بها لتحقيق الإخلاص، وأن نستحضر أن الرسول ﷺ فعلها ونحن له متبعون فيها لتحقيق المتابعة؛ لأن من شروط صحة العمل: الإخلاص. والمتابعة (٢).

الذين بها تتحقق شهادة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

هذا وقد أمر النبي ﷺ بإحسانه وإتمامه:

فروى الشيخان عن أبي هريرة، قَالَ: أَسْبَغُوا الوُضُوءَ، فَإِنَّ أَبَا القَاسِمِ ﷺ قَالَ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ».

(١) فتاوى نور على الدرب، (٥٣/٢٢٧).

(٢) كتاب العلم للعثيمين، (ص-٧).

(أسبغوا الوضوء) أي عمموا به جميع الأعضاء واثتوا به على التمام بفرائضه وسننه من إطالة غرة وتحجيل وتثليث وتكرار غسل ومسح (١).

قال الخطابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنه لا يجوز ترك شيء من القدم وغيره من أعضاء الوضوء لم يمسه الماء قل ذلك أو أكثر لأنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا يتوعد على ما ليس بواجب (٢).

قال السبكي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (قوله أسبغوا الوضوء) بضم الواو أي أتموه بإتيان فرائضه وسننه، والأمر بالإسباغ يدل على أن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم هددهم بالوعيد لتقصيرهم في تعميم أعضاء الوضوء لا لأجل نجاسة كانت بأعقابهم كما زعمه بعضهم، وهذه الجملة مؤكدة للجملة الأولى لأن الأمر بالغسل فهم من الوعيد لأنه لا يكون إلا في ترك واجب أو فعل محرّم فلما فهم ذلك من الوعيد أكده بقوله أسبغوا الوضوء فوقع تأكيدا عاما يشمل الرجلين وغيرهما من أعضاء الوضوء لأنه لم يقل أسبغوا الرجلين، ولا يقال لم ذكر الإسباغ عاما والوعيد خاصا لأن التقصير حصل في الرجلين فيكون الوعيد في مقابلة ذلك التقصير الخاص.

(فقه الحديث) والحديث يدل على وجوب تعميم أعضاء الوضوء المفروض غسلها، وعلى أن ترك لمعة منها مخل بالطهارة، وعلى أن من فرط في شيء مما وجب عليه استحق التعذيب بالنار فليحذر العاقل من المخالفة لينجو

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، (١/١٤٦).

(٢) معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، (١/٤٦).

من العذاب، وعلى مشروعية تعليم الجاهل وإرشاده إلى ما هو خير له، وعلى أنه يطلب من العالم أن ينكر على من يراه مخالفاً ويغلظ القول عليه ويرفع صوته بالإنكار ولذلك ذكر البخاري هذا الحديث في باب من رفع صوته بالعلم، وقال ابن دقيق العيد والحديث يدل على أن العقب محل للتطهير فيبطل قول من يكتفى بالتطهير فيما دون ذلك (١).

وروى الشيخان رحمهما الله عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، أن رجلاً، قال لعبد الله بن زيد، وهو جد عمرو بن يحيى أتستطيع أن تُريني، كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بماء، فأفرغ على يديه فغسل مرتين، ثم مضمض واستنثر ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه (٢).

وعن شبيب بن أبي روح عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح فقرأ الروم فالتبس عليه فلما صلى قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الطَّهْرَ فَإِنَّمَا يَلْبَسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ أَوْلَئِكَ» (٣).

(١) المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود، (١/٣١٦-٣١٧).

(٢) البخاري، (١٨٥)، ومسلم، (٢٣٥).

(٣) رواه النسائي، (١٥٦/٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٢٢٢). وأورده الهيثمي في "مجمع الزوائد" ١/٢٤١، وقال: رواه أحمد (١٥٨٧٤)، ورجاله رجال الصحيح.

وفي رواية « فقرأ بالروم، فتردد في آية، فلما انصرف قال: " إِنَّهُ لُبَسَ عَلَيْنَا الْقُرْآنُ. إِنَّ أَقْوَامًا مِنْكُمْ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، فَمَنْ شَهِدَ الصَّلَاةَ مَعَنَا فَلْيُحْسِنِ الْوُضُوءَ ».

قوله: «يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الطُّهُورَ» بِالضَّمِّ وَيُتَمَّحُ أَيُّ: لَا يَأْتُونَ بِوَأَجِبَاتِهِ وَسُنَّهِ،

قال ابن كثير: هَذَا إِسْنَادٌ حَسَنٌ وَمَتْنٌ حَسَنٌ وَفِيهِ سِرٌّ عَجِيبٌ، وَنَبَأٌ غَرِيبٌ، وَهُوَ أَنَّهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ تَأَثَّرَ بِنُقْصَانِ وَضُوءٍ مِنْ ائْتَمَّ بِهِ، فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّ صَلَاةَ الْمَأْمُومِ مُتَعَلِّقَةٌ بِصَلَاةِ الْإِمَامِ (١).

وقال في موضع آخر: فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ إِكْمَالَ الطَّهَّارَةَ يُسَهِّلُ الْقِيَامَ فِي الْعِبَادَةِ، وَيُعِينُ عَلَى إِتْمَامِهَا وَإِكْمَالِهَا وَالْقِيَامَ بِمَشْرُوعَاتِهَا.

وقال السندي: وَفِيهِ تَأْثِيرُ الصُّحْبَةِ وَأَنَّ الْأَكْمَلِينَ فِي أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ يَظْهَرُ فِيهِمْ أَدْنَى أَثَرِ وَاللَّهِ تَعَالَى أَعْلَمُ (٢).

قَالَ الطَّبِيبِيُّ: وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ السُّنَنَ وَالْأَدَابَ مُكْمَلَاتٌ لِلْوَأَجِبِ يُرْجَى بَرَكَتُهَا، وَفِي فَقْدَانِهَا سَدُّ بَابِ الْفُتُوحَاتِ الْغَيْبِيَّةِ، وَإِنَّ بَرَكَتَهَا تَسْرِي إِلَى الْغَيْرِ كَمَا أَنَّ التَّقْصِيرَ فِيهَا يَتَعَدَّى إِلَى حِرْمَانِ الْغَيْرِ. تَأَمَّلْ أَيُّهَا النَّاطِرُ إِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَأَثَّرُ مِنْ مِثْلِ تِلْكَ الْهَيْئَةِ، فَكَيْفَ بِالْغَيْرِ مِنْ صُحْبَةِ أَهْلِ الْبِدْعَةِ؟ أَعَاذَنَا اللَّهُ وَرَزَقَنَا

(١) تفسير القرآن العظيم، (٦/٣٢٩).

(٢) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي، (٢/١٨٤).

صُحْبَةَ الصَّالِحِينَ (١).

ومما تقدم يتضح: أن النقص في الطهارة يؤثر على المُصَلِّي، ويتعدَّى تأثيره إلى الإمام إذا كان ذلك المُقَصِّر في الوضوء يصلي في جماعة، والله المستعان (٢).

▣ السبب العاشر - المحافظة على السنن الرواتب قبل الفريضة وبعدها.

أعظم فوائد صلاة الراتبة:

ما رواه أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ»، قَالَ: " يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَزَّ لِمَلَائِكَتِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ: «انظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئًا، قَالَ: انظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ، قَالَ: أَتَمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ تَوَخَّذُوا الْأَعْمَالَ عَلَى ذَاكُمْ » (٣).

قال العراقي في شرح الترمذي: هذا الذي ورد من إكمال ما ينتقص العبد من الفريضة بما له من التطوع يحتمل أن يراد به ما انتقص من السنن والهيئات المشروعة المرغب فيها من الخشوع والأذكار والأدعية وأنه يحصل له ثواب ذلك في الفريضة وإن لم يفعله في الفريضة وإنما فعله في التطوع ويحتمل أن يراد ما ترك من الفرائض رأساً فلم يصله فيعوض عنه من التطوع والله تعالى يقبل من التطوعات الصحيحة عوضاً عن الصلاة المفروضة والله سبحانه أن يفعل ما شاء

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، (٣/٧٥٢).

(٢) الخشوع في الصلاة، لمحمد لطفي الصباغ، (ص-٥٧).

(٣) أبو داود، (١٦٤)، وأحمد، (٩٤٩٤)، وصححه الحاكم، وساق له شاهد على شرط مسلم

ووافقه الذهبي. وانظر صحيح أبي داود، (٨١٠).

فله الفضل والمن بل له أن يسامح وإن لم يصل شيئاً لا فريضة ولا نفلاً (١).

وهي من السنن المؤكدة لما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ لَا يَدْعُ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الغَدَاةِ» (٢).

ورغب فيها صلى الله عليه وسلم: فيما رواه مسلم عن عمرو بن أوس، قال: حَدَّثَنِي عَنبَسَةُ بِنُ أَبِي سُفْيَانَ، فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِحَدِيثٍ يَتَسَارُّ إِلَيْهِ، قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ حَبِيبَةَ، تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بَنِي لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ» قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: فَمَا تَرَكَتَهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ عَنبَسَةُ: «فَمَا تَرَكَتَهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ أُمِّ حَبِيبَةَ»، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ أَوْسٍ: «مَا تَرَكَتَهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَنبَسَةَ» وَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ سَالِمٍ: «مَا تَرَكَتَهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ عَمْرُو بْنِ أَوْسٍ» (٣).

وفي رواية: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا، غَيْرَ فَرِيضَةٍ، إِلَّا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، أَوْ إِلَّا بَنِي لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»

وجاءت مفسرة عند الترمذي: «أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ، وَرَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ صَلَاةِ الْغَدَاةِ» (٤).

قال العلامة العثيمين رحمته الله: إن محافظة الإنسان على اثنتي عشرة ركعة كل يوم وليلة أفضل من الاقتصار على عشر ركعات لحديث أم حبيبة (٥).

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، (٣/٨٣).

(٢) البخاري، (١١٨٢)، ومسلم، (٧٣٠).

(٣) مسلم، (٧٢٨).

(٤) الترمذي، (٤١٥) وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٥) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، (٢/٢٢٩).

**** سنن ليست رواتب**

روى أهل السنن عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: « رَحِمَ اللهُ امرأً صَلَّى قَبْلَ العَصْرِ أَرْبَعًا » (١). وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

قال ابن قدامة: هذا ترغيب فيه لكنه لم يجعلها من السنن الرواتب بدليل أن ابن عمر راويه لم يحافظ عليها وقال الغزالي: يستحب استحباباً مؤكداً رجاء الدخول في دعوة النبي ﷺ فإن دعوته مستجابة لا محالة (٢).

وقال العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: وهذا الحديث وإن كان فيه مقال عند أهل العلم لكنه يرجى أن ينال الإنسان الأجر إذا صلى هذه الأربع (٣).

▣ السبب الحادي عشر - سنن تساعد على الخشوع

أ- متابعة المؤذن من الأمور التي تجلب الخشوع في الصلاة.

ثَبَّتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ سَنَّ التَّأْذِينَ بِتَرْجِيْعٍ وَبِغَيْرِ تَرْجِيْعٍ
وَأَمَّا هَدْيُهُ ﷺ فِي الذِّكْرِ عِنْدَ الْأَذَانِ وَبَعْدَهُ فَشَرَعَ لِأُمَّتِهِ مِنْهُ خَمْسَةَ أَنْوَاعٍ.
أَحَدُهَا: أَنْ يَقُولَ السَّامِعُ، كَمَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ، إِلَّا فِي لَفْظٍ "حَيِّ عَلَى الصَّلَاةِ"
"حَيِّ عَلَى الْفَلَاحِ" فَإِنَّهُ صَحَّ عَنْهُ ابْدَأْهُمَا بِ "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ" وَلَمْ
يَجِئْ عَنْهُ الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ "حَيِّ عَلَى الصَّلَاةِ" "حَيِّ عَلَى الْفَلَاحِ" وَلَا

(١) أبو داود، (١٢٧١)، والترمذي، (٤٣٠)، وصححه ابن حبان، (٢٤٥٣)، وكذا شيخه ابن خزيمة، (١١٩٣).

(٢) فيض القدير، (٢٤ / ٤).

(٣) شرح رياض الصالحين، (١٣٥ / ٥).

الإقتصار على الحيلة، وهدية ﷺ الذي صح عنه إبداهما بالحوقة وهذا مقتضى الحكمة المطابقة لحال المؤذن والسماع، فإن كلمات الأذان ذكر، فسُنَّ للسماع أن يقولها، وكلمة الحيلة دعاء إلى الصلاة لمن سمعه فسُنَّ للسماع أن يستعين على هذه الدعوة بكلمة الإعانة وهي " لا حول ولا قوة إلا بالله " العلي العظيم.

الثاني: أن يقول «وَأَنَا أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا» وأخبر أن من قال ذلك غفر له ذنبه.

الثالث: أن يصلي على النبي ﷺ بعد فراغه من إجابة المؤذن، وأكمل ما يصلي عليه به ويصل إليه هي الصلاة الإبراهيمية، كما علمه أمته أن يصلوا عليه، فلا صلاة عليه أكمل منها، وإن تحذلق المتحذلقون.

الرابع: أن يقول بعد صلاته عليه: «اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، أَتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ» هكذا جاء بهذا اللفظ " مَقَامًا مَحْمُودًا " بلا ألف ولا لام، وهكذا صح عنه ﷺ.

الخامس: أن يدعو لنفسه بعد ذلك، ويسأل الله من فضله، فإنه يستجاب له كما في " السنن " عنه ﷺ «قُلْ كَمَا يَقُولُونَ يَعْنِي الْمُؤَذِّنِينَ فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَسَلْ تُعْطَهُ» (١).

وروى البيهقي عن عاصم الأحول عن أبي عيسى الأسواري، قال: «كَانَ ابْنُ عَمْرٍ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُسْتَجَابَةُ الْمُسْتَجَابُ لَهَا

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، (٢/ ٣٥٥-٣٥٨).

دَعْوَةُ الحَقِّ وَكَلِمَةُ التَّقْوَى تَوَفَّنِي عَلَيْهَا وَأَخِينِي عَلَيْهَا وَاجْعَلْنِي مِنْ صَالِحِ أَهْلِهَا
عَمَلًا يَوْمَ القِيَامَةِ» (١).

وروى أهل السنن عن أنسٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّعَاءُ لَا يُرَدُّ بَيْنَ
الأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ» (٢).

جاء في فيض القدير: هذا مشروط بما إذا كان للداعي نفس فعالة وهمة
مؤثرة فيكون حينئذ من أقوى الأسباب في دفع النوازل والمكاره وحصول
المآرب والمطالب لكن قد يتخلف أثره عنه إما لضعف في نفسه بأن يكون دعاء
لا يحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله
وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون كالقوس الرخو فإن السهم يخرج منه بضعف
وإما لحصول مانع من الإجابة كأكل حرام وظلم ورين ذنوب واستيلاء غفلة
وسهو ولهو فيبطل قوته أو يضعفها (٣).

وروى أبو داود عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ،
أَوْ قَلَمًا تُرَدَّانِ الدُّعَاءُ عِنْدَ النَّدَاءِ، وَعِنْدَ البَأْسِ حِينَ يُلْحَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» (٤).

ومن أعظم فضائله، ما رواه مسلم عن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُوَذَّنَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

(١) البيهقي، (٦٠٥/١).

(٢). أبو داود (٥٢١)، والترمذي (٢١٢) و (٣٥٩٤) و (٣٥٩٥)، والنسائي في الكبرى، (٩٨١٢)،
وانظر حديث رقم: (٣٤٠٨)، في صحيح الجامع.

(٣) فيض القدير، (٥٤١/٣)

(٤) أبو داود، (٢٥٤٠)، وصححه الحاكم، (١٢٤/٢)، ووافقه الذهبي، قال النووي في الأذكار:

إسناده صحيح.

لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيْتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ» (١).

قوله: «رضيت بالله ربا الخ» أى: اخترته واكتفيت به ولم أطلب غيره ورضيت بجميع قضائه وقدره وبرسالته محمد صلى الله عليه وآله وسلم إليّ وإلى سائر المكلفين ورضيت بدين الإسلام الذى جاء به صلى الله عليه وآله وسلم من أصول وفروع وامثلت أوامره واجتنبت نواهيه (٢).

ب- العمل بسنن المشي إلى الصلاة من أعظم ما يجلب الخشوع.

*روى الشيخان عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «صلاة الجميع تزيد على صلاته في بيته، وصلاته في سوقه، خمسا وعشرين درجة، فإن أحدكم إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ، وَأَتَى الْمَسْجِدَ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ» (٣).

قال الشيخ العثيمين: وهل يشترط لحصول هذا الأجر العظيم أن ينوي الإنسان ذلك عند أول خطوة، أو متى خرج للصلاة، وإن غفل عن نية الخطوات حصل له ذلك؟ أرجو الله أن يكون الثاني؛ لأنه كثيراً ما يغفل الإنسان عن احتساب الخطوات، فإذا كان خرج من بيته للصلاة وإن لم يحتسب الأجر في الخطوات، فإننا نرجو الله عز وجل أن يكتب هذا لنا (٤).

(١) مسلم، (٣٨٦).

(٢) المنهل العذب المورود، (٤/١٩٨).

(٣) البخاري، (٤٧٧)، ومسلم، (٦٤٩).

(٤) الشرح الصوقي لزيد المستقنع، (٣/٢).

*وروى أبو داود عن أبي ثُمَامَةَ الحَنَاطِ، أَنَّ كَعْبَ بْنَ عَجْرَةَ، أَدْرَكَهُ وَهُوَ يُرِيدُ المَسْجِدَ أَدْرَكَ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ، قَالَ: فَوَجَدَنِي وَأَنَا مُشَبَّكٌ بِيَدَيَّ، فَهَانِي عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ خَرَجَ عَامِدًا إِلَى المَسْجِدِ فَلَا يُشَبِّكَنَّ يَدَيْهِ فَإِنَّهُ فِي صَلَاةٍ» (١).

قال الخطابي: تشبيك اليد هو إدخال الأصابع بعضها في بعض والاشتباك بها. وقد يفعله بعض الناس عبثاً وبعضهم ليفرقع أصابعه عندما يجده من التمدد فيها، وربما قعد الإنسان فشبك بين أصابعه واحتبى يديه يريد به الاستراحة وربما استجلب به النوم فيكون ذلك سبباً لانتقاض طهره فليل لمن تطهر وخرج متوجهاً إلى الصلاة لا تشبك بين أصابعك لأن جميع ما ذكرناه من هذه الوجوه على اختلافها لا يلائم شيء منها الصلاة ولا يشاكل حال المصلي (٢).

*وروى الشيخان عن ابن شهاب، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعُونَ، وَأَتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَاتَمُّوا» (٣).

قال القاري: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعُونَ» (حَالٌ أَيْ: لَا تَأْتُوا إِلَى الصَّلَاةِ مُسْرِعِينَ فِي المَشْيِ، وَإِنْ خِفْتُمْ فَوَتِ الصَّلَاةَ، كَذَا قَالَهُ بَعْضُ عُلَمَائِنَا. وَقَالَ الطَّبِيُّ: لَا يُقَالُ هَذَا مُنَافٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْعَوْا﴾ [الجمعة: ٩] لِأَنَّا نَقُولُ:

(١) أبو داود (٥٦٢)، وصححه ابن حبان، (٢٠٣٦)، وانظر «صحيح أبي داود» (٥٧١).

(٢) معالم السنن، (١/١٦٢).

(٣) البخاري، (٩٠٨)، ومسلم، (٦٠٢).

الْمُرَادُ بِالسَّعْيِ فِي الْآيَةِ الْقَصْدُ، يُدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] أَي: اشْتَغَلُوا بِأَمْرِ الْمَعَادِ، وَاتْرُكُوا أَمْرَ الْمَعَاشِ. قَالَ الْحَسَنُ: لَيْسَ السَّعْيُ مُنْحَصِرًا عَلَى الْأَقْدَامِ، لَكِنْ عَلَى النِّيَّاتِ وَالْقُلُوبِ. اهـ.

يَعْنِي: لَيْسَ السَّعْيُ الْكَامِلَ، أَوْ لَيْسَ السَّعْيُ مُنْحَصِرًا عَلَى الْأَقْدَامِ؛ بَلِ الْمَدَارُ عَلَى تَحْصِيلِ الْإِخْلَاصِ فِي وُضُوحِ الْمَرَامِ، وَالنَّهْيِ (إِنَّمَا هُوَ عَنِ الْأِسْرَاعِ الْمُفْضِي إِلَى تَشْتَتِ الْبَالِ وَعَدَمِ اسْتِقَامَةِ الْحَالِ، وَلِذَا قَالَ: (وَائْتَوْهَا تَمَشُونًا) أَي: بِالسَّكِينَةِ وَالطَّمَأِينَةِ الَّتِي مَدَارُ الطَّاعَةِ عَلَيْهِمَا، إِذِ الْمَقْصُودُ مِنَ الْعِبَادَةِ الْحُضُورُ مَعَ الْمَعْبُودِ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَهُوَ أَبْلَغُ فِي النَّهْيِ مِنْ: لَا تَسْعُوا لِتَصُوبِرِهِ حَالَةَ سُوءِ الْأَدَبِ، وَأَنَّهُ مُنَافٍ لِمَا هُوَ أَوْلَى بِهِ مِنَ الْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، وَمِنْ ثَمَّ عَقِبَهُ بِمَا يُنْبَهُ عَلَى حُسْنِ الْأَدَبِ فَقَالَ: وَائْتَوْهَا حَالَ كَوْنِكُمْ تَمَشُونًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿رَعْبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] (١).

*وعند مسلم عن عبد الله بن عباس، أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَيْقَظَ.... فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا» (٢).

وقال الطيبي: معنى طلب النور للأعضاء عضواً عضواً أن يتحلى كل عضو بأنوار المعرفة والطاعات، ويتعري عما عداهما، فإن الشياطين تحيط بالجهات

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٢/ ٥٧٨).

(٢) مسلم، (٧٦٣).

الست بالوسواس والشبهات، ولا مخلص من ذلك إلا بالأنوار السادة لتلك الجهات، قال: وكل هذه الأمور راجعة إلى الهداية والبيان وضيء الحق. وإلى ذلك يرشد قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٢٤: ٣٥] - انتهى ملخصاً (١).

وقال القرطبي: هذه الأنوار التي دعا بها رسول الله ﷺ يمكن حملها على ظاهرها، فيكون سأل الله تعالى أن يجعل له في كل عضو من أعضائه نوراً يستضيء به يوم القيامة في تلك الظلم هو ومن تبعه أو من شاء الله منهم، قال: والأولى أن يقال هي مستعارة للعلم والهداية، كما قال تعالى: ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [٣٩: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [٦: ١٢٢] ثم قال: والتحقيق في معناه أن النور مظهر ما نسب إليه وهو يختلف بحسبه، فنور السمع مظهر للمسموعات، ونور البصر كاشف للمبصرات، ونور القلب كاشف عن المعلومات، ونور الجوارح ما يبدو عليها من أعمال الطاعات (٢).

ج - عدم الالتفات لغير حاجة.

أجمع العلماء على استحباب الخشوع والخضوع في الصلاة، وغض البصر عما يُلهي، وكراهة الالتفات في الصلاة، وتقريب النظر وقصره على ما بين يديه (٣).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، (٤/ ١١٨٣).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي، (٢/ ٣٩٥).

(٣) المجموع شرح المذهب، للنووي، (٣/ ٣١٤).

والالتفات في الصلاة أنواع:

- ١- منها: الالتفات بالصدر فيحول صدره عن جهة القبلة، فهذا الالتفات يبطل الصلاة، لأن استقبال القبلة شرط من شروط صحة الصلاة.
 - ٢- الالتفات بالرأس أو بالعين فقط، مع بقاء البدن مستقبلاً القبلة، فهذا الالتفات مكروه، إلا إذا فعله المسلم لحاجته.
- فإذا فعله من غير حاجة فقد نقص ثواب صلاته، غير أنها صحيحة لا تبطل بذلك.

جاء في "الموسوعة الفقهية":

"لَا خِلَافَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي كَرَاهَةِ الْإِلْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ ؛ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْإِلْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ ؟ فَقَالَ: «هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ» (١).

وَالْكَرَاهَةُ مُقَيَّدَةٌ بِعَدَمِ الْحَاجَةِ أَوْ الْعُذْرِ، أَمَّا إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ حَاجَةٌ: كَخَوْفٍ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ مَالِهِ لَمْ يُكْرَهُ " انتهى (٢).

وجاء في "فتاوى اللجنة الدائمة:

"والالتفات مكروه في الصلاة وينقص ثوابها، لكن لا تجب الإعادة على من التفت في صلاته ؛ لأنه قد ثبت في أحاديث أخرى ما يدل على جواز الالتفات إذا دعت إليه الحاجة، فعلم بذلك أنه لا يبطل الصلاة " انتهى.

(١) البخاري (٧٥١).

(٢) الموسوعة الفقهية، (١٠٩/٢٧).

وقد جاءت أحاديث كثيرة تدل على جواز الالتفات في الصلاة إذا كان ذلك لحاجة، منها: ما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: (اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلينا وراءه وهو قاعدٌ وأبو بكرٍ يُسمعُ الناسَ تكبيره، فالتفت إلينا فرأنا قيامًا فأشار إلينا فقعدنا، فصلينا بصلاته قعودًا) (١).

وروى أبو داود عن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه قال: « ثوبٌ بالصلاة - يعني صلاة الصبح - فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصلي وهو يلتفت إلى الشعب » قال أبو داود: وكان أرسل فارسًا إلى الشعب من الليل يحرس إلى الشعب من الليل يحرس. (٢).

وقال الشيخ ابن باز رحمته الله: " الالتفات في الصلاة للتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الوسوسة لا حرج فيه، بل هو مستحب عند شدة الحاجة إليه بالرأس فقط " انتهى (٣).

٣- وهناك نوع ثالث من الالتفات، وهو الالتفات في الصلاة بالقلب، بالأفكار التي ينشغل بها ولا يتدبر صلاته.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله: " اعلم أن الالتفات نوعان:

- ١ - التفات حسي بالبدن، وهو التفات الرأس.
- 2- التفات معنوي بالقلب، وهو الوسواس والهواجيس التي ترد على

(١) مسلم، (٤٣١).

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة، (٢٧ / ٧). والحديث أخرجه أبو داود، (٩١٦)، و صححه الألباني في "صحيح أبي داود"

(٣) فتاوى ابن باز، رحمته الله، (١١ / ١٣٠).

القلب، فهذا هو العلة التي لا يخلو أحدٌ منها، وما أصعب معالجتها! وما أقل السالم منها! وهو منقص للصلاة، ويا ليته التفات جزئي! ولكنه التفات من أول الصلاة إلى آخرها، وينطبق عليه أنه اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد " انتهى (١).

قال ابن القيم: قَلَّ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبٌ، وَإِنْ قَلَّ وَلِلنَّفْسِ فِيهِ حَظٌّ.

«سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ التَّفَاتِ الرَّجُلِ فِي صَلَاتِهِ؟ فَقَالَ: هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ».

فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّفَاتَ طَرْفَهُ أَوْ لَحْظَهُ؛ فَكَيْفَ التَّفَاتُ قَلْبِهِ إِلَى مَا سِوَى اللَّهِ؟ هَذَا أَعْظَمُ نَصِيبِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ (٢).

د- عدم رفع البصر إلى السماء.

قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري عند حديث: ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، فاشتد قوله في ذلك، حتى قال: «كَيْتَبَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخَطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ» (٣).

قال: العلماء مجمعون على القول بهذا الحديث، وعلى كراهية النظر إلى السماء في الصلاة، وقال ابن سيرين: كان رسول الله مما ينظر إلى السماء في

(١) الشرح الممتع، (٣/٢٢٦).

(٢) مدارج السالكين، (٢/٩٤).

(٣) البخاري، (٧٥٠).

الصلاة، فيرفع بصره حتى نزلت آية.. ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ﴿٢﴾
[المؤمنون: ١] قال: فوضع النبي رأسه. (١) اهـ.

وقال ابن رجب في فتح الباري: والمعنى في كراهة ذلك: خشوع المصلي،
وخفض بصره، ونظره إلى محل سجوده؛ فإنه واقف بين يدي الله - عز وجل -
يناجيه، فينبغي أن يكون خاشعاً منكساً رأسه، مطرقاً إلى الأرض. اهـ.
وقال القاضي عياض في إكمال المعلم: قد حكى بعض العلماء الإجماع على
النهي عن ذلك في الصلاة. (٢) اهـ.

والحكمة من النهي: منافاة هذا الفعل للخشوع والإقبال على الله تعالى،
وفيه إعراض عن القبلة؛ لأن القبلة ما يقابل المصلي؛ ولأن في ذلك خروج عن
هيئة الصلاة.

فإن قيل: وقع هذا النهي من كثير من الناس، لا سيما حين يرفعون من
الركوع يرفعون أبصارهم إلى السماء، ولم يُعرف أن أحداً رفع بصره إلى
السماء، ثم خُطفَ بصره، فما الجواب؟

فالجواب:

أولاً: أن تخلف الوعيد - كرمًا ولطفًا من الله تعالى - لا يعني أنه لن يقع
الأمر.

ثانياً: أنه قد لا يُخطف حساً؛ لكنه يُخطف معنًى، فلا يستفيد من بصره فيما

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال، (٢/٣٦٤).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، (٢/٣٤١)، شرح صحيح البخارى لابن رجب، (٦/٤٤٣).

يعود عليه بصلاح أمره في الدنيا والآخرة؛ (١)

والحديث دليلٌ على حُسن تعليم النبي ﷺ أصحابه بما لا يخرج مشاعرهم ويكسر خواطرهم، وذلك بالتعريض بمن وقع في النهي مبهمًا دون التصريح بالاسم.

هـ- عدم افتراش الذراعين في السجود.

ورد الأمر من الشارع بمخالفة الحيوانات الخسيسة والشريفة في هيئات الصلاة.

فنهى عن التفاتٍ كالتفات الثعلب، وافتراش كافتراش السبع، وإقعاء كإقعاء الكلب، ونقر كنقر الغراب وإشارة بالأيدي كأذنان الخيل الشمس وبروك كبروك الجمل. وغير ذلك مما نهى عنه الشارع من مشابهة الحيوانات، لأن الصلاة مناجاة لله، فينبغي أن تكون على أحسن هيئة وأفضل صفة (٢).

روى الشيخان عن النبي ﷺ قَالَ: «اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ، وَلَا يَبْسُطْ أَحَدُكُمْ ذِرَاعِيَهُ انْبِسَاطَ الْكَلْبِ» (٣).

وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ: هُوَ ذِكْرُ الْحُكْمِ مَقْرُونًا بِعِلَّتِهِ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيهَ بِالْأَشْيَاءِ الْخَسِيسَةِ يُنَاسِبُ تَرْكُهُ فِي الصَّلَاةِ، ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ، قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: فَيُكْرَهُ ذَلِكَ لِقُبْحِ الْهَيْئَةِ الْمُنَافِيَةِ لِلْخُشُوعِ. (٤)

(١) انظر: توضيح الأحكام للباسام، (١٠٢/٢).

(٢) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، (١٦٦).

(٣) البخاري (٨٢٢)، ومسلم، (٤٩٣).

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (٧١٩/٢).

و- عدم التَّخَصُّرِ.

*روى الشيخان عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ مُخْتَصِرًا» (١).

*وروى أبو داود عن زِيَادِ بْنِ صَبِيحِ الحَنْفِيِّ، قَالَ: صَلَّيْتُ إِلَى جَنْبِ ابْنِ عُمَرَ، فَوَضَعْتُ يَدَيَّ عَلَى خَاصِرَتَيَّ، فَلَمَّا صَلَّيْتُ، قَالَ: «هَذَا الصَّلْبُ فِي الصَّلَاةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى عَنْهُ» (٢).

قال في النهاية: أي شبه الصَّلْبِ لأن المطلوب يمدُّ باعه على الجذع. وهيئة الصَّلْبِ في الصلاة أن يضع يديه على خَاصِرَتَيْهِ وَيُجَافِي بَيْنَ عَضْدَيْهِ فِي الْقِيَامِ (٣).

وقد اختلفوا في حكمه، فحمل الجمهور النهي في هذا الحديث على الكراهة، وهو مذهب ابن عمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والنخعي ومجاهد وأبي حنيفة ومالك والشافعي والأوزاعي (٤).

قال الصنعاني: وَالْحِكْمَةُ فِي النَّهْيِ عَنْهُ بَيْنَهَا قَوْلُهُ: وَفِي "البُخَارِيِّ" عَنْ "عَائِشَةَ" «أَنَّ ذَلِكَ أَيْ الإِخْتِصَارَ فِي الصَّلَاةِ فِعْلٌ الْيَهُودِ فِي صَلَاتِهِمْ» (٥) وَقَدْ نُهِنَا عَنْ التَّشْبِيهِ بِهِمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ. فَهَذَا وَجْهُ حِكْمَةِ النَّهْيِ، لَا مَا قِيلَ: إِنَّهُ فِعْلُ الشَّيْطَانِ، أَوْ أَنَّ إبْلِسَ أَهْبَطَ مِنَ الْجَنَّةِ كَذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ فِعْلُ الْمُتَكَبِّرِينَ؛ لِأَنَّ

(١) البخاري، (١٢٢٠)، ومسلم، (٥٤٥ / ٢).

(٢) أبو داود، (٩٠٣) قال الألباني في الإرواء، (٩٤ / ٢): إسناده جيد وصححه الحافظ العراقي في "تخريج الإحياء" (١٣٩ / ١).

(٣) النهاية في غريب الأثر - ابن الأثير، (٨٢ / ٣).

(٤) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، (٣٥٢ / ٢).

(٥) البخاري، (٣٤٥٨) ولفظه «كَانَتْ تَكْرَهُ أَنْ يُجْعَلَ يَدُهُ فِي خَاصِرَتِهِ وَتَقُولُ: إِنَّ الْيَهُودَ تَفْعَلُهُ».

هَذِهِ عَلَلٌ تَحْمِينِيَّةٌ، وَمَا وَرَدَ مَنْصُوصًا: أَيُّ عَنِ الصَّحَابِيِّ هُوَ الْعُمْدَةُ؛ لِأَنَّهُ أَعْرَفُ بِسَبَبِ الْحَدِيثِ، وَيَحْتَمَلُ أَنَّهُ مَرْفُوعٌ، وَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ مُقَدَّمٌ عَلَى غَيْرِهِ لِرُؤُودِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَثْرًا؛ وَفِي ذِكْرِ الْمُصَنِّفِ لِلْحَدِيثِ فِي بَابِ الْخُشُوعِ مَا يُشْعِرُ بِأَنَّ الْعِلَّةَ فِي النَّهْيِ عَنِ الْإِخْتِصَارِ أَنَّهُ يُنَافِي الْخُشُوعَ (١).

قال الترمذي: وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ الْإِخْتِصَارَ فِي الصَّلَاةِ.

وَكَرِهَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَمْشِيَ الرَّجُلُ مُخْتَصِرًا.

وَالْإِخْتِصَارُ: هُوَ أَنْ يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ عَلَى خَاصِرَتِهِ فِي الصَّلَاةِ،

وَيُرْوَى أَنَّ إِبْلِيسَ إِذَا مَشَى مَشَى مُخْتَصِرًا (٢).

ز - عدم النظر إلى ما يلهي ويشغل.

*روى الشيخان عن عائشة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ، فَقَالَ: «شَغَلْتَنِي أَعْلَامُ هَذِهِ، أَذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأَتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ» (٣). وَفِي رِوَايَةٍ «فَأَخَافُ أَنْ تَفْتَنِي»

خميصة هي كساء مربع من صوف.

قال النووي: معنى هذه الألفاظ متقارب وهو اشتغال القلب بها عن كمال

الحضور في الصلاة وتدبر أذكارها وتلاوتها ومقاصدها (٤).

(١) سبل السلام، (١/ ٢٢١).

(٢) سنن الترمذي، (١/ ٤٩٣).

(٣) البخاري، (٧٥٢)، ومسلم، (٥٥٦).

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (٥/ ٤٣).

قال ابن الملقن: من فوائده:

الأولى: جواز لبس الثوب ذي العلم، وجواز الصلاة فيه.

الثانية: اشتغال الفكر اليسير في الصلاة غير قادح فيها، وهو إجماع، وإن حكي عن بعض السلف والزهاد ما لا يصح عمن يعتمد به في الإجماع.

الثالثة: طلب الخشوع في الصلاة والإقبال عليها، ونفي كل ما يشغل القلب ويلهي عنه؛ ولهذا قال أصحابنا: يستحب له أن ينظر إلى موضع سجوده، ولا يتجاوزَه (١).

ح - عدم تشبيك الأصابع، وفرقتها في الصلاة.

* سئل فضيلة الشيخ: عن فرقة الأصابع أثناء الصلاة سهواً هل تبطل الصلاة؟

فأجاب فضيلته بقوله: فرقة الأصابع لا تبطل الصلاة، ولكن فرقة الأصابع من العبث، وإذا كان ذلك في صلاة الجماعة أوجب التشويش على من يسمع فرقتها فيكون ذلك أشد ضرراً مما لو لم يكن حوله أحد (٢).

* وسئل فضيلة الشيخ: عن حكم تشبيك الأصابع بعد الصلاة، وقبلها، وأثناءها؟

فأجاب فضيلته بقوله: تشبيك الأصابع بعد الصلاة لا بأس به، فقد ثبت أن النبي ﷺ شبك بين أصابعه بعد الصلاة.

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، (٥/٣٤٦).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، (١٣/٣٠٥).

ففي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشِيِّ - قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: سَمَّاهَا أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَكِنْ نَسِيتُ أَنَا - قَالَ: فَصَلَّى بِنَا رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، فَقَامَ إِلَى خَشَبَةٍ مَعْرُوضَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَاتَّكَأَ عَلَيْهَا كَأَنَّهُ غَضْبَانٌ، وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ الْحَدِيثَ (١)

وأما إذا كان قبل الصلاة، أو في أثناء الصلاة فمكروه، لحديث رواه أهل السنن عَنْ دَاوُدَ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي سَعْدُ بْنُ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي أَبُو ثُمَامَةَ الْحَنَاطِيُّ، أَنَّ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، أَدْرَكَهُ وَهُوَ يُرِيدُ الْمَسْجِدَ أَدْرَكَ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ، قَالَ: فَوَجَدَنِي وَأَنَا مُشَبَّكُ يَدَيَّ، فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ، ثُمَّ خَرَجَ عَامِدًا إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَا يُشَبِّكَنَّ يَدَيْهِ فَإِنَّهُ فِي صَلَاةٍ» (٢).

*وعند أبي داود أيضا عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أُمَيَّةَ، سَأَلْتُ نَافِعًا، عَنِ الرَّجُلِ يُصَلِّي، وَهُوَ مُشَبَّكُ يَدَيْهِ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» (٣).

ط - عدم الصلاة بحضرة الطعام ولا وهو سيدافعه الأخبثان.

*روى الشيخان عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قُدِّمَ الْعِشَاءُ، فَأَبْدُءُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ تُصَلُّوا صَلَاةَ الْمَغْرِبِ، وَلَا تَعْجَلُوا عَنْ عَشَائِكُمْ» (٤).

(١) مجموع فتاوى العثيمين، (٣٠٥ / ١٣). والحديث في البخاري، (٤٨٢).

(٢) أبو داود (٥٦٢)، والترمذي، (٣٨٦)، وصححه ابن حبان، (٢٠٣٦)، وانظر «صحيح أبي داود» (٥٧١).

(٣) أبو داود (٩٩٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل، (١٠٣ / ٢).

(٤) البخاري، (٦٧٢)، ومسلم، (٥٥٧).

* وفي رواية «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَحَضَرَ العِشَاءُ، فَأَبْدَأُوا بِالْعِشَاءِ» (١).

قَالَ النُّوَوِيُّ: فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي هَذَا الْبَابِ كِرَاهَةَ لِلصَّلَاةِ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ الَّذِي يُرِيدُ أَكْلَهُ، لَمَّا فِيهِ مِنْ اشْتِغَالِ الْقَلْبِ وَذَهَابِ كَمَالِ الْخُشُوعِ، وَهَذِهِ الْكِرَاهَةُ إِذَا صَلَّى كَذَلِكَ، وَفِي الْوَقْتِ سَعَةً فَإِنَّ صَاقَ بِحَيْثُ لَوْ أَكَلَ خَرَجَ الْوَقْتُ لَا يَجُوزُ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ. وَلِأَصْحَابِنَا وَجْهٌ: أَنَّهُ يَأْكُلُ وَإِنْ خَرَجَ الْوَقْتُ، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الصَّلَاةِ الْخُشُوعَ فَلَا يَفُوتُهُ. (٢).

* وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ عَلَى الطَّعَامِ، فَلَا يَعْجَلْ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ مِنْهُ، وَإِنْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ» (٣).
ويشترط لذلك ثلاثة شروط:

أولاً: أن يكون الطعام حاضراً، والثاني: أن تكون نفس المصلي تتوق إليه، فإذا كان شبعان لا يلتفت إليه فليصل ولا كراهية، والثالث: أن يكون قادراً على تناوله حساً وشرعاً: فالحس كأن يكون الطعام حاراً لا يستطيع تناوله، والشرع كأن يكون المسلم صائماً ممنوعاً من الطعام شرعاً، فلا كراهة في الصلاة حينئذ (٤).

* وَعِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا هُوَ يُدْفَعُ الْأَخْبَثَانِ» (٥).

(١) البخاري، (٥٤٦٥).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (٤٦/٥).

(٣) البخاري، (٦٧٤).

(٤) الشرح الممتع لابن عثيمين، رَحِمَهُ اللهُ، (٢٣٧/٣).

(٥) مسلم، (٥٦٠).

الأخبثان: البول والغائط، ويلحق بهما ما كان في معناهما مما يشغل القلب، ويذهب كمال الخشوع، كمدافعة الريح مثلاً.

وقد نص جمهور أهل العلم - بناءً على هذا الحديث - على كراهة ابتداء الصلاة والدخول فيها لمن كان يدافعه الأخبثان، وما في معناهما، فإن صلى وهو مدافع فصلاته صحيحة، وحملوا النفي الوارد في الحديث على نفي الكمال، وليس نفي الصحة، بدليل الإجماع على صحة صلاة من صلى بحضرة الطعام إذا أكمل أركان الصلاة وواجباتها، فكذاك المدافع للأخبثين إذا أكملها. أما من طرأت عليه المدافعة أثناء الصلاة، فلا حرج عليه.

وجاء في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

لا يجوز للمصلي أن يدخل في الصلاة وهو يدافع الغائط أو البول لقول النبي ﷺ: (لا صلاة بحضرة الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان) أخرجه مسلم في صحيحه، والحكمة في ذلك والله أعلم أن ذلك يمنع الخشوع في الصلاة، لكن لو صلى وهو كذلك فإن صلاته صحيحة لكنها ناقصة غير كاملة للحديث المذكور ولا إعادة عليه. وأما إذا دخلت في الصلاة وأنت غير مدافع للأخبثين وإنما حصلت المدافعة أثناء الصلاة فإن الصلاة صحيحة ولا كراهة إذا لم تمنعك هذه المدافعة من إتمام الصلاة^(١).

ي - عدم الصلاة في المسجد لمن أكل البصل والثوم.

*أكل الثوم ونحوه مباح مع الكراهة والأولى الابتعاد عن أكله قبل الصلاة،

(١) اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء (٧/ ٢٨).

ومن أكله قبلها فلا إثم عليه ولو ترتب على ذلك التخلف عن حضور صلاة الجماعة في المسجد، أما صلاة الجمعة فلا يجوز تعمد أكله بعد النداء لها لحرمة التخلف عنها.

*روى البخاري عن ابن شهاب، زعم عطاء، أن جابر بن عبد الله، زعم أن النبي ﷺ قال: " مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا، فَلْيَعْتَزِلْنَا - أَوْ قَالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا - وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ "

وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِقَدْرِ فِيهِ خَضِرَاتٌ مِنْ بُقُولٍ، فَوَجَدَ لَهَا رِيحًا، فَسَأَلَ فَأُخْبِرَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبُقُولِ، فَقَالَ: «قَرَّبُوهَا». إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ كَانَ مَعَهُ، فَلَمَّا رَأَهُ كَرِهَ أَكْلَهَا، قَالَ: «كُلْ فَإِنِّي أَنَا جِي مَنْ لَا تُنَاجِي»

*وفي رواية « مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكَرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ » (١).

قال المازري: وألحق أهل المذهب بذلك أهل الصنائع الممتنة كالحواتين والجزارين، قال القاضي: وكذلك الفجل لمن يتجشأ به، وألحق ابن المرابط بذلك ذا البخر والجرح الممتن (٢).

قال القاضي وقاس العلماء على هذا مجامع الصلاة غير المسجد كمصلى العيد والجنائز ونحوها من مجامع العبادات وكذا مجامع العلم والذكر والولائم ونحوها (٣).

(١) البخاري، (٨٥٥)، ومسلم، (٥٦٤).

(٢) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، (٢٠٠/٨)، والبخر هو: الرَّائِحَةُ الْمُتَغَيِّرَةُ مِنَ الْقَمِّ.

(٣) شرح النووي، (٤٨/٥).

ك- النظر إلى موضع السجود، وإلى السبابة.

* روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم " كَانَ إِذَا صَلَّى رَفَعَ بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَنَزَلَتْ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢] فَطَاطَأَ رَأْسَهُ (١).

* ورواه البيهقي وقال: وَرَوَاهُ حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ مُرْسَلًا، وَهَذَا هُوَ الْمَحْفُوظُ (٢).

قال العراقي: الخشوع إطراق من الرأس إلى الأرض (٣).

* وروى الحاكم عن سالم بن عبد الله، أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: « دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْكَعْبَةَ مَا خَلْفَ بَصْرِهِ مَوْضِعَ سُجُودِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْهَا » (٤).

* وروى أهل السنن عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا جَلَسَ فِي التَّشَهُدِ، وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، وَيَدَهُ الْيُسْرَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُسْرَى، وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ، وَلَمْ يُجَاوِزْ بَصْرَهُ إِشَارَتَهُ » (٥).

* وعند النسائي عن عبد الله بن عمر، أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يُحَرِّكُ الْحَصَى بِيَدِهِ وَهُوَ

(١) الحاكم (٢/٤٢٦).

(٢) البيهقي، (٢/٤٠٢)، قال الألباني: هذا القول هو الصواب إرواء الغليل، (٢/٧٣).

(٣) طرح التثريب في شرح التقريب، (٢/٣٧٣).

(٤) الحاكم (١/٦٥٢)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ.، وصححه ابن خزيمة (٣٠١٢).

(٥) أبو داود (٩٩٠)، والنسائي، (٣/٣٩)، وصححه ابن حبان، (١٩٤٤)، والنووي في شرح مسلم (٥/٨١).

فِي الصَّلَاةِ، فَلَمَّا انصَرَفَ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ: لَا تُحَرِّكِ الحَصَى وَأَنْتَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَلَكِنْ اصْنَعْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ، قَالَ: وَكَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ؟ قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى فَخِذِهِ الْيُمْنَى، وَأَشَارَ بِأَصْبُعِهِ الَّتِي تَلِي الإِبْهَامَ فِي القِبْلَةِ، وَرَمَى بَبَصَرِهِ إِلَيْهَا أَوْ نَحْوَهَا، ثُمَّ قَالَ: «هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ» (١).

وهذا فيه بيان موضع نظر المصلي في حال التشهد، وهي الإصبع التي أشار بها، فيستحب للمصلي أن ينظر في حال التشهد إلى المسبحة، ولا يتجاوزها (٢).
* ما حكم إغماض العينين في الصلاة، خصوصا وأن المرء قد يحس بمزيد من الخشوع إذا فعل ذلك؟

الجواب: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وَلَمْ يَكُنْ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ تَعْمِيسُ عَيْنَيْهِ فِي الصَّلَاةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ فِي التَّشَهُدِ يُومِئُ بِبَصَرِهِ إِلَى أُصْبُعِهِ فِي الدُّعَاءِ، وَلَا يُجَاوِزُ بَصَرَهُ إِشَارَتَهُ.

وَقَدْ اِخْتَلَفَ الفُقَهَاءُ فِي كَرَاهَتِهِ، فَكَرِهَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ، وَقَالُوا: هُوَ فِعْلُ اليَهُودِ، وَأَبَاحَهُ جَمَاعَةٌ وَلَمْ يَكْرَهُوهُ، وَقَالُوا: قَدْ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى تَحْصِيلِ الخُشُوعِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الصَّلَاةِ وَسِرُّهَا وَمَقْصُودُهَا.

وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنْ كَانَ تَفْتِيحُ العَيْنِ لَا يُخِلُّ بِالخُشُوعِ، فَهُوَ أَفْضَلُ، وَإِنْ كَانَ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخُشُوعِ لِمَا فِي قِبْلَتِهِ مِنَ الزَّخْرَفَةِ وَالتَّرْوِيقِ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا

(١) النسائي، (٢/٢٣٦)، وصححه ابن حبان، (١٩٤٧) والألباني في إرواء الغليل، (٢/٨٥).

(٢) البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، (١٣/٦٨).

يُشَوِّشُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ، فَهَذَا لِكَ لَا يُكْرَهُ التَّغْمِيضُ قَطْعًا، وَالْقَوْلُ بِاسْتِحْبَابِهِ فِي هَذَا الْحَالِ أَقْرَبُ إِلَى أَصُولِ الشَّرْعِ وَمَقَاصِدِهِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْكَرَاهَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ (١).
وَالْكَرَاهَةُ عِنْدَ الْحَنْفِيَّةِ تَنْزِيهِيَّةٌ. وَاسْتَشْنَوْا مِنْ ذَلِكَ التَّغْمِيضَ لِكَمَالِ الْخُشُوعِ، بِأَنْ خَافَ فَوْتَ الْخُشُوعِ بِسَبَبِ رُؤْيَا مَا يُفَرِّقُ الْخَاطِرَ فَلَا يُكْرَهُ حِينَئِذٍ، بَلْ قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ الْأَوْلَى. قَالَ ابْنُ عَبِيدِينَ: وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ (٢).

وبهذا يتبين أن السنة عدم الإغماض إلا إذا دعت الحاجة لتلافي أمر يضر بالخشوع (٣).

ل- عدم السدل (٤) في الصلاة، وعدم تغطية الفم.

*روى أبو داود عن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «نَهَى عَنِ السِّدْلِ فِي الصَّلَاةِ وَأَنْ يُغَطِّيَ الرَّجُلُ فَاهُ» (٥).

قوله: (نهى عن السدل في الصلاة) أي إرسال الثوب حتى يصيب الأرض وخص الصلاة مع أنه منهي عنه مطلقاً لأنه من الخيلاء وهي في الصلاة أقبح فالسدل مكروه مطلقاً وفي الصلاة أشد والمراد سدل اليد وهو إرسالها أو أن

(١) زاد المعاد، (١/ ٢٨٥).

(٢) حاشية ابن عابدين، (١/ ٤٣٤).

(٣) ٣٣ سبباً للخشوع في الصلاة، للمنجد، فك الله أسره (١٦).

(٤) السدل: وهو أن يلتحف بثوبه ويدخل يديه من داخل، فيركع ويسجد وهو كذلك، وقيل: هو أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلهما على كتفيه. النهاية لابن الأثير، (٢/ ٣٥٥)، والمصباح المنير، (١/ ٢٧١).

(٥) أبو داود، (٦٤٣)، وصححه ابن حبان (٢٣٥٣)، والحاكم (١/ ٣٨٤)، ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في «المشكاة»، (٧٦٤).

يلتحف بثوبه فيدخل يديه من داخله فيركع ويسجد وهو كذلك كما هو شأن اليهود أو أراد سدل الشعر فإنه ربما ستر الجبهة وغطى الوجه قال العراقي: ويدل عليه قوله (وأن يغطي الرجل فاه) لأنه من فعل الجاهلية كانوا يتلثمون بالعمائم فيغطون أفواههم فنهوا عنه لأنه ربما منع من إتمام القراءة أو إكمال السجود^(١).

وكان الشافعي يكرهه في الصلاة وفي غير الصلاة^(٢).

قَالَ الْقَاضِي: السَّدْلُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ مُطْلَقًا لِأَنَّهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ، وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ أَشْنَعُ وَأَقْبَحُ

وَحِكْمَتُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ اشْتِغَالَ الْقَلْبِ، بِمُحَافَظَتِهِ وَالْإِحْتِيَاجِ بِمُعَالَجَتِهِ، وَلِهَذَا لَوْ كَانَ أَحَدٌ طَرَفِيهِ مَعْرُوزًا أَوْ مَرْبُوطًا بِطَرَفٍ آخَرَ بِحَيْثُ لَا يَخَافُ عَلَيْهِ مِنَ الْوُقُوعِ لَا يَكُونُ مَكْرُوهًا^(٣).

م- الصلاة إلى سترة، والدنو منها.

*من الأمور المفيدة لتحصيل الخشوع في الصلاة الاهتمام بالسترة والصلاة إليها فإن ذلك أقصر لنظر المصلي وأحفظ له من الشيطان وأبعد له عن مرور الناس بين يديه فإنه يشوش ويُتقص أجر المصلي.

*روى أبو داود وابن ماجه عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، عَنْ

(١) فيض القدير، (٦/٣١٥).

(٢) معالم السنن، (١/١٧٩).

(٣) مرقاة المفاتيح، (٢/٦٣٦).

أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُصَلِّ إِلَى سُتْرَةٍ وَلْيَدْنُ مِنْهَا» (١).

وفائدها:

ما رواه أبو داود والنسائي عن سهل بن أبي حثمة، يبلغُ به النبي ﷺ قال: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ إِلَى سُتْرَةٍ فَلْيَدْنُ مِنْهَا لَا يَقْطَعِ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ» (٢).

قال عطاء أدنى ما يكفيك أن يكون بينك وبين السترة ثلاثة أذرع، وبه قال الشافعي وعن أحمد نحو هذا وأخبرني الحسن بن يحيى بن صالح أخبرنا ابن المنذر أن مالك بن أنس كان يُصلي يوماً مُتَنَائِبًا عَنِ السُّتْرَةِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُهُ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُصَلِّي، أَدْنُ مِنْ سُتْرَتِكَ.

فَجَعَلَ مَالِكٌ يَتَقَدَّمُ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [البقرة: ١١٣] (٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: " والحكمة في السترة كف البصر عما وراءه ومنع من يجتاز بقربه.. وتمنع الشيطان المرور والتعرض لإفساد صلاته " (٤).

وقد أوصى النبي ﷺ المصلي بأن لا يسمح لأحد أن يمرَّ بينه وبين سترته. فروى مسلم عن عبد الله بن عمر، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ

(١) أبو داود، (٦٩٨) وابن ماجه، (٩٥٤) وانظر حديث رقم:، (٦٥٠) في صحيح الجامع.

(٢) أبو داود، (٦٩٥)، والنسائي، (٦٢/٢)، وصححه ابن حبان (٢٣٧٢) و الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٣) معالم السنن، (١/١٨٧).

(٤) شرح مسلم، (٤/٢٢٢).

يُصَلِّي فَلَا يَدْعُ أَحَدًا يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّ مَعَهُ الْقَرِينَ» (١).

وَقَدْ اُخْتَلَفَ فِي الْحِكْمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلأَمْرِ بِالدَّفْعِ، فَقِيلَ: لِدَفْعِ الإِثْمِ عَنِ المَارِّ، وَقِيلَ: لِدَفْعِ الخَلَلِ الوَاقِعِ بِالمُرُورِ فِي الصَّلَاةِ، وَهَذَا الأَرْجَحُ؛ لِأَنَّ عِنَايَةَ المُصَلِّي بِصِيَانَةِ صَلَاتِهِ أَهَمُّ مِنْ دَفْعِهِ الإِثْمَ عَن غَيْرِهِ قُلْتُ: وَلَوْ قِيلَ: إِنَّهُ لَهُمَا مَعًا لَمَا بَعُدَ، فَيَكُونُ لِدَفْعِ الإِثْمِ عَنِ المَارِّ الَّذِي أَفَادَهُ حَدِيثُ: " لَوْ يَعْلَمُ المَارُّ (٢) " وَلِصِيَانَةِ الصَّلَاةِ عَنِ النُّقْصَانِ مِنْ أَجْرِهَا فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنِ عُمَرَ: " لَوْ يَعْلَمُ المُصَلِّي مَا يَنْقُصُ مِنْ صَلَاتِهِ بِالمُرُورِ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا صَلَّى إِلَّا إِلَى شَيْءٍ يَسْتُرُهُ مِنْ النَّاسِ، وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: « إِنَّهُ لَيَقْطَعُ نِصْفَ صَلَاةِ المَرْءِ مُرُورُ المَرْءِ بَيْنَ يَدَيْهِ » (٣) وَلَهُمَا حُكْمُ الرَّفْعِ، وَاللهُ أَعْلَمُ (٤).

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوباً لنا حالت بيننا وبين كثير من بركات الصلاة، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر معانيها.

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا، فإنه لا ييأس من

(١) مسلم، (٥٠٦)، وفي النهاية لابن الأثير (٤/ ٥٤): قرين الإنسان هو مصاحبه من الملائكة والشياطين فقرينه من الملائكة يأمره بالخير ويحثه عليه وقرينه من الشياطين يأمره بالشر ويحثه عليه.

(٢) حديث « لَوْ يَعْلَمُ المَارُّ بَيْنَ يَدَيْ المُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ، لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ » قَالَ أَبُو النُّضْرِ: لَا أَدْرِي، أَقَالَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ شَهْرًا، أَوْ سَنَةً، أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ، (٥١٠)، وَمُسْلِمٌ، (٥٠٧) ..

(٣) البدر التمام شرح بلوغ المرام، للمغربي، (٢/ ٣٦٥).

(٤) أثر ابن مسعود أخرجه ابن أبي شيبة، (٢٩٠٨).

روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا القوم الضالون.
وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة
وسلامًا دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم
الصالحات.



فهرس المحتويات

٥	مُتَلَمِّتًا
١٥	المبحث الأول: مشاهد الصلاة التي تقرُّ بها العين
٢٨	المبحث الثاني: صلاة النبي ﷺ
٣٦	المبحث الثالث: صلاة الصحابة - <small>رضي الله عنهم</small>
٤٣	المبحث الرابع: صلاة التابعين وأتباعهم
٤٧	المبحث الخامس: التحذير من ترك الخشوع في الصلاة
٥٤	المبحث السادس: منزلة الخشوع في الصلاة
٥٧	المبحث السابع: حكم الخشوع في الصلاة
٦٤	المبحث الثامن: حكم الوسوسة في الصلاة
٧٠	المبحث التاسع: الخشوع في الصلاة من إقامتها
٧٨	المبحث العاشر: الصلاة بخشوع قرّةٌ للعين وراحةٌ للقلب
٨٢	المبحث الحادي عشر: مراتب الناس في الصلاة
٨٤	المبحث الثاني عشر: الخشوع في قراءة القرآن في الصلاة وغيرها
١٠٢	المبحث الثالث عشر: أهمية حضور القلب في الصلاة
١١١	المبحث الرابع عشر: فوائد و مزايا الخشوع في الصلاة
١٤١	المبحث الخامس عشر: الخشوع يثمر التلذذ بطعم الإيمان
١٦٥	المبحث السادس عشر: أمور بها يُستجلب الخشوع وهي:

- الأول- معرفة الله تعالى ١٦٥
- الثاني- مما يستجلب به الخشوع، معرفة أسباب قسوة القلب، والعلاج. ... ١٧٧
- السبب الثالث: الابتعاد عن الوسوسة؛ فإنها أعظم موانع الخشوع في الصلاة.... ١٨٧
- السبب الرابع: ذكر الموت في الصلاة. ١٩٣
- السبب الخامس: تدبر القرآن، وفهم وتدبر معاني أقوال الصلاة. ٢٠١
- السبب السادس: الاجتهاد في الدعاء قبل الصلاة وفي مواضعه في الصلاة. . ٢٢٥
- السبب السابع: فهم وتدبر معاني أفعال الصلاة. ٢٣١
- السبب الثامن: فهم وتدبر معاني أقوال الصلاة: ٢٣٦
- السبب التاسع من أسباب الخشوع: إحسان الطهور، وإكماله..... ٢٩٣
- السبب العاشر- المحافظة على السنن الرواتب قبل الفريضة وبعدها. ٢٩٨
- السبب الحادي عشر- سنن تساعد على الخشوع ٣٠٠
- فهرس المحتويات ٣٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



لخدمات الطباعة

بإشراف مكتب اللؤلؤة لخدمات الطباعة

01007868983 - 01033336232

يُوزع مجاناً ولا يُباع

قراءة عيون الموحدين وروضته قلوب الخاشعين



دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

تأليف
صبيحي بن محمد رمضان

للإطلاع
على قائمة
الإصدارات

قم بملسح ال QR Code



Elollaa-Designs

@DarElollaa @DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 - 0502357979

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر
بإلهم سبحانه الأتم